نبيل حميدة

أنا وسلوى

رواية

أصفاد الهجر وأجساد الغدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1442 هـ - 2020 م
(ISBN) :978-9931-13-018-5
إيداع القانوني: 04 /2021

اسم العمل: مقالات لبعض المقامات.
اسم المؤلف: نادية زيتون.
المدير العام / سميرة منصوري.
إخراج: سيف الدين.ل.

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على فيسبوك:
https://www.facebook.com/elmothakaf
العنوان: رحى كالانج شارع الكتب القديمة طريق بسكرة-باتنة
البريد الاكتروني: elmouthakaf2@gmail.com
هاتف / فاكس: 97 74 08 330/ 91 40 86 0770
واتساب: 86 73 49 0675

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر.
©

نبيل حميدة

أنا وسلوى

أصفاد الهجر وأجساد الغدر

رواية

المثقف للنشر والتوزيع

إهـــداء

المثقف

أهديها بصدق إلى من داعبتني معها أحاسيس الحبّ العفيف... وجرفتني معها إلى شلّال العشق الهائج حتى انقلب كياني وصرت مَلكا وعَبدا بتلك المشاعر.

كانت قاعة الحانة تبدو شاغرة لأنّ الوقت لا يزال باكرا... فلم يبدأ المساء طفولته بعد... يوما بائسا في حياتي... عندما زجّت بي مشكلتي العاطفيّة البسيطة مع معشوقتي في غياهب الحانة... مضت بي رجليّ إلى مكان عرض المشروبات ووقوف النّادلة أو الكونتوار وهو اسمه بالفرنسيّة كما يحبّ الجزائريّون هنا أن يسمّونه... كانت كراسيه الطويلة والجلسة بجوار النّادلة الجميلة والاستمتاع الجيّد بالأغاني أثناء الانخراط في الشّرب هو ما يستهويني في ذلك المكان مساءً... إضافة إلى أنّ كلّ نادلات الحانة يكنّ في حالة شغور ذلك الحين... بعيدا عن انشغالات وصخب الليالي الذي يجعلهن كالعملة النّادرة لا يفوز بمجالسة أجملهن إلّا من يُرضي أطماع أصحاب الحانة... ويسحب من محفظته المال دون هوادة... وحتى لو فزت بمجالسة إحداهن فلن تستمتع معها بحديثٍ أبدا لفرط الصّخب.

لحسن حظي تلك العشيّة كانت فارسة الكونتوار فتاة شقراء فاتنة لم تُكمل التّاسعة عشر بعد من عمرها... عودها الفارع وقدّها المياس أضافا على مكان النّشوة كمالا...

استغربت للحظة كيف يستقرّ جمال آريّ كهذا في هكذا قرار... كيف يصير منزلها الحانة.

سلبني جمالها وفتنة عينيها ورقّة صوتها فأردت أن أستأثر بها لمجلسي... فصارحتها إن كان من الممكن أن أطلب لها شرابا وتتفضّل لتزيّن لحظتي وتشاركني مجلسي.

أفرحتني عندما وافقت فنادت لرفيقة لها لتعوّض مكانها... وأخذتها في حضن يدي إلى طاولة مجلسنا... كانت طاولتي قريبة من الكونتوار لنستمتع بالأغاني ونتحكّم فيها ولتسهيل الأمر على فيفي لسقايتي... فيفي وهو اسم نديمتي الشّقراء... لأنّي الزبون الوحيد غير اثنان آخران كانا منغمسان في

جوف الصالة مع كؤوسهم بعيدا عن الاهتمام بمحيطهم.

طلبت حين اعتدالي في نشوتي بعد كأسين ضخمين من البيرة أغنيّة للشاب حسني... كان مطلعها طال غيابك يا غزالي.

ابتسمت لي فيفي قائلة: يجب أن تكون عاشقا إذًا.

صارحتها دون تردّد: وهو الذي أتى بي هنا عندكم.

استفسرتني بلطافة: لماذا؟ ما الذي جرى؟ أفارقتك حبيبتك؟ وانغمست في ضحكة استهزائيّة.

قلت لها بلهجة فلسفيّة بعد أن لعبت النّشوة لعبتها بي: أتعلمين أنّ ضحكك مقنع لأنّ الفراق بين الأحبّة أصبح كالموضة أو الصرخة الجديدة في وقتنا... لازما في معظم القصص... حتى أنّهم يتسابقون في إعلانه لبعضهم البعض... معلنين فوزهم في العلاقة المسرحيّة... فخرجت للعيان مسميات عديدة تنعت مثل هذه الأنواع من العلاقات الهزيلة... كعشق طايوان... أو عشق صنع في الصين... أو عشق الخداع... تنصهر كلّ هذه المسميات الرّائجة في الشّارع الجزائريّ وفي أغانيه الرّايويّة في بوتقة الحبّ الكاذب الذي لا يدوم طويلا... ويكون سبب وضع شهادة وفاته كلّ مرة توفّر فرصة أفضل لأحد الحبيبين أو قل الانتهازيين... فترى فتاة تترك حبيبها جريا وراء ثراء آخر أو وراء سيرة مهنيّة أفضل لآخر... أو ترى ذكرا يقطع وصال حبّه من أجل جمال أفضل أو حتى جمال يصاحبه ثراء أو مركز اجتماعيّ مرموق... لا يهمّ في هذا القطع دموع الطرف الآخر الذي يكون بريئا دائما... أو حتى موته قهرا... فلا تستمر براءته في النّمو أبدا بعد ذلك... بل تموت لحظة الدّمع... ويتمّ بذلك الفراق الجائر صنع مخادع آخر... ربما يكون أشدّ قسوة من جلاده الأول... والويل الويل لمن يقع في شباكه في المستقبل.

المثقف

قاطعت فيفي قولي الذي أخذها بعيدا بتنهيدة طويلة: كلامك حلو وصحيح... وهذا هو الموجود حاليا... لكنّك جرحت بكلماتك جرحا فيَّ قديم... لم يندمل بعد... وكيف يندمل وأنا أصحو كلّ يوم على حقيقته... فمآلي هذا في هذا المكان الذي لا أتمناه لأيّ فتاة هو من صنع حبّ خادع.

توسعت حدقتاي اهتماما بكلامها... مومئا لها بتفاجئي المتحسر... تاركا لها الفرصة لإكمال قصتها.

أكمَلتْ حروفها الحزينة بعينين تعيستين سارحتين في أحزان ماضيها قائلة: إنّ سببي هو نفس سبب معظم هاته الفتيات اللاتي تَراهنّ هنا وفي الأماكن المشابهة.

سلّمتُ نفسي لذئب خائن... افترس شرفي وفضّ بكارتي عند أوّل فرصة... ملك أمري بحبّ جارف فأطعته على تدمير نفسي... وتركت معه منزلي هاربة من الشّرف إلى الهاويّة... فتركني في أوّل الطريق بعد أن أشبع غريزته منّي هو وأصحابه... أصحابه الذين فرحوا بتوفر عاهرة تؤنس لياليهم الحمراء... حاولت الرّجوع لدارنا بعدما طردني ليلا بعد سكره... لكن أهلي تبرّأوا منّي وقالوا لي هاتفيًا ابتعدي أفضل من أن يقتلك أحد إخوتك... فتتسببين له بالسجن مدى الحياة من أجل كلبة.

سدّت في وجهي كلّ الأبواب... فتبعت أوّل فرصة صادفتني من أحد الشّباب الشّهواني... فأتى بي إلى هنا... تبادلت حينها الكلام آخر سهرتي مع نادلة هنا لتتوسط لي في العمل هنا مهما كان الأجر... كان غرضي الأوّل سقف يأويني.

جمالي وصغر سنّي هو ما ساعد في قبولي.

وها أنا ذا أمامك أمارس الدّنيا بجسمي ميتة القلب.

تنهّدتُ الحزنَ لقصتها المؤلمة ولم أجد حروفا أواسي بها جُرحَ أيّامها الغائر...

فداعبتها بقولي: أتعلمين أنّك في أفضل مكان وأزهى مكان... فلا يوجد في الخارج غير المشاكل والأحزان.

ضحِكتْ أخيرا وأفرحتني لتناسيها الآلام وتابعتْ قولها بسؤالها لي: لم تقل لي سبب قصّتك؟!... فمن كلامك يبدو أنك تفهم في الحبّ العذريّ الصادق... فهل حبّك صادق أو حبّ عاهر فقط؟

أنكرْتُ عليها سوء ظنّها بي... وضممت نفسي لصف العشاق الحقيقيين المنقرضين... غيّر أنّني أوضحتُ لها أنني عاشق في أوّل الاختبار... وأنّ قصتي ليست منخرطة بعد في التعقيد... لأنّها لا تزال في أيّامها الأولى...

بطلة قصتي إحدى المعلّمات الفاتنات التي اختارها قلبي لتكون نصفي الآخر... لكنّها تحيط نفسها بكثير من الحيطة والحذر... فجعلت من الوصول إليها أشبه إلى المستحيل... فكل محاولاتي للوقوف أمامها باء بالرفض... معلّلة ذلك بنظرات المجتمع... فاضطرني الوضع إلى البحث عن رقمها...

حصَلتُ عليه بعد أن رشيتُ إحدى الفتيات القريبات منها...

كلّمتُها فتقطع عندما تسمع صوتي الذكريّ مباشرة... حيّرتني جدا... فلمعت في بالي فكرة مراسلتها... فجربت الرّسالة الأولى والثانية والعشرين... مبديا لها كلّ نيتي الحسنة.

فلا كلّمتني ولا ردّت على رسائلي.

فأنا الآن في الانتظار الجهنميّ لردّها على حروفي.

انفجرت عندها فيفي ضاحكة بشدّة... وقالت: سبحان الله!... لقد ذكّرتني بأحلى وأروع وأصدق قصّة غرام سمعتها في حياتي... لَعَمري أنّها لتحفة من تحف الزمن الغابر... تثبت أن الحبّ العذريّ لايزال يعيش بين ظهرانينا...

لقد أيقظت تلك الأيقونة التي سرت وقائعها في زماننا هذا من ذاكرتي... ذكّرتني بها بكلامك عن الرّسائل التي تعَطّلَ جوابها.

قصة كان بطلها رجل بأتم معنى الكلمة في نظر الفتيات الحالمات بالعشق الصادق... شاب من جنس الرّجال... فاتن ساحر العينين تحس الحبّ يقطر من عينيه... تحيط به هالة عظيمة تجعلك تصبو لسبر أغواره... وتحثّ كلّ أنثى على تسليمه نفسها على طبق من ذهب... لأنّها تشمّ في عينه احتراما شديدا للأنثى وتقديرا أعظم لمفاتنها... يعرف للرموش معزّتها وللعيون قرارا... ترى عاشقا في عيونه يحترم الجمال ويقف عنده مشلولا... عاشقا يتقن الغوص فيك وإمساكك عن إدراك محيطك بلحظة... يتقن لعبة العيون... ويدمن ممارسة الحبّ بها... عاشق يحبّ العيون.

تابعَتْ قولها بعينين لامعتين: كانت جلسة خمر وفي جلسات خمر الرّجال... تظهر خصالهم البطال... ويظهرون في أبهى حلة وأروع شخصيّة... مَلَكَ حالي بنظراته واستفتاني أن أكون نديمة له على سريره تلك الليلة... فقبلت من فوري وقلبي يشكره أن أعطاني الفرصة.

كانت ليلة من الأحلام أرضى بها شغفي... أتمّها بعد سكره بكلامه عن قصته التي أخذتني معها إلى السّابعة صباحا دون نوم... كانت ليلة عظيمة في حياتي... فتنني فيها بآهات روايته المشوقة وبصدق الحبّ الذي سكب فيها... أيقظ في نفسي ليلتها حبّي الطفولي لسماع قصص العشق المخمليّة التي تطفو بك فوق سحاب الأحلام السّعيدة... وأيقظ فيَّ الرّغبة في الحبّ وإحساسه السّحري.

قاطعتُ حينها كلامها ومدحها الذي رأيت أنّه لن ينضب... وقلت لها بعد أن بلغ شوقي ذروته: لقد شوّقتني جدًّا لحكايته وحكاية عشقه... وأنا مثلك أزداد نموا وسعادة بسماع قصص العشق الخياليّة... التي أؤمن بها وأحِنُ لمشاعرها التي جربتها من قبل فأسكرتني... فهلّا شاركتني حكايته أرجوك...

فقالت لي ضاحكة منتشية بالنبيذ: إنّ قصته شيّقة حقيقة... ولكن ضيق وقتي يُصَعِّبُ عليَّ سردها لك بكلّ تفاصيلها الدّقيقة... فأعذرني أرجوك... ولكن احتراما لقلبك العاشق سوف أسلّمك نسخة إلكترونيّة من قصته.

تفاجأتُ وانفجرت ضاحكا: ماذا؟ أكتبها في رواية؟

قالت: نعم... لقد روى فصول القصة لأحد أصحابه الكُتَّاب فنظمها في حروف تحمل بعضا من مشاعره التي ذرفت بالقناطير... وترجاني ألّا أسلمها إلّا لمن خَبِرَ الحبّ بصدق وخَبِرَ معاناته.

أخذَ لبّي كلامها... وصرت متلهفا أكثر للعيش في حروف هذه الكلمات الخبيئة...

* * *

تسلّمت ملف القصّة الحقيقيّة... بينما تركتني فيفي وذهبت لتعدِّل مكياجها وترتاح قليلا... لأنّ فتنتها جعلت منها نجمة السّهرات وعضوها الأساسي...

كان قد مضى على جلوسي أكثر من ساعة... فأعلنت اكتفائي من النّبيذ... فأخذت نفسي السّعيدة وهممت بها إلى المستنقع الخارجي... حين خروجي أدركت أنّني ما زلت في حي من أحياء العاصمة... كنت في أحد أحياء بلدية القصبة... كانت السّاعة تشير إلى السّادسة مساءً... واصلت مشيي على الكورنيش العاصمي... أنعشتني نسمات البحر الباردة وأطارت بعضا من نشوتي العسليّة...

صعدت إلى منزلي الواقع بجانب حديقة بور سعيد أو حديقة السكوار كما نسمّيها نحن في العاصمة...

بعد تناول وجبة خفيفة مبكرا من الكبد المشويّ كنت قد اقتنيتها من مطعم بجوار المنزل... انفردت على سريري بجهاز حاسوبي المحمول...

صديق فراشي... وضعت فيه الملف الذي ما زال الشّوق إليه يشدّني وافتتحت الكلمات الحقيقيّة بلا صبر.

كانت حروف القصة الآسرة للألباب مرتبة على هذا النّحو... أخذت في الصعود على درجات سلم تشويقها درجة درجة:

كل درجة فيها تحمل لوحة حياتيّة تمثّل فصلا زاخرا في مرحلة حياة هذا العشق الواقعي البسيط العميق الحقيقي...

كانت درجاته بعدد الرجال في لوحة العشاء الأخير لليوناردو ديفينشي .. تلك اللوحة اللغز التي رسمت بين ظهرانيها أرقى الحواريين الإثني عشر وزينتهم بالمسيح عليه السلام في وسطها .. ليتمّ عددهم ثلاثة عشر.

المثقف

الدرجة الأولى
طيش شبـــــاب

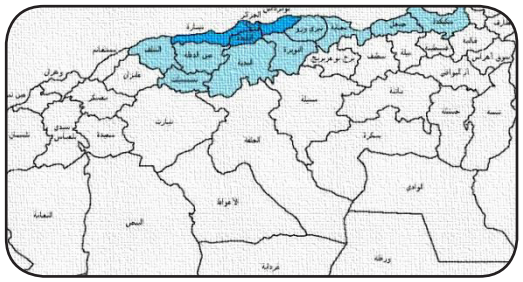

طيش شباب

«الحــبّ ســر عظيــم يعجــز الفكر عــن سَــبر أغــواره... هو الشّــقاء بعينــه إن هو أمســك بقلب منفرد لــم يعترف به وبإحساسه قلب محبوبه... وهــو النّعيم بعينه إن هــو أفلــح في جمــع قلبين تحت لــواء الإخــلاص والوفاء...

الحــبّ هو ذاك الشّــعور الــذي يعطيك الحق في مقت وكره شــخص ونعته بأقبح الأوصــاف لمجــرد إهماله لــك أو محاولته إخراجك مــن دائرة اهتمامــه أو ميله نحو عــدم الرّضــوخ لرغبتــك فيــه بعد أن سـلّمته القلــب والتفكيــر... وهو ذاك الشّــعور الــذي يجمــع بيــن قلبيــن متخاصميــن فيــه بطرفة عيــن ولو بعــد هجر ســنوات أو عنــاد طويــل... وهــو ذاك الشّــعور أيضا الذي يُكسـبك الحق في محاسـبة شــخص علــى تصرفاته أو نظراته والتفاتاتــه أو حتى صداقاته وحياتــه... فالإذعان كلّ الإذعان فــي دروبــه مخافة اشــتعال نيرانــه التي لا تُبقــي ولا تَذَر... ولا يُشْــبه حُــبّ حُبًّا أبدا فتعــدّدت ضروبه ما بيــن المحتمل والمســتحيل...

أمّا في قصتنا فالحبّ فيها سلك براكبيه طريقا وعرة جعلته حين انفجاره غير محتمل كأنّه ضرب من ضروب الجنون... أدّى بسُــكانه إلى الهروب عِوض السّعي إلى الأحضان.

* * *

في بن عزوز إحدى بلديات ولاية سكيكدة الواقعة على ساحل شرق الجزائر وُلد إيهاب أوائل الثمانينات وترعرع تحت سقف بيت محافظ فقير... كبر في أرجائه شاربا لقيم الفضيلة الطاهرة والحياء من كلّ ما هو حرام شرعا ومرفوض اجتماعيًّا... لكنّه رغم طيبته إلّا أنّه في شبابه لم يكن مثاليًّا إلى أبعد الحدود... فشفاهه تستطيع أن تكذب... وشهوته تستطيع أن تُدنيه في معظم أوائل الفرص.

كَبُر شيئا فشيئا في كنف تلك المدينة... ونمت خلايا جسمه وعقله مع الأيّام فبانت صفاته للعيان... ذكيًّا خجولا وسيما فاتنا ذو عينين ساحرتين لمّاعتين عسليتين... ذو بشرة بيضاء ذو شعر غجري أشقر يميل لونه إلى البنيّ... طويل القامة ممتلئ الجسم في حدود ضيّقة يتمتع ببنية رياضيّة محبًّا لكمال الأجسام.

كانت أُسرته الصغيرة تتكون من أخوين ووالدين... والده الحاج أيوب وأمّه الحاجة زُليخة... أمّا أخويه فالأكبر منه بعشر سنوات يدعى باسم متزوج من صبية من العائلة تدعى سارة وازدان فراشهما بابن كالدّر سَمّوهُ وائل... مقيمين في غرفة في منزل الأسرة ويتشاركان المطبخ مع الأسرة... أمّا أخوه الأوسط نسيم الأكبر منه بخمس سنوات... فقد أكمل جامعته ويعمل في أحد مصانع الأجر الأحمر في مدينة بومعيزة القريبة من مدينته... التي لا تبعد عن بن عزوز إلّا بـ 8 ثمانية كيلومترات... يعمل بالمصنع في مجال صيانة التجهيزات،

في سن الـ 18 دخل إيهاب جامعة 20 أوت 1955 بعاصمة الولاية سكيكدة... مسجّلا نفسه في شعبة الجذع المشترك التكنلوجي الذي تتفرع منه بعد عامين كلّ فروع الهندسة المختلفة...

قضى أيّامه الأولى والتي تلتها مستمتعا كأقرانه بحريته الجديدة... مستكشفا البيئة التي أطلّ عليها حديثا بشغف... يقضي فراغه في التسكع بين دروبها يعاكس فتياتها... لاهثا وراء أجملهن للفوز بمصاحبتها أيّامه التالية... كان ذلك هو ما يشغل أذهان معظم الطّلبة... ليُسعدوا أيّامهم بحنان المواعدة وأحضانها...

أمّا في الإقامة فقد كانت هناك حريّة من نوع آخر... كأنّك كسبت بيتا تفعل فيه ما بدا لك... السّهر والموسيقى الصاخبة كانت أفضل رغباتهم المكبوتة... لذلك كانت غرف الإقامة تصدو كلّ مساء كأنّها قاعات حفلات...

كان كمعظم شباب الجزائر في تلك الفترة محبًّا لسماع أغاني أشهر مغني عاطفي في الجزائر وهو الشّاب حسني صاحب الصوت الحساس الذي يجعل من مستمعيه حساسين بشكل لا إرادي... لذلك كانت معظم تلك القاعات أو الغرف تُعْنَى بوضع أغانيه بصوت عالي يزيد فرحتهم...

كانت شلّته فوضويّة بأتمّ معنى الكلمة... يرفعون صوت المسجلة داخل الغرفة الجامعيّة بالأغاني كلّ يوم إلى ساعة متأخرة بالليل غير آبهين بجيرانهم في الإقامة...

كانت الحياة الجامعيّة جميلة كجمال حياة وعنفوان شباب ساكنيها.

مضت ثلاثة سنوات داخلها دون أن يشعروا وهم على هذه الحال... ساءت حالتهم بعد انحلال أخلاقهم باحتكاكهم ببعض الفتية فأصبح الخمر جليسهم المفضل... يُنظّمون حفلة كلّ مرة يحصلون فيها على المنحة الجامعيّة... حفلة كانت كلّ أصناف الخمر والكحول والمخدرات أبطالها... كانت صاخبة كأنّها داخل أحد أكبر الملاهي أو البارات... كانت أغاني الرّاي والشاب خالد أحد أبرز ما يسمع أثناءها.

استمر الحال وكأنّ أيّام تلك الحفلات أعياد بالنسبة لأولئك الفتية... أيّام أهم من أيّ شيء في تلك الجامعة... أعياد للهرب من روتين تلك الإقامة التي صاروا يدعونها مقبرة...

كان سبب عدم تنظيم تلك الحفلات بكثرة هو عدم القدرة على احتمال تكاليفها... لذا كانت معظم الليالي يتّم قضاؤها بتدخين سجائر المخدرات.

لم تكن كلّ هذه الانزلاقات الأخلاقيّة إلّا بحثا عن السّعادة وفي سبيل إعادة نشوتها الأولى التي سكنتهم عند تجريبها.

يقول مرّت الأيّام هكذا ولم ألاحظ معها مرور السّنوات... حتى فقد جسمي نظارته وبعض وزنه وذهب معه ذلك الجسم الممتلئ صاحب العضلات البارزة... فصرنا نلفّ سجائر المخدرات ليس بحثا عن النّشوة الكاذبة... بل للحصول على مزاج إنسان عادي لأنّ فقدان تلك المخدرات أو الكيف المعالج كان يسبّب ارتباكا لكلّ من أدمنه... فأصبح الحصول على سيجارة كِيفْ هو الشّغل الشّاغل في كلّ يومنا.

تغيّرت مع الأيّام الغاية الأولى من تناول المخدرات من مساعد للحصول على نشوة والاستمتاع بالذاكرة الجميلة خاصة من له ذكريات حب جميل وصادق... إلى تناولها لإرضاء طلب من خلايا جسمنا لإعطائنا راحة إنسان عادي فقط.

يقول وكأنّنا خلال مدة دراستنا كنّا نبحث عن التعاسة، لا السّعادة... فآثار المخدرات كانت بارزة فينا...

* * *

قرّر فوزي وأيهم شريكا إيهاب في الغرفة الالتحاق بالمدرسة العسكريّة... أمّا الشّريك الثالث شاهين فاختار أن يكمل بعد دراسة العامين التخصص في جامعة سطيف التي تبعد عن سكيكدة بحوالي 300 كلم في فرع الفيزياء النّوويّة.

أمّا إيهاب فأعاد العام الدّراسي للمرة الثانية في السنة الثانية... والسبب الرّئيس كان بالطبع قلة حضوره الرّهيبة جراء السّهر الدّائم الذي أدمن عليه... فأثّر ذلك على نقاطه التدعيميّة (TD) التي تدعم نقاط الامتحانات بنسبة الثلث... حاول أن يوفّق بين ذلك بزيادة معدل نقاط الامتحانات... ولكن هيهات فكما يقولون: سبقه القطار.

خرج كلّ الطلبة في عطلة تلك السّنة وانقلب كلّ طالب إلى حياته الشّخصيّة... تاه إيهاب تلك العطلة كثيرا ولم يستطع الوقوف على فكرة معيّنة يأخذها طريقا يسلكه... أرسل ملفا للأكاديميّة العسكريّة لمختلف الأسلحة بشرشال بولاية تيبازة عسى أن يتمّ قبوله.

مضت الأيّام ومخيلة الشّاب أخذته بعيدا، أصبح لا يرى نفسه إلّا ضابطا عسكريًّا... وراح تفكيره لا ينفك يشغله في تلك الحياة... عاش بعقله ضابطا... المسكين قطع تفكيره أن له شخصيّة أخرى هي -إيهاب الجامعي -.

مرّت الأيّام والبهجة تملك قلبه... كانت الفترة الصيفيّة تقارب على الانتهاء

وشهر أكتوبر كان مطلع تسجيلات الجامعة...

إيهاب المسكين ولفرط حبّه لشخصيّة الضّابط التي عاش كامل شهور الصيف وعقله يمثلها له في أحلام نومه ويقظته، أحبّ نفسه ضابطا... كان يراها أنّها الحل لكلّ ما يحلم به في مستقبله... وطلّق مشروعه الجامعي نهائيا.

مرّ أكتوبر، ونوفمبر، وديسمبر، وأتى موعد إجراء مسابقة الدّخول الأكاديميّة... ذهب والأمل يملؤه خصوصا وأنّ بعض أقاربه كلّم له بعض معارفه هناك.

دخل المسكين بتلهف غيّر أنّ الرّياح قلّبت سفينته... فقد فوجئ بصدور قانون يمنع المشاركة في المسابقة إلّا على من يحملون شهادة بكالوريا حديثة لذلك العام أيّ للطلبة النّاجحين حديثا فقط.

استقبل إيهاب الخبر كالصاعقة لدرجة أنّه لم يكن يسمع كلام الضّابط الملازم وهو يعيد شرح ما استجد في ذلك القانون... لأنّ الرّسالة الحزينة قد وصلت خناجرها إلى القلب وما عاد يأبه للمزيد من الحروف.

فارق الملازم حزينا لم يكن لدرجة صدمته قد أدخل الأكسجين الكافي لصدره... ما اضطره إلى استنشاق كميّة كبيرة في شهيق ضخم استرجع معه هدوءه... رجع إلى العاصمة ومنها إلى البيت يجرّ أذيال الخيبة وهو لا يعلم أين ذهب حلمه.

قارب بعدها شهر جانفي على الانقضاء... لم يرَ حلًّا غير الرّجوع إلى الجامعة التي ومن حسن حظه كان تسجيله فيها تلقائيا... ذهب في غده ليسأل عن إمكانيّة سحب وثائق دراسته الجديدة لينظم للصف... ومن حسن حظه أيضا أنّه كان يمكنه ذلك... فلا ينزعون المتأخّر عن سحب وثائقه من القائمة إلّا أوائل شهر فيفري.

سجّل المهزوم وذهب إلى غرفة صديقه حازم... كانت غرفة حازم مثلها

مثل غرفته الماضية تضمّ شلة من أبناء المنطقة أو رفقة الثانويّة المقربين وهم أيضا من شلته عاشوا نفس ظروفه وعايشوا معه معظم أيّامه في غرفته الأولى.

حازم وفادي كانا من المقربين لإيهاب... كان فادي أشبه ما يكون له محبّ للمرح والضحك وخفة الظل وسيم وأنيق... شاعري أبيض البشرة في نفس طوله يقارب المتر والثمانين سنتمتر... أمّا حازم فكان يشابههم في الرّوح المرحة ولكنّه كان أقصر قليلا أسمر البشرة أجعد الشّعر يتمتع بوسامة وعينين جذابتين وبنية أقوى عضليًّا.

استقر إيهاب معهم فيما كانت عيناه سارحتان من النّافذة في الأفق وفي الأيّام المقبلة... أذّن حينها المؤذن «حي على الصلاة»... نزلت السّكينة على قلبه وحنّ إلى صلاة.

صلاة المراهق الجزائريّ كانت لمعظمهم ليست قرة عين... بل كانت متقطعة... نزل إلى «دوش» (حمام مرشي) الجامعة... اغتسل وذهب إلى المصلى وعقد نيّة التوبة وطلب من الله التوفيق أيّامه القادمة... صلّى مع الإمام... اطمأن قلبه وساعده كثيرا أيضا الجوّ في غرفة حازم وفادي... فقد كانوا من كارهي إدمان الأعوام الماضيّة... اتفقت الشّلة على ترك ذلك الشّر المدقع.

استعاد مع الأيّام الجميع حيويته ونظارته التي ذهب بها الإدمان... كان الجميع يتمتع بذوق في اللباس من النّوع الذي يجلب الأنظار... كان حازم أكثر المجموعة معاكسة للفتيات وأكثرهم عددا للعلاقات معهن في السّابق...

كان الوقت يمرّ في ملاحقة الجميلات ومغازلتهن وكان الكلّ يضحك مستمتعا حين تصدر مغازلة جميلة من أحد الثلاثة...

مضت الأيّام أصبحت غرفة حازم تضمّهم الثلاثة فقط بعد أن استأذن رابعهم أيمن في الذهاب إلى غرفة أحد شركائه في الدّراسة.

* * *

الدرجة الثانية

سلوى وشيرين

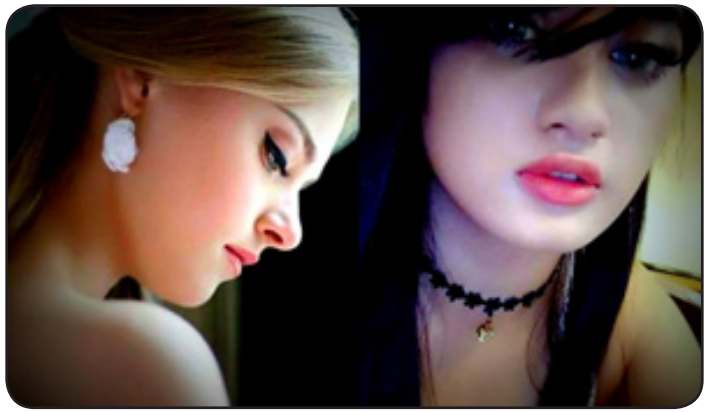

سلوى وشيرين

استقرت أيّام إيهاب... وانكبّ على دراسته... كان فصله كثير الفتيات الجميلات... وكانت دراسته كثيرة الأعمال التطبيقيّة ما تحتم عليه إنشاء فرقة أو مجموعة تطبيقيّة (GROUPE DE TP)... كانت المجموعة تتكون من ثلاثة أفراد... اختار له البروفيسور فتاتين سلوى وشيرين...

كانت شيرين من عاصمة الولاية أي سكيكدة أمّا سلوى فبنت منطقته لا تبعد إلّا بضع أميال عن مقر سكناه... ولكن لم يكونا يعرفان بعضهما البعض... كانت أصغر منه بعامين كونه أعاد عامين في الجامعة.

كانت سلوى جذابة بأتم معنى الكلمة... فاتنة لكن ليست من النّوع الذي يجلب الأنظار... كانت الحشمة والحياء في مشيتها ولباسها من ستر عنها العين المعاكسة.

جلس إليهما إيهاب ومثل كلّ أوّل لقاء يتوجب على أحدهم أن يذيب

الجليد كما يقول المثل المعروف... عرّفهما إيهاب بنفسه بطيبة... خصوصا بعد معرفته جيّدا لعائلة سلوى الذي كان أحدهم زميلا له في المدرسة الابتدائية... اطمأنت سلوى له باستحياء وذاب الجليد قليلا بينهما... كلّ هذا وإيهاب لم يركّز كثيرا في عيني سلوى خشية إزعاجها.

أحسّ باجتنابه لعينيهما وكأنّهما ارتاحتا للحديث معه فاتخذها لا إراديًّا عادة.

سلوى صاحبة العشرين سنة تقريبا كانت في أقوى أيّامها متمتعة بفتنة صارخة وبياض ناصع وعينين سوداوين واسعتين يتيه فيهما الرّائي... وفم عسلي كالخاتم معقود... وأنف كأنف الطير صغير جميل... وشعر كانت بعض خصلاته الحريريّة تنسدل عاصية من تحت حجابها الذي يتّخذ دائما لون الورود... كانت تلك الخصلات الشّديدة السّواد تضفي على بياض الوجه الفاتن رونقا متكاملة في تناسق مع سواد العيون الواسعة... فوق كلّ هذا القد كان ممشوقا ممتلئا... تطعنك حين إمعان النّظر بصدرها النّحيف وحوضها الواسع الذي يسلب الألباب.

كانت رقتها في كلامها اللطيف المتزن الذي يضفي على الجوّ روعة وموسيقى... ما جعل إيهاب مستمتعا بكلامها الخجول.

أمّا شيرين فكانت أوّل ما يرى منها شعرها الأشقر وقدها الممشوق لممارستها الأيروبيك بأحد قاعات فتل العضلات والجيم الخاصة بالنساء... وكانت تجتهد في إبراز مفاتنها الأخاذة لعقول الشّباب... حتى رائحتها كانت زكيّة مُشهّية لكلّ من يقترب.

ولكن كلّ هذا كان لا يعكس طيبتها ولطافتها.

كان حالها أيسر من حال إيهاب وسلوى ماديًّا ما جعلها من عاشقي آخر صيحات الموضة في اللباس الذي أخذ يضيق يوما بعد يوما.

وكما يقول علماء النّفس والعلاقات البشريّة فإنّ ردّ الفعل يعتمد على الفعل... فلمّا كانت سلوى علاقتها خجولة متردّدة مع إيهاب... ولّد هذا خجلا منها في نفسية إيهاب لا إراديًّا... فأصبح يتحاشى الكلام معها قليلا... أو حتى الكلام معها منفردة... خلاف شرين التي كانت منطلقة سبّاقة بالكلام... تأبى أن يعمّ السّكوت في المجموعة... كانت عنصرا أساسيًّا محوريًّا أطلقت شخصية إيهاب الحقيقيّة المرحة من عرينها... أصبح يحسها كأنّها صديقه حازم أو فادي.

عمّت الحيويّة والضحك في المجموعة... لكن المضحك أنّه كلّما سقطت عينا إيهاب بعيني سلوى يجدها غارقة في تأمل تفاصيل وجهه فتخجل وتديرهما عنه... يتبسم فيها إيهاب... تنظر سلوى نظرة خاطفة لابتسامته تفرح بها وتخبئها في عقلها كأنّها تُكوّن ملفا تدرس من خلاله شخصيته.

كانت الطيبة أبرز ما زاد أواصر التحام تلك المجموعة... حتى الطيبة والنيّة الصادقة في علاقاتهم مع أصدقائهم الآخرين كانت تجلب بطريقة غير مباشرة قلوبهم إلى بعضها البعض.

قرّبت الأعمال التطبيقيّة شيئا فشيئا بين هذه الصحبة الجديدة... خاصة بين شيرين وإيهاب... لأنّ سلوى كانت تستأذن دائما في ساعات الفراغ تاركة إيهاب وشيرين لوحدهما... مع الأيّام أصبحا صديقين حميميّن.

كانت سلوى المراقب المتردّد... كانت شخصية وعيون إيهاب أشدّ ما يجلبها إليه... كذلك مواقفه التي كانت تنبعث من الرّجولة دائما... حتى دفاعه وحمايته لهما كالأخ عن أخته... ضحكه ومزاحه المستمر الذي يضفي على اللمّة حلاوة وطلاوة... كلّ هذا كان يأسرها ويفتنها في السّر...

كلّ ما أصبحت تريده هو أن تكون قريبة دائما لقلبه كشيرين المرحة البشوشة... فَتنتها العلاقة المبنيّة على المزاح الدّائم بينهما كأنّهما أصدقاء

الطفولة... تتمنّى قربه بالرغم من أنّها كانت طرفا دائما تقريبا في مجموعة السّعادة... لم تكن مشاعرها مشاعر غيرة بل رغبة في القرب منه كقرب صديقتها فقط.

كانت لرغبة سلوى دوافعها لأنّها موقنة لمعزة إيهاب الواضحة لها... ولكنها تحس وإياه أنّ التواصل صعب بينهما... كأنّ الخجل بينهم لم يمت... فكان حضور شيرين المرحة هو من يخلق تلك الصحبة حقيقة.

عيني إيهاب على ما يبدو هما السّر وراء رغبة سلوى... فتلك العينين السّاحرتين الغائرتين قليلا وذلك الوجه الآري جعلاها لا تحيد ببصرها من عليه... كانت حين لقائهما تغتنم فرصة حديثه وسمره مع شيرين بالنظر المركّز لداخل مقلته مستقرئة مشاعره وكلّ شيء يستجد في أرجائه... كلّ هذا وهي مشاركة في الحديث على اختلافه جديّا كان أو مزاحا.

مراقبتها الشّديدة لبؤبؤه ومشاعره وتصرفاته حتى في حضور صاحبيه وشيرين وصديقاتها جعل منها عادة لا تُمل... ومن يمل النّظر في عينين ساحرتين كأنّهما من صنع فنان ماهر.

أحسّ الكلّ بشغف سلوى بعيني إيهاب... والعيون طريق القلب... أيقن الكلّ في خجل منها أنّها تريد الوصول إلى قلبه... ولكنها لا تأبه أو غير مدركة لإحساسهم ذاك... شجّع نظرها الدّائم غير الخجول الذي استحال لا إراديا إيهاب على النّظر لعينيها ويا ليته ما فعل.

أخيرا سقط شعاع العينين على بعضهما البعض دون خجل... حدّق إيهاب داخل بحرها الأسود طويلا... أحسّ ساعتها بالانبهار لشدّة صفائهما وسعتهما... بريق مياه بحرها اللجيّ غير معهود... فهمه القلب كرسالة سريّة أنّ ذلك البريق لا يحدث إلّا عندما ترى العين ما تشتاق لرؤيته وتحبّ أن تكون بجواره... أصبحت عادة النّظر المستمر لروح ولبّ عينيهما يوميّة... في شكل يضفي

المثقف

على اليوم سعادة خاصة... نظرات أبلغ وأجمل من أروع الكلمات.

استمرت هذه الحالة واستمر إدمانها... لاحظتها جيّدا شيرين... تساءلت ببراءة دائما لماذا تنظرون لبعضكما كثيرا... أو لعلّها ليست تساؤلات بريئة... لعلّها عدم رغبة لحدوث مثل هذه التصرفات أمامها... لعلّها خوف على مركزها في قلب إيهاب... فهي التي أيقنت مثلها مثل سلوى أنّه يعزّها ويحمل لها مشاعرا صادقة... كانت على الأقل أكثر من تلك التي يُكنّها لسلوى... لأنّها أصبحت الصديقة المفضّلة الدّائمة له... كون سلوى كانت لا تلقاه إلّا عند مزاولة الدّراسة وتعتذر بالذهاب إلى غرفتها في الإقامة... قليلا ما تكون معهما ولا يكون في ذلك اليوم دراسة.

لم تخف شيرين على نفسها كثيرا من سلوى... وبالعكس أحبّتها خصوصا عندما صارحهما إيهاب أنّهما توأما روحه... كانت طريقة قول تلك الجملة وتوقيتها مهمّين كثيرا لسلوى... فرحت بها بطريقة هستيريّة لم يفهمها إلّا إيهاب... فهمت سلوى أنّها أخيرا أصبحت بمكانة شيرين المميّزة في قلبه... كان ذلك ما تتمنّى البريئة... كان ذلك ما تحلم به... كونها تحمل له مشاعرا تجعل من حقها أن تحصل على مكانة تماثل مكانة حبيبتها شيرين.

كلّ ذلك حدث في أوّل شتاء يمرّ على علاقتهما، مرّ الشّتاء حارا بتلك المشاعر... الشّتاء الذي يجبرهم على الدّخول إلى القاعات الفارغة للجلوس بحثا عن الدّفء... الدّفء الذي كان يزيد خفة ظل أفراد المجموعة وطيبة أخلاقهم... فكانت تجعل طريقة تعاملهم بعضهم لبعض أشبه بمعاملة الأمّ لولدها... جمع بينهما حبّ إيهاب الأخويّ... أرضاهما محاولا ألا يجعل السّعادة التي تعوّدوا عليها في مجموعتهم أن تذهب إلى طرف على حساب طرف آخر.

دخل الرّبيع... تغيّر معه سمك اللباس... أصبح معه لباس شيرين أكثر فتنة...

أيقظت في إيهاب غريزته الذكوريّة لكن رغم أنوثتها الصارخة لم يتحوّل حبّه لهما عن عفته... لأنّ نظرة إيهاب لشيرين وسلوى كانت عميقة... كان ينظر لهما كثيرا فيسرح بعيدا في ماضيه... كيف قارب قلبه على الامتلاء بالسواد والكراهيّة لكلّ شيء... كان لا يحسّ للحياة طعما جرّاء ذلك الإدمان والوحدة... حتى براءتهما كانت تذكّره ببراءته المفقودة ولأخلاقه الحسنة التي قاربت على أن تكون في خبر كان.

كان يراهما كأنّهما منقذ أرسله الله له من حياة البؤس والحيرة وظلمة القلب المتأتيّة من كثرة ذنوب الخمر والمخدرات.

كان يدرس فرحته بهما دراسة جديّة من كلّ النّواحي... لهذا لم يكن يرى في الأمر بُدًّا من أن تُجرح إحدى هاتين الأيقونتين الفاتنتين... أعطاهما قلبه وفتحه لهما كاملا كما لم يفتحه أبدا... صاحبهما وصارحهما كما لم يصارح أحدا من رفقته الذكور... كلّ ذلك كان مبعثه الصدق الحقيقي في التعبير والمعاملة بينهم... كلّ طرف كان يخاف على مشاعر الآخر... لا ينقضي يوم من أيّامهم إلّا إذا كانت كلّ النّفوس راضية على بعضها أشدّ الرّضا.

مضت الأيّام وهم لا يعلمون أنهم خلقوا في أنفسهم مشاعرا تحمي من أيّ فرقة مهما امتدّ الزمان والمكان... خلقوا مشاعر التّضحية من أجل من نحبّ... أو من أجل من يحبّنا بصدق... كانت هذه المشاعر تنمو يوما بعد يوم... وصدقهم وطيبتهم من فرط إحساس القلب بالحصول على المبتغى أصبحا عظيمين.

أصبحت الجميلتين تحسان بالحنان والعطف غير المحتمل من إيهاب... كان خلال أيّامهم يسميهما ابنتيّ التوأمتين... أحسّتا فعلا أنّه أبوهما... أو قل أمّهما الحنونة عليهما الخائفة دائما على مشاعرهما.

نزع بصدقه مشاعر الغيرة بينهما لأنّهما أيقنتا أنّ وجودهما الاثنتين

المثقف

ضروريّ لبعث السّعادة إلى قلبه... وكان شرط هذه السّعادة ظاهرا للعيان... وهو وجوده معهما مجتمعتين.

ملكا قلبه واعتصراه... لم يعد يحتمل فراقهما أثناء عطلة نهاية الأسبوع... وكأنه عوّض إدمانه بإدمانهما الاثنتين... ولكن كان لشيرين سبق خاص في قلبه على سلوى لِما سبق أن ذكر من مداومة مكوثها معه... وفي الحقيقة هذا صحيح جدا... فلولا شيرين التي وفّرت لسلوى الحضور الدّائم مع إيهاب... لما ملكت مثل هاته المكانة في قلبه.

لكن سلوى كانت المخلوقة البريئة التي تَجسّد فيها كلّ ما يحلم به إيهاب... أميرة انبثقت من أحلامه في جسد وروح أمامه.

كان يوم إيهاب يكاد يكون كلّه لهما أثناء الدّراسة... وكان صاحباه يملآن الجوّ معهما مرات عديدة مرحا وتوافقا... دبّت الألفة الجميع وأعجب الكلّ والتفوا حول شيء واحد يجمعهم في يومهم ألا وهو المزاح والضحك المستمر كأيّ شلة أصحاب مراهقين.

اعتدل الرّبيع في أيّامه وبدأت حرارة الشّمس تزداد شيئا فشيئا... خطرت على بال شيرين أن يقوم الثلاثة بجولة استجمام... أُعجب إيهاب وسلوى بالفكرة، فتوجهوا إلى الكورنيش السّاحلي لمدينة سكيكدة الخلابة وواصلوا السّير حتى ميناء سطورة... منه توغلوا في الممر الجبليّ المنحوت في الصخور على طول السّاحل... الممر الذي فوجئت سلوى بوجوده فكان ذلك اليوم أوّل يوم تطأ قدمها هناك... أعجبت كثيرا بالممشى السّاحلي... وواصلوا المشي حتى وصلوا إلى شاطئ ميرامار السّاحر... كانت تلك محطة متعة حقيقيّة أحسّها الكلّ... فإيهاب أحسّ بأنها أوّل مرة يذهب وسلوى إلى مكان غير الجامعة... فداعبت هذه الأحاسيس قلبه... أحسّ بالنشوة... كلّما تسقط نظراته على عينيها يراها سعيدة تعيش اللحظة بكلّ ما فيها...

المثقف

أما شيرين فكانت تسعد بسعادة إيهاب... أحسّت بالرضا التام لمّا رأت عينيه الفرحة تسكنهما.

جلس الثلاثة على الصخور العاليّة لشاطئ ميرامار للغداء حيث جلبوا سندوتشات همبرجر معهم لإسكات الجوع... أكل وضحك... الشّلة بعدها هموا بالرجوع... استقل إيهاب وسلوى الحافلة إلى الجامعة فيما رجعت شيرين إلى بيتها سعيدة كعادتها.

بدأت سلوى رحلة العودة بفرحة أحسّها إيهاب من عينيها التي أدمن السّهو فيهما... فهم إيهاب منها أنّها أوّل انفراد بينهما عن كلّ الشّلة... كان نفس إحساسه الذي يدسّه في نفسه... أحسّت بالاحتواء والشغف لهذا الإيهاب التي أصبحت تحس كأنّه أقرب من أيّ شخص إليها... وما زاد نشوتها أنّها رأت في عيني صديقها نظرات غضب من أحد المارة الذي حاول معاكستها... لم يهمها شيء في دنياها عندما كانت بجنبه إلّا ألّا تحيل ناظرها عنه... محاولة أن تسجّل عنه كلّ خطواته، ضحكاته، نظراته، إيحاءاته... نعم إيحاءاته فقد كانت تسري بينهما لغة لا يفهمها إلّا هما الاثنين.

أحسّت بالحماية وبدت السّعادة في عينيها من ذلك الفعل... اقتربت أكثر من إيهاب والتصقت به حين جلوسها بجانبه في الحافلة... أحسّ إيهاب بحرارتها... رقص قلبه فرحا... أحسّ كأنّه سكران منتشي لا يريد للّحظة أن تنقضي ولا يريد للحافلة أن تصل... سكوتهما كان أحلى من الكلام... لأنّ كلامهما لم يكن ليعبّر عمّا بداخلهما أبدا ولا حتى في الأيّام القادمة.

استمرت رحلة الاثنين كأنّهما على بساط الرّيح السّحري... لا يريان أيّ أحد من النّاس أو المارة... كان كلاهما مُركّز في نَفَسِه وشهيقه وزفيره، ونَفَسِ الذي بجواره... عاشا لحظة أولى جمعتهما كأنّهما عروسين.

وصلت الحافلة... نزل الرّكاب... تماطل الاثنان في التحرك لعدم إفساد متعة

تلك الجلسة الحميميّة الحقيقيّة... تحركا أخيرا... صاحب النّزول تنهدا عميقا من سلوى حرّك داخل قلب إيهاب... مشى الاثنان محتشمان وعقل إيهاب غائب وقلبه يرتعش من تلك التنهيدة عند فراق الأجسام... فارقها وعقله غائب عنه... صعد إلى الغرفة منتشيا مسرعا وكأنه يريد أن ينفرد بسريره في أسرع وقت لكي يعيد كلّ ذكرى سعيدة من تلك الرّحلة... كلّ إيحاءة صدرت ولامست قلبه وفكره... أعاد الشّريط مرارا وتكرارا وهو مغمض العينين... بعد أن أظلم الغرفة للحصول على ليل شاعري هادئ.

وفي الضفة الأخرى كانت نفس المشاعر مسيطرة على عقل وقلب سلوى... تعصف بها وتحرك وجدانها وتجعلها غير صابرة على ذلك اليوم... متى ينقضي للقاء الأحبّة.

أمّا شيرين فلم تصبر على فراق إيهاب فلم يلبث الليل أن أقبل... إلّا ورنّ هاتف إيهاب... كالعادة كلّ ليلة تعيش معه ساعة بالليل قبل نومها... أدمنت هذه السّاعة كثيرا... كانت ضحكتها تسبق كلامها دائما... سواء في الهاتف أو في اللقاء العادي.

ملأت شيرين حياته زهوا ونشوة وبدأت سلوى تخرّب عقله من كثرة توافقها معه... وتسلب لبّه بتناغمها حين إيحاءاتهما الذكيّة جدًّا لبعضهما البعض التي لا يحسها غيرهما ولا حتى شيرين.

طالت تلك الصداقة وأصبح الثلاثة يحسون أنّهم يعرفون بعضهم البعض أكثر من عشر سنين من فرط ألفتهم وتوافقهم في حبّ وكره نفس الأشياء تقريبا... حتى أنهم اجتمعوا في عدم الاشتغال بالناس أبدا... فلم تكن مجالسهم يرد فيها ذكر أيّ أحد... كانت متعة ومتعة فقط.

كان أكثر غناء إيهاب في هاتفه أغاني الرّاي وخاصة ملوك الرّاي حسني وخالد... كثيرا ما كان يضطر لإطلاق صوت الغناء من هاتفه لإطراء جوّ جلسته

كمعظم الشّباب، أحبّت شيرين وسلوى حسني وخالد من فرط حبّ إيهاب لهما... أصبحتا مع الأيّام تحفظان أغانيهما وتشاركانها بحبّ مع إيهاب.

كثيرا ما شارك حازم وفادي الجلسة مع إيهاب والبنات... كانت البراءة والأخوة ما يبديها الكلّ أثناء الجلسة... ولكن لا يدري أيّ منهم ما يخبئه الزمان لهم.

* * *

المثقف

الدرجة الثالثة

المثقف

زلـــة شيريـــن

المثقف

زلة شيرين

أصبحت شيرين ظل إيهاب... اقترب قلبه منها وأدمنها مجلسه وألفها... حتى أنّ سلوى أيقنت ذلك... أيقنت أنّ وجود شيرين معه لازم له كلزوم الأكسيجين... حيويتها ضروريّة لإخراج سعادته وحيويته... أصبح يسرح متكدّر الحال لحين حضورها فيعلن السّعادة... لا يحلو له يوم أو ساعة أو أكل أو دراسة في غيابها... حتى اهتمامه بنفسه يزيد في حضورها... فهمت سلوى أنّ مكانة شيرين في قلبه عزيزة وعلى ما يبدو أنّها أكبر من مكانتها في قلبه... وهذا ما شُبّه لها... لأنّه مهما بدا لها أنّها تفهمه... إلّا أنّ معظم الأمر غُيّب عنها... لأنّ حقيقة مشاعر الإنسان حين يكون في غمرة العلاقة أو العلاقات لا تكاد تُبيّن عن ماهيتها... فحتى إيهاب لم يكن يعلم أو لم يكن يفهم أو لم يكن يستطيع التعبير الحقيقيّ عن الشّيء الذي يجذبه تجاه شيرين.

كانت سلوى تراقب من بعيد وقريب... كانت المتفهمة اللطيفة التي أبطلت حلمها على ما يبدو بمكانة شيرين لدى إيهاب... لذا كانت مستمتعة بهذا الزهو الدّائم في صديقيها... شاركتهم فرحتهم وحتى المشاكل الصغيرة التي كانت تحصل بينهم... كانت تسعى بصدق ونيّة طيبة لإصلاح ذات بينهما... كان كلّ شيء طيّب حتى الخصومات كانت طيّبة... لكن لم تستمر الرّياح في الهبوب بنفس ما أحبّت سفينة ما خُلق بين شيرين وإيهاب.

حيويّة شيرين ولطافتها وجاذبيتها وفتنتها وكلامها المعسول ليس إيهاب فقط من سقط في حبائلهم... كان حازم مفتونا بها وحتى فادي... لكن فادي كان منجذبا لسلوى أكثر من شيرين.

مثل ما ألفت شيرين إيهاب ألفت حازم وفادي... لم تكن تعلم أنّ إيهاب أصبح يَعُدّ لها كلّ شيء يصدر عنها، نظراتها، كلماتها، إيماءاتها... ينظر إليها حين تُحدّث حازم، يفاجأ أنّ لهجتها حينها تشابه لهجتها حين تخاطبه... نظراتها إلى حازم مثل نظراتها إليه... تودّدها، غنجها، دلالها... لم تكن غيرة التي أحسّ بها... كان يراقب، لكي يفهم جيّدا... لأنّ قلبه الذي بدأ يُنبِتُ لها حبّا كان قلب المحبّ الأعمى... لا يرى المحبوبَ كما يراه مَنْ حولَه... ابتعد قليلا للوراء فأصبح لا يرى التميّز في علاقته بشيرين.

أشرقت شمس أحد الأيّام الرّبيعيّة، لم يصعد إلى الجامعة صباح يومها غير إيهاب وحازم... تركا فادي في الإقامة... التقيا بشيرين في الجامعة... لم تحضر حينها سلوى، فاتصلت بها شيرين فاعتذرت... تحدّثا معا، اقترح حازم عليهم النّزول معه لشراء شيء من المدينة... ذهبا معه لأنّ إيهاب لا يتصور نفسه بعيدا عن شيرين فأخذها معه... حتى هي أرادت الذهاب... واصلا البحث معه عن السّروال الذي أراد أن يشتريه... أحسّ إيهاب بالعياء... أراد الرّجوع بعد أن أكلا قليلا فالوقت يقارب الظهر... خصوصا أنّه وشيرين عندهم درس في

الجامعة على السّاعة الثالثة والنصف بعد الظهر... لم يوافق حازم على الرّجوع واقترح الذهاب إلى البحر... قرّر إيهاب الرّجوع فطلب من شيرين الذهاب معه ولم يكن يتوقّع رفضها، لكنّها أعجبت بفكرة حازم، فقرّرت الذهاب معه، انصدم إيهاب وهو الذي لم يقرّر يوما الافتراق عن شيرين والوقت لا يزال يسمح له بلقائها...

انصدم وافترقا لكنّه ظلّ ينظر وراءه لهما فيرى الضحكة تملأ وجهها حين حديثها مع حازم... انصدم كونها لم تكن مثله لا يفرّط بفرصة ليكون معها...

انصدم لأنّه كان يمنّي نفسه ويقول حين تتملّكه الغيرة من علاقة شيرين وحازم التي ما فتئت تتطوّر، كان يردّد في نفسه أنّ طيبة شيرين وحبّها لي أجبرها على حبّ ما أحبّ وحبّ أصدقائي كما أحبّهم أنا...

نظر إليها وهي مبتعدة ضاحكة مستمتعة مع حازم... نظر إليها حانقا غاضبا منها لأنّها يجب عليها أن تكون بجانبه لا بجانب حازم... أحسّ بالغيرة من حازم لانفراده بها كأنّه لم ينفرد هو بها مرة من قبل... لكنّها لم تكن غيرة على ما يبدو في ظاهرها لأنّ الأمر تطوّر وقلبه جعل من الحبة قبة.

رجع للإقامة يجرّ أذيال الخيبة، أخذته الحيرة طويلا... قرّر عند السّاعة الثانية بعد الظهر الصعود إلى الجامعة... اتصل بسلوى فأجابت بالإيجاب، لأنّها أحسّت الحزن في صوته... أحسّت أنّها لا يمكنها أن ترفض الصعود مبكرا.

كانت علامات الحزن بادية على محيّاه حين التقيا... فسألته سلوى بذكاء ناظرة إلى بؤبؤ عينيه وبنبرة تلائم حزنه: أين تركت شيرين؟

أجابها والحشرجة تقطع صوته كأنّه أراد أن يبكي: إنّها مع حازم تركتهما ذاهبان إلى البحر.

انصدمت سلوى بمشاعره وعاودت سؤاله كأنّها لم تفهم شيئا لكيلا يحسّ بشيء، وتترك له الحريّة، في عدم الإفصاح عمّا يكبته، سألته بنبرة منفرجة

ضاحكة بعض الشّيء: وهل تودّ أن تتغيّب هذه الأمسيّة؟

أجابها ذابلا: لا أعلم؟

اقتربت السّاعة من الثالثة زوالا، فظهرت شيرين في الأفق متثاقلة المشيّة... لم تلبث إلّا أن وصلت مكان جلوسهما فألقت التحيّة... ردّت سلوى بحرارة... لكنّها بالكاد سمعت صوت إيهاب.

ردّ عليها ببرودة: مرحبا.

سألتها أين كنت؟

ردّت شيرين بلكنة تصبغها الفرحة: مع حازم في شاطئ القصر الأخضر château vert... وتابعت أنّ الأمسيّة كانت رائعة وحازم كان أكثر من رائع... وانغمست تسرد بعض الأحداث التي أضحكتهم لحظتها... كحادثة الشّيخ الذي سألهما على الشّاطئ عن مكان إقامتهما فأجاباه أنّهما تونسيان متزوجان حديثا، وكيف انطلت عليه الحيلة والكذبة واستمتعا بذلك كثيرا خصوصا عندما تكلّما معه باللهجة التونسيّة... كانت كلّ كلمة تُخرج معها ضِحكة.

أثناءها كان إيهاب باردا جدًّا تائها حزينا... حابسا دمعتين صغيرتين في عينيه، لا يُصغي تقريبا لكلام شيرين.

لمحت شيرين برود إيهاب تجاهها... لمست بيدها وجنته مبتسمة... وضعت إصبعيها على فمها وطبعت قبلة ووضعت تلك الإصبعين على خده تُقبّله... لم يتحرّك وجه إيهاب وشردت عيناه بعيدا عن خارطة المكان... ابتسمت شيرين من قلبها لأنّها فهمت أنّ لبروده علاقة بما جرى صباحا... ابتسمت لكن بهدوء دون أن تتكلّم بأيّة كلمة... لم تكن تعلم أنّه لم يكن يفكّر بالأمر على أنّها أثارت غيرته هذا الصباح... بل إحساسه وتفكيره كان عميقا... كان ما حدث كأنّه أجاب عن العديد من التساؤلات التي كانت تدور في رأسه من قبل... كان كمن يستعدّ لمنح قلبه ويتساءل متردّدا، هل شيرين

على استعداد تام لهذا القلب؟... هل شيرين سوف لن تسمح لقلبه أن ينجرح مهما كان؟... هل شيرين تستحق هذا الحبّ الذي يودّ أن يذهب بعيدا معها فيه؟... أسكنها في غرفة من غرف قلبه ولكن يتساءل: هل تستحق أن تملك قلبه كاملا؟

هل ستعرف شيرين كيف تحبّه؟... هل ستعرف شيرين الطريقة التي تحبّه بها؟... هل ستعرف شيرين القواعد التي يتبعها قلبه في الحبّ؟... هل ستمنع العذاب عن قلبه؟... هل؟ هل؟ هل؟

ما حدث صباحا، أجاب عن كلّ هذه الأسئلة في عقله... فشيرين ببساطة سمحت للعذاب أن يصيب قلبه... شيرين لم تكن من النّوع الذي يستطيع أن يُطَبِّق قوانين عشقه عن طيب خاطر... شيرين أحبّت إيهاب لكن لم تكن الطريقة الصحيحة التي أرادها أن تحبّه بها.

لم تمنحه شيرين كلّها... لم تمنحه الحق فيها... ومن بعيد عنهما كانت من تحضرهما تفهم وتعي جيّدا وتدرس بذكاء وحرص شديدين عقليّة إيهاب... كانت سلوى أقرب مخلوق لفهم عقل وقلب إيهاب دون كلام لفرط مراقبتها لإيهاب التي كان الحبّ من دون مقابل هو سببها.

لم يأت بروفيسور تلك العشيّة... اضطرا للافتراق إلى غد لا يعلم أسراره إلّا الله.

في الطريق سألت شيرين سلوى عن إن كان إيهاب بخير أم ماذا جرى له؟

أجابتها سلوى بخبث ضاحكة: وهل يعقل أنّك لا تعلمين؟... وأردفت تقول: أظنّ أنّك أثرت غيرته عليك.

ابتسمت سلوى لحلاوة الحدث ولكن طرأ خوف في عينيها فجأة وقالت لها: أظنّ يا شيرين أنّ الأمر أكبر من خطأ منك يُغتفر بسهولة، أظنّ أنّ عمق جرحه أكبر من أبقى متفرجة عليك وأنت تعذّبيه.

أظنّ أنّه على أحدنا أن تسعد هذا القلب بأيّ طريقة لأنّك تعلمين جيّدا كم هو إيهاب عزيز على قلبي ولا أحبّ أن يجرح أمامي.

ذهبت شيرين بعيدا بفكرها...

ودّعت سلوى بعدها ببرودة: مع السّلامة.

المثقف

الدرجة الرابعة

المثقف

حب ملتهـــب

حبّ ملتهب

لم تفهم شيرين كلام ورسالة سلوى... واصلت أخطاءها... واصلت لقناعاتها أنّها لا تفعل ما يغضب... واصلت الخروج مع حازم... تعدّدت أسباب خروجهما... راقها حازم كثيرا... استمتعت بصحبته... حتى عند لقائها بإيهاب كانت تجرحه بالكلام عن حازم... حين كانت تبتعد كانت سلوى تعوّض ذاك النّقص.

أمعن إيهاب التركيز في يوم من تلك الأيّام مطوّلا في عينيْ سلوى الجميلتين الآسرتين كعادته... لكن هذه المرة بنيّة أخرى... نيّة لمعت في وجدانه أنّه يجب عليه أن... يخون لأنّه يتعرّض للخيانة... لكنّ سماحة خلق سلوى المتفهمة لم تسمح لغضبه البادي للعيان أن يستمر فبادرته ملطّفه للجوّ بينه وبين شيرين: إنّ شرين لم تدعني أنام البارحة، كلّمتني ليلة كاملة وكان كلّ الكلام يدور حولك.

تساءل متذاكيا على أنّه لم يفهم، لماذا تسأل عنّي؟

أجابت شيرين تعزّك جدا.

أردف إيهاب القول متثاقلا كارها للموضوع: وأنا أعزّها أكثر... ولكن ما الذي أقلقها؟

لعلّ معاملتك لها كانت باردة بعض الشّيء؟

وأردفت القول: ولقد فهمت من كلامها أنّ معزّتك في قلبها لن يصل إلى درجتها غيرك... ومهما حصل منها فإنّها تظنّ أنّه من غير قصد... وتطلب منك مسامحتها وترجتني أن أتوسّط بينكما.

فهم إيهاب المقصود وعلم أنّه تلطف من سلوى فقط... ولكن إيهاب قد حسم أمره ليلتها.

لكنّه تجنّب الخوض معها في الموضوع غير المصرح به وأنكر تماما أن تكون بينه وبين شيرين أيّة مشكلة فهي كأخته العزيزة... فمعزّتها في قلبي لم تتبدّل لبياض لبّها... فكلّ أخطاء الأصدقاء معها تهون بسهولة...

نظر حينها إيهاب من النّافذة بعيدا وحدّث نفسه بالحقيقة: ليس الأمر سهلا كما يبدو لك يا سلوى... الأمر صعب... فليست مسألة غلطة أغفرها لها... ولكنّي كنت على وشك المجازفة... كنت سأهب قلبي لمن لا يُهمّه عذابه... وإن كان يا ذكيّة كلامك صحيحا... فلماذا هي الآن في نزهة أخرى معه؟

تابع إيهاب حديثه مع نفسه: أمعقول أن نصحّح أخطاءنا بأخطاءٍ غيرها !؟

حمد بعدها الله في قلبه على أنّه لا يزال في أوّل الطريق معها.

وكما يقولون كلّ شيء بسبب... ولا تحزن عند انسداد باب في وجهك فلعلّه سبب لمحاولتك البحث عن باب آخر أسعد... ولعلّ هذا الباب أقرب ممّا نتصوّر... فعلا كان الفرج أقرب ممّا تصوّر إيهاب.

فقد أصبحت سلوى نديمة إيهاب يومه كلّه تقريبا... كانت نعمة من عند الله... لم يكن يراها بمثل هذه الرّؤية... فقد عرفت بفطنتها كيف تؤكل الكتف... أيقنت الطريق إلى قلبه... أصبحت أكثر حكمة لأنّ الحكيم من يتعلّم من أخطاء غيره... فحبّ إيهاب كان سهلا ممتنعا بالنسبة إليها... كان نبراسه الوفاء التامُّ ووهب القلب والعقل بلا خوف حين الاطمئنان بأنّ الشّعور متبادل.

وبالفعل كان هذا أقصى ما يتمنّى إيهاب... كان حبّه لا يقبل أن تلعب معه لعبا يجعله يشعر بالغيرة... بالرغم من أنّ علاقته لم تحمل أيّة جديّة بعد... ولم تبلغ بعد درجة الإفصاح عنها... لأنّها مع أناس غاليين على القلب... فكان الأمر يتطلّب دراسة إمكانيّة النّجاح أوّلا... فلم يكن حبّ أيّ أحد لسلوى أو شيرين يؤثّر فيه أو يجعله يحسّ بالغيرة على من يحبّ... طبعا لا... ولكن تسكن الغيرة قلبه وربّما محطّمة معها الحبّ من كلّ ركائزه مسبّبة عذابا للقلب... إن كان السّبب هو الشّك في حبّ المحبوبة لمخلوق آخر.

لم تبتعد شيرين طويلا... لكنّ ابتعادها كان كافيا لكي يقرّر بقلبه إلى أين يوجّه سهمه... رجوعها لم يكن يعني شيئا... رجعت تحمل مظاهر حبّ دفين لحازم... حازم الذي بدا عليه أيضا وهو الذي يشارك إيهاب غرفته... بدا عليه تغيّر نبرته عند ذكر شيرين.

ولكنّ إيهاب على العكس تماما... كان كالواقع على كنز... كلّ يوم يكتشف في عقليّة سلوى شيئا يجعله يحبّها أكثر فأكثر.

شكر الله تعالى على تقلّب الأحداث الماضيّة ووصول قلبه لشاطئ آمن... فلكأنّ الفتاتان اتفقتا في الماضي حين أدركتا أنّ قلبه يفضّل سلوى في صميمه أكثر... فقامتا بعمل خطة محكمة لتبادل الأدوار.

أخذت سلوى كلّ تفكيره تدريجيًّا... يبكّر صباحا كلّ يوم ويترجاها الإبكار

معه لينعما بأطول وقت ممكن... عيناها أصبحتا البحر الذي يبحر فيه لساعات بلا ملل كأنّه يريد قراءتها بلا خجل... جذبت العيون القلوب وأسرتها.

لكن ما يبعث على الضحك أنّ مصارحة إيهاب لسلوى بحبّه كانت أصعب من أن تخرج من الفم... فقد كان يستطيع أن يقول تلك الكلمة لأيّ مخلوقة حتى شيرين... غيّر أنّ قلبه يعجز أن يسانده أمام سلوى... سلّم لها زمام الأمور... لم تعد له المقدرة على رفض أيّ أمر يصدر من شفتيها العسليتين... ملكته بتقديرها الممتاز لمدى حبّه لها... كان الاعتراف بالحبّ متبادلا بينهما ولكن دون كلام مباشر.

بدأ الحبّ يفعل فعلته... وصار للحياة حلاوتها، وتورّدت الخدود... واستحالت أصوات الدّنيا موسيقى... وازدادت سرعة مرور الزمن... وتقارب المكان وصار كلّ شبر يحمل ذكرى ينبغي أن ينصب لها نصب تذكاريّ.

وأصبح الاثنان يفترقان بالنظرة التي أسرت قلبيهما... النّظرة القاتلة التي لا تُمَلّ... يرسلان لبعضهما البعض رسائل الشّوق والرغبة الجامحة... وكأنّهما يملآن دلويهما من عيون بعضهما لكي يستطيعا الإكمال للغد... لأنّ الفُرقة قاتلة... لم يحبّها أحد منهما... كلّ يوم كان وقت الافتراق يعذّبهما... كأنّهما يريدان للفرحة التي تجمعهما كلّ يوم وألّا تنقطع... كان إيهاب حينها يتودّد إليها بمشاعر حقيقيّة بقوله: إنّك مصيبة لمن يعرفك... فأنت سهلة الألفة... وصعب جدًّا تركك وفراقك... كانت تضحك حينها بضحكات يتواصل صدى شدوها في ذاكرته إلى أن يغفو وينام ليله سعيدا بها.

لم تستطع سلوى كتمان ما يختلج قلبها... فلم تجد أناسا أقرب إلى نفسها من أسرتها... في أسرتها كان لها الصديق الوفيّ والمحبّ والحنون... كانت أختها الصغيرة يارا التي تبلغ من العمر ثمانيّة عشر سنة...

أمّا عضوي العائلة الآخرين، فكانا أخا صغيرا يبلغ من العمر عشر سنوات

يدعى إسحاق... بالإضافة لمحمد الذي درس معه إيهاب في صغره ولم يكمل دراسته وأصبح تاجرا.

أصبح لإيهاب قيمه في قلبها فاقت تصوّرها... لم تحبّ وتحترم أحدا من قبل مثله... سألت ببراءة أخاها محمد عنه: هل لا زلت تتذكّر إيهاب بن زايد؟ أجابها محمد بحيرة تسكن ذهنه عن سبب السّؤال: نعم إنّه إنسان رائع ولا زلت ألتقيه مرات في المقهى.

إنّه يدرس معي.

ضحك محمد: آه... وما الذي حدث له، هل أعاد السّنوات.

-ابتسمت نعم أعاد عامين في نفس العام، العام الثاني.

-محمد: وهل هي صعبة؟

- نعم، وضحكت وقالت: نعم صعبة وإن رأيتموني أعيد السّنة فلا تلوموني.

- ضحك محمد: آه لا لا، سوف نقوم بإيقافك عن الدّراسة.

-ضحكت إنّ إيهاب متخلّق جدًّا معي ويحترمني بشدّة.

-محمد: لقد ذكّرتني به، لقد تذكّرت صورنا في المدرسة الابتدائية.

-فرحت سلوى جدا: حقا... وهل هي مضحكة؟

-محمد: نعم جدا، لن تتصورّي كيف كنّا سُذّجا... سأقوم بجلبها لك بعد حين.

-انتظرت سلوى وهي متلهّفة متفاجئة، لم تكن تنتظر شيئا لذيذا كهذا... وهي التي أصبحت تهمّها كلّ صغيرة وكبيرة عن إيهاب، صوره بالنسبة إليها كالكنز.

قليلا وأتى محمد يحمل ألبوم صوره القديم وأعطاه لسلوى... أمسكت سلوى فرحتها وحاولت ألّا يصدر عنها ما يبعث على الشّك أمام أخيها، تركها أخوها مع الألبوم.

أختها يارا (yara) كانت واقفة تنظر للموقف من أوّله... كانت جميلة أخّاذة كأختها لكنّها أنحف قليلا، كانت فطنتها ومعرفتها بأختها من ساعداها على كشف خبايا سلوى.

- انتظرت محمد لمّا ذهب وسألت صفي لي فاسترسلت سلوى متلهفة: إنّه وسيم، جذّاب طويل، أبيض، متخلّق وخجول ويكاد يقتلني ب... انتبهت حينها لنفسها وصمتت.

-ضحكت يارا كثيرا: بماذا قولي بماذا؟

-احمرت وجنتا بماذا؟ أنا... لا... لا أفهم ما تقولينه، إنّه كأخ كبير لي.

-واصلت يارا الضحك... لا بدّ أن عينيه ساحرتين، وأخذت الألبوم من سلوى، أين هو هنا يا سلوى؟

-بيّنته سلوى لها وقالت: ولكنّه تغيّر كثيرا 180° درجة، لن تستطيعي التعرّف عليه.

-يارا: نعم إنّنا نكبر ونختلف ولكنّ بعض معالم الوجه تبقى، أظنّ أنّه كان جميلا حقا في صغره.

-أجابتها سلوى من دون وعي: ولكنّه الآن أجمل، وسرحت بعيدا شوقا له.

-قطعت يارا سرحانها: أظنّ أنّه ذكيّ... ما دام أعجبك.

أجابتها: نعم إنّ ذكاءه يخرّب عقلي... وتذكّرت تلميحاته الذكيّة في عقلها وضحكت.

-سألتها يارا: وهل لديك صورة له في هاتفك؟

- نظرت إليها سلوى مستغربة: وماذا أفعل بصورته يا وقحة؟

- ضحكت يارا: أنا أختك حبيبتك ولن تجدي أحسن منّي كاتمة لأسرارك... واحتضنت رأسها لتوافق.

- حسنا ولكن ليس من الضروري أن أذكّرك بإبقاء الأمر سرا بيننا... ونظرت

إلى عيني أختها مؤكّدة.

-يارا: وهل أنا من يذكّرونه بذلك؟

أتعلمين أنّه حتى إيهاب لا يعلم أنّني أخذت هذه الصورة من هاتفه، تنهدت طويلا، وواصلت القول: لأنّه يخطر ببالي كثيرا... لقد أصبحت صورته أنيسا لشوقي.

أمعنت فيه يارا مطوّلا النّظر وقالت ل الأمر غريب... لأنّي لا أعرفه!...

- وكيف يمكن أن تعرفيه؟

-يارا: إنّ كلّ أو معظم الفتيّة وخاصه طلّاب الجامعة يأتون ليتسكّعوا ويعاكسوا البنات أمام الثانويّة.

- ضحكت آه هو ليس من هذا النّوع، وإلّا لكنت تعرّفت عليه أنا قبلك... فأنا محتارة وأقولها له دائما: أين كنت قبل أن أصعد للجامعة؟!، لولا الجامعة لما رأيتك أبدا، فيبتسم ويجيبني: كلّ شيء له أجل ومكتوب...

-يارا: إنّ عينيه وحاجبيه المعقوفين أبرز ما يجذب فيه.

-تنهدت آه لو تريهما أمامك... وتضيف مسترسلة: وليس سؤالي له أين كنت من قبل؟ إلّا لكوني نادمة على عدم رؤية مثل هذه الأعين السّافكة للدماء.

- ثمّ أرتها صور شيرين صديقتها.

-شردت سلوى قليلا حينها، فالتفتت يارا إليها فسألتها: ما بك!؟.

- أتعلمين يا يارا أنّ إيهاب صعب جدًّا جدا، إنّه حسّاس جدا، إنّ شيرين كانت مسيطرة على مشاعره غيّر أنّها لم تحترم شعوره وراحت تتحدّث أمامه وبصفة دائمة عن شخص آخر، ولم تكتف بذلك... أصبحت تفضّل الخروج معه ولن تتصوري من يكون... لقد كان أعزّ أصدقائه.

أضافت لا أعلم كيف استسهلت الأمر!... وكيف أقنعت نفسها بأنّها لا تفعل أيّ شيء يغضب إيهاب منها!.

-وأضافت: لا أعلم كيف غاب هذا الأمر عن عينيها!... وكيف لم تحس به يكبر شيئا فشيئا مفرّقا بينها وبين إيهاب!

وكيف انتهى الأمر؟ سألتها يارا.

ابتسمت لامعة العينين متشوّقة لإيهاب وقالت: إنّ الأمر صعب الشّرح، إنّ علاقتنا بإيهاب يعجز المعبّرون عن التعبير عنها... فبالرغم من الفترة القصيرة من عمر معرفتنا له... إلّا أنّه نجح نجاحا رهيبا في كسب قلوبنا وعقولنا... لم يكن يجتهد لكسبها... بل كان هو حقيقة رائعا... يحترمنا بشكل صادق ويحاول أن يحسّ بنا ويسمع كلامنا ويرفّه عنّا بشكل يوميّ... أمّا خجله فهو ما كان يمتّعنا حقا، تصوّري أنّني كنت مدمنة لدراسة تحرّكاته ونظراته... تصوّري أنّه يتحاشى حتى النّظر لمفاتننا عندما لا نرى عينيه... حدثت لي حادثة رائعة معه في هذا المجال:

تابعت وقالت: أتذكرين يا يارا لمّا اشتريت السّروال الجينز والقميص الجديدين.

-ضحكت يارا: أذكر ذلك... قبل شهر... غضب محمد كثيرا منك حينها لارتدائك الجينز الضيّق.

ضحكت وماذا أفعل !؟... إنّه حُكم القويّ على الضعيف... إنّه إيهاب الذي سلب لبّي... لا أريد منه أن يحسني ناقصة الكمال أمام مختلف الفتيات وخاصة شيرين التي تجتهد في إرضاء رغبته الدّفينة في رؤيتنا في أحسن هيئة... سأرضيه ولو كان هذا على حساب مبادئنا.

ابتسمت ثانية: المهم دعينا في حكاية ذلك السّروال الجديد... أتعلمين أنّني عند وقوفي أمامه لم ينتبه حتى أنّ السّروال جديد وبارك لي على القميص فقط.

-اغتظت قليلا منه، وقلت له: إنّ السّروال أيضا جديد، وفكّرت حينها في أنّ السّروال على ما يبدو لا يظهر عليه أنّه جديد.

-أجابني معتذرا بشدّة: عذرا عذرا لم أنتبه مبارك عليك، إنّك رائعة فيهما.

-أضافت تقلّب مزاجي وظننت صدقا أنّ اختياري لم يكن موفّقا لذلك السّروال... تفطّن إيهاب لحزني ويبدو أنّه فهم لماذا ولكنّي لم أكن أتصوّر أن تكون هذه الحادثة وراءها سبب غير ظاهر تستدعي منه الوقت المناسب لكي يبيّن لي السّبب بطريقة إيحائيّة.

-ضحكت يارا: إيحائيّة.

-نعم إيحائيّة أجابتها سلوى وأضافت: لا زلنا هنا في هذه المرحلة... وكأنّنا نستمتع هكذا، وأضافت مستمتعة: أتعلمين أحسّ أنّنا اخترعنا طريقة في الحبّ... طريقة في المعاشرة لا يتقنها إلّا الأذكياء جدا... ليس فيها بُدّ من أيّ شيء مشين... حتى أنّه لا يشجّعني على دناءة الخلق... بالعكس فإنّه يتصرّف معنا أنا وشيرين معظم الأحيان كأنّه أخونا الأكبر ومسؤول عنّا ونستمتع كثيرا بذلك ونحسّ بالأمان أيضا معه.

-استدركت قائلة: اتركيني أكمل لك أين كان السّبب وراء عدم رؤيته لسروالي العزيز وضحكت...

-تابعت: ظلّ يوما كاملا يفكّر كيف يفهمني بطريقتنا لأنّه لن يصبر حتى يزيل كلّ مُبهم في تصرفاته دائما... لا يصبر ولا أفعل أنا كذلك... كانت هذه طريقتنا.

تابعت: تلك الأمسية جلسنا سويّة في نادي الجامعة وأحضر لنا النّادل كأسين من الآيس كريم المحشيين بالفول السّوداني والجوز واللوز والشكولاتة في أسفله، أعجبني أسفل الآيس كريم... قلت له: انظر يا لروعتها.

-نظر إليّ مباشرة بعينين لمّاعتين أعرفهما جيّدا حين يكونان هكذا... نظر إلى الكأس وقال لي فاتحا عينيه: إنّه لا ينظر إلى أسفلها لأنّ أسفلها يشهيه جدًّا لذلك لم ينتبه... ونظر لي بنظرته عندما يريد أن يفهمني أنّ لكلامه معنا آخر.

أطرقت بنظري قليلا أحاول فهم مقصده، وعاودت الرّؤية لعينيه ففهم أنّني لم أصل للمعنى فأعانني بنظرة إلى سروالي وابتسم.

ضحكتُ وأطرقتُ خجلا، وتابعت الكلام: أبدا لا ترى ما يوجد أسفل!

ضحك خجلا وقال: أبدا أحاول أن أكون صريحا معك... ونظر بحبّ أخويّ إليّ.

- تعجّبت يارا: واو، ما كلّ هذا! أفِعلا يوجد مثله في زماننا.

-أجابتها سلوى بحبّ: هذا هو الإنسان الذي عجزنا أنا وشيرين في إرضائه... أصبحت تهون أنفسنا أمامه... لهذا انتفضت أختك مدافعة عنه عندما جرحته شيرين.

أقبلت عليه والحمد لله أنّه كان يحمل لي من الإعجاب ما أحمل له، ولم يكن ينتظر إلّا إقبالي وإخلاصي له الذي هو أيضا يحمل حكايّة مضحكة.

فكلمّا دخلنا النّادي وطلبنا شيئا: كنت أجيبه حين يسألني كم تريدين من حبة، كنت أنظر إليه بطريقتنا، وأردّد مرارا وتكرارا أنا لا أريد إلّا واحدا، إلّا واحدا، فقط، واحدا يكفيني، وكان يفهم قصدي أن المقصودة هي شيرين الحاضرة، فهي لم تكتفِ بحبّ إيهاب واهتمامه وحده أرادت حبّ آخرين مع حبّه.

فهم قصدي وأحسست بنظراته إليّ كأنّه سمع ما أراد أن يسمعه... اطمأن قلبه وأجابني: وأنا أيضا لا أريد إلّا واحدة، واحدة فقط.

-سألتها يارا: واو أنتم عَجب!... ولكن لقد أنسيتني ولم تجيبيني كيف انتهت العلاقة بينه وبين شيرين بعد ذلك الموقف.

أجابتها قلت لك مواصفاته وكيف ألفناه... صحيح أنّه وبفعل ذلك الموقف أعاد حساباته وكأنه أوقف قطار حبّه... أمسك انهيار سد حبّه عليها... لم يعد يهتم لحضورها أو عدم حضورها... ولكن وبفعل لطافته الزائدة حافظ لها على

قيمتها المقربة، ولم يحسسها كثيرا بأنها كانت السّبب في يقظته التي لم تأت متأخرة، يقظته في الأوان المناسب قبل أن يعطي قلبه لمن لا يراعي أو يتجنّب المواقف الجارحة له.

-مثل هذا الإنسان يجبرك يا يارا على بذل المستحيل لعدم التسبب له بأيّ جرح... أنّه يعطي الحبّ والحنان والحمايّة دون أيّ مقابل... وأحسّه ساعات أنّه لا ينتظر حتى منك أن تبادليه أو تَرُدي له الشّعور بالمثل... .

نعم تصرف بمثل هذا التصرف مع شيرين وبرغم ما حدث إلّا أنّه لم يطل مدة غضبه المضحك الطفولي منها... بالرغم من أنّه لم يسمح لحبّه لها أن يتزايد لأنّها مستهترة وقد تقتله باستهتارها.

واصلت ضاحكة... وأدعو الله أن يقدّرني على إرضائه.

-تاهت يارا في كلامها وقالت: أتمنّى أن ألقاه يوما معكما.

-ابتسمت سلوى قائلة: أنت أدرسي جيّدا فقط هذه السّنة، وتحصلي على البكالوريا وبعدها إن شاء الله ستملين من وجهه.

-عارضت يارا قائلة: لا لا... أوَ مِن أجل إيهابك هذا أتخلى عن حلمي بدراسة الطب في جامعة عنابة... هذا إن تحصلت على تقدير جيّد إن شاء الله...

ضحكت إن شاء الله... إن شاء الله... داومي إذا المراجعة...

* * *

-لم يكن إيهاب مثلها يجد من يشاركه مشاعره، كان يستمتع بالأمر لوحده، حتى صديقيه كانا في معظم الأحيان لا ينتبهان أنّه على وشك الغرق مع إحداهن، إلى درجة أنّه أصبح لا يفعل شيئا يثير شك أصحابه حين حضورهم مجتمعين مع شيرين وسلوى، وسلوى بذكائها تفهم عليه فتتصرف مثله تماما، ما يزيد إعجاب إيهاب بها...

-كانت لإيهاب أسبابه، فسلوى قبل أن يتعرف عليها كان على علاقة مع أخوها

منذ نعومة أظافره، وصديق الطفولة كالأخ، فلا يريد أن يكون نذلا أو كما يعبّرون عنها في منطقته «ليس برجل»... لا يريد أن تُهزّ صورته أمام صديق طفولته.

ولعل أخاها كان السّبب في أنّه حين استلطافها نزع من رأسه تماما فكرة أنّه يتمتع معها وبها... وإن لم يتفقا في المستقبل يكون الأمر عادي، كمثل أيّ اثنين يتفرقوا بعد علاقة حميميّة.

كان الأمر مع سلوى مختلفا لما سبق، فلم يُرد للعلاقة أن تتطوّر، ولم يصارحها حتى، كلّ ذلك تركه حتى يتأكّد من نيته تجاهها.

-ولم يفضفض لأصحابه عن بدايّة إحساساته كونه من النّوع الكتوم جدًّا لأسراره، كان يحبّ المثل المشهور «إن أنت لم تستطع أن تكتم سرك بين قفصك الصدري فلا تلم من أفشيته له ألا يصبر على سرك» كان يحبّ هذا المثل ويذكّر نفسه به دائما حين يضعف ويريد كشف أحد أسراره، بالإضافة أنّه يعرف تماما عقليّة أترابه، كيف أنّه حين تستأمن أحد أصدقائك على سر، لن يلبث هذا الصديق في جلسة حميميّة مع حميم آخر أن يجعل سرك سمرا لتلك السّهرة، فلم يرد لسلوى مثل هذه الإشاعات، لهذا حافظ على مدى إبداء صدق وصفاء نيته تجاه صداقته مع سلوى.

حتى سلوى كان يرى فيها الصفحة البيضاء، الفتاة البريئة التي لم يسبق لها مثل هذه العلاقات، طبعا لأنّ أخبارها وحقيقتها تأتي عفويا من أقرانها، كانت معروفة بالخجل الشّديد، لم يُرد لهذه اليرقة الجديدة أن تنجرح... أصبح هدفه الأسمى في حياته ألا يجرح هذه البريئة.

لا يجرح من يرى فيها هي وشيرين المخلّص الذي أخرجه من حياة الشّر والعداوة والخبث الدّائم التي كان يعيش فيها مع أصحاب الإدمان، فلم يصدّق أنّه في الحياة لا تزال أناس بمثل هذه البراءة والطيبة والنيّة الصافيّة والإخلاص

للصديق.

-جعل منها أعزّ أصدقائه حتى أنّه صارحها بمشاعره الدّفينة جدًّا عن أقرب أصحابه، أصبحت تحمل بعض أسراره لاطمئنانه لكتمانها، أو أن هذا الإحساس بالاطمئنان، أحسّه بمعرفته التي جربها في نفسه أولا... أن من يحبّ أحدا مستحيل أن يفكّر بجرحه... لأنّ جرحه يعني خسارته... ومن المغفل الذي يفكّر بخسارة من يحبّه، وكشف أسرار الحبيب.

الجرح الذي يسببه ليس هينا. لذلك لم يخف على أسراره منها، وحتى سلوى عاملته بالمثل، أصبحت لا تكتم عنه مشاعرها وامتعاضها من أقرب صديقاتها... تشرح له ما يزعجها فيهن دائما، يتفاجأ في معظم الأحيان أنهما متشابهين، يحبّان ويكرهان نفس الصفات في الإنسان، يحبّان الهدوء، الرّصانة، البشاشة، الجمال والعينين الجميلتين، الوفاء والإخلاص، النّظافة، والاعتناء بالنفس، ويكرهان الدّناءة، نكران الجميل، الخبث ومتعدّدي الأوجه، المتكلمين كثيرا عن النّاس، كثيري الطلبات أو دائمي السّؤال، المتطفلين وخصوصا المتطفلين.

أحبّا كلّ خصالهم الجميلة وتمسكا بها... وتفاجآ مفاجأة سارة بتوافقهما.

أصبحت ألوان كلّ منهما محببة للآخر فكثيرا ما يُغيّر أحدهما قميصه ليوافق لون قميص الآخر إن كتب لهما الرّجوع مساءً للدراسة.

* * *

-أخذت له صورة بهاتفه، وفي المساء وجدتها يضعها كصورة بروفايل في صفحته على الفايسبوك، وعلق عليها مع أصحابه: أنّها أحبّ الصور إليّ هي ومن صورني إياها...

كانت التفاصيل الصغيرة هي التي جعلت الجوّ أحلى بينهما، الجوّ الذي يبدو في الأفق أنّه لن يطول صفوه.

فيبدو أن للحبّ الصافي أعداء، فشيرين بدأت غيرتها تكبر شيئا فشيئا، فرغم اجتهاد إيهاب من أجل عدم انتباهها إلّا أنّ الحبّ لا يستطيع أدهى الدّهاة أن يكتمه... هذا من جهة شيرين التي كانت غيرتها كغيرة الأطفال محتملة وتبعث على الضحك...

أما صاحبه حازم فقد بدأ تعلق سلوى بإيهاب يوقظ في قلبه مشاعر الحسد والحسد كالبذرة في القلب، في يد المرء إذكاؤها ورعايتها حتى تصبح شجرة تقتلع معها كلّ صفاء وحسن نيّة في علاقته مع إيهاب مع مرور الوقت... وفي يده قمعها وعدم السّماح لها بالنمو بتاتا... غيّر أنّ طباع حازم السّيئة التي يعرفها إيهاب جيّدا، فهو لا يرى في أن عشق صاحبة صاحبه عدم رجولة... فبدأ يتمنّى ذلك الولع الشّديد والشوق الدّائم الذي يراه في عيني سلوى لإيهاب، أن يكون له... يتمنّى إمعانها الشّديد في عينيه أن يصبح إمعانا لعينيه هو... أحبّها وتمناها لنفسه...

كانت فتنتها التي زاد الحبّ توهجها مشكلة لإيهاب... فقد أصبحت جاذبة لنظر القريبين منه... الذين يخشى أن يجرحهم بكلامه أو دفاعه عنها... وهو لا يحمل أيّ حق للدفاع عنها... حتى أن حبّهما غير معلن حتى لبعضهما... أمّا فتنة إيهاب فقد خلقت الحاسدين لسلوى من صديقاتها في الغرفة أسمهان ونجوى، فلقاءهما المتواصل معهما، جعلهما يُعجبان بإيهاب أيمّا إعجاب، وينتبهان لحبّ سلوى له، وحبّه لسلوى.

فإذا كان حازم من فرط حسده وغيرته من إيهاب، لا يُضيّع أيّة فرصة أمام سلوى للإنقاص من قيمة إيهاب، يغضبه، يُنقص من رجولته، وحتى يحاول تذكيره بعلاقاته السّابقة، ويومئ لها أنّ عشقه جنسيّ، غيّر أنّ ذكاء إيهاب جعله يتفطن له من تصرفاته، وبالضرورة جعل سلوى تتفطن هي الأخرى لحسد حازم له.

-أما صديقتيها فقد كان حسدهما بطريقة مختلفة وقد أثّر بطريقة أسوأ وخاصة نجوى فحين ملاحظتها قرب سلوى من إيهاب وقربه منها، وطريقة حنانه ودلاله الشّديد لها، أخذت الغيرة والحسد يعميانها وأصبحا أشبه ما يشبهان إلى الكره الشّديد ولكن تجتهد أيّما اجتهاد في كتم حسدها الأعمى عليها... المسكينة التي لا تتمتع بمقدرة إيهاب الرّهيبة في كشف الحاسد والمنافق معه خلال ثواني من كلامه...

فقد نجحت نجوى الحسودة الكارهة لعلاقتها مع روحها إيهاب في لعب دور الصديقة النّاصحة، فقد بدأت تردّد لها نصائح صحيحة ولكن بسوء نيّة، نصائح ثمينة عن: أن أغلى ما يملك المرء هي سمعته وستثبت الأيّام لها أنّها أغلى ما تملك، وعليها ألا تتساهل أبدا في قبول علاقة مع أحد الطلبة لأنّ الرّجال لا ينسون أبدا، فإن هي تساهلت في إقامة علاقة مع أحد الشّباب وهي صغيرة فإنها بذلك حكمت على نفسها... فمن المستحيل أن يتقدم أحد القريبين إليها للزواج منها لمعرفته بعلاقتها السّابقة... لأنّهم لا يقبلون أن يقال على زوجاتهم كلمة سوء تؤدّي إلى جرح كرامتهم التي تستطيع أن تؤدّي إلى الطلاق... لأنّهم لا يحتملون مثل هذه الإهانة، ومن يستطيع العيش مع إنسانة كلّ النّاس يقولون عنها أنّها عاهرة ويملكون الدّليل على ذلك.

لعبت نجوى بشطارة دور الأم أو الأخت الكبيرة النّاصحة، وداومت نصحها وكان حسدها يمدها بالطاقة الدّائمة، استلطفتها سلوى واستأمنتها وتطوّرت الثقة حتى وصلت مع الأيّام إلى حريّة العبث بهاتفها النّقال التي انتهزتها في أحد الأيّام بعد ترك سلوى لصفحتها على الفايسبوك مفتوحة... فدخلت تقلّب رسائلها حتى وصلت إلى رسائلها مع إيهاب... قرأت الرّسائل الأخيرة لمعرفة إلى أين وصل مدى عمق علاقتهما... عرفت أنّها لا تزال علاقة خجولة وسطحيّة فاطمأنت لذلك.

-في مساء ذلك اليوم كانت سلوى على وشك سماع درس خصوصيّ آخر من طرف نجوى حول «مدى الثقة في المراسلة»... حبكت لها قصّة من رأسها عن فتاة استلطفها أحد زملائها في الدّراسة وأصبح بين يوم وليلة يتخذ من الدّراسة سببا للدردشة على المسنجر، وتطوّر الوضع معهما، أصبح يغازلها، أحبّت ذلك، فتمادى في المغازلة فاستجابت لمغازلته ورَدّت عليه بالإيجاب بعد أن أوقعها في شباكه.

استمعت إليها سلوى بحيرة ولاح ببالها قصتها مع إيهاب... أكملت نجوى من دون زرع أيّة شكوك في نفس سلوى أنّها تقصد بكلامها علاقتها بإيهاب... أكملت كلامها قائلة: استمر الوضع وتطوّر من كلمة إلى جملة إلى صورة إلى فيديو إلى علاقة جديّة إلى حميميّة ساخنة.

أثناءها ابتسمت سلوى وأكملت نجوى: أتعلمين يا سلوى ماذا فعل النّذل بها... لقد فضحها عند أوّل مشكلة حدثت بينهما... واستخدم رسائلها على المسنجر وفيديوهاتها التي كان يسجّلها على السكايبSkype))، ونشر الكلّ على الفايسبوك في معظم المجموعات الكبيرة لمنطقتها.

واو، واو عبّرت سلوى متأثرة وتابعت... وماذا حدث لها المسكينة؟... كارثة... لا بد أن عائلتها قتلوها !؟.

-اضطروا لإنهاء مشوارها الدّراسيّ ولا يعلم أحد ماذا فعلوا بها... يبدو من صديقاتي اللتان تعيشان بجوارها في مدينة القل أنّهم في منزلها قاموا بتعنيفها جدًّا لأنّها مكثت أسبوعين في المستشفى.

-سلوى مقاطعة... لقد أرعبتني جدا، الحمد لله أننا لا نتساهل في مثل هذه الأشياء.

تابعت نجوى... رافعة رأسها للسماء ونظرها إلى الأفق عبر النّافذة كي لا ينتاب سلوى أيّة شكوك... وتابعت قولها... نعم بالتأكيد إن شاء الله لن

يستطيع أحد اللعب بنا وبمشاعرنا.

أَمّنت بعدها إن شاء الله يا رب.

ابتسمت حينها نجوى كالمنتصرة الحاذقة لإتقانها الدّور جيّدا.

* * *

عند نهاية الأسبوع كانت يارا تنتظر سلوى بحرقة لأنّ موضوع إيهاب صار مسليا لها... سألتها عليه...

بخير كالعادة سيأخذني لحافة الجنون، آه لقد فرح كثيرا بصوره في المرحلة الابتدائية... ضحكت عليه كثيرا وروى لي أحداثا كثيرة في تلك المرحلة عنه وعن أخي وعن العصابة التي كان يكوّنها وأخي وبقيّة شلة القسم يتعاركون ويتناوشون مع ذكور الأقسام الأخرى... ويلعبون ضدهم مباريات كرة القدم عشيّة الإثنين والخميس لأنّها عطلة... وما أضحكني أنّه وفي نهاية كلّ مباراة ينتهي الوضع بإلقاء الفريقين للحجارة على رؤوس الفريق الآخر... وكانت النّتائج والوقت غير محدّدين... قد تبلغ في بعض الأحيان العشرين هدفا ويلعبون إلى المغرب.

أردفت يارا ضاحكة: طاقة أطفال...

غيّر أنّ سلوى أقطبت حاجبيها قائلة: لكن الوضع أصبح غير مريح بعض الشّيء...

سألتها يارا في حيرة: لماذا؟... هل إيهاب!..

قاطعتها سلوى... لا لا... إيهاب لا يتغيّر وإن تغيّر فأنا التي تغيرت اتجاهه ولا أملك العبارات التي أعبّر لك بها عن مدى عشقي لإحساسي عندما أكون معه وبمفردنا... لا أعلم ما هذا الشّعور... لم أَخْبَره من قبل... أنّه راحة قصوى... كأنّ الفرحة أو البهجة أو السّعادة إن كانت شيئا يدخل القلب... كأنّ كلّ الرّغبات والأحلام التي أحلم أن أمتلكها اجتمعت في هذا الإيهاب وفي تلك المنطقة.

أتعلمين عندما أكون بمفردي معه في أحد القاعات الفارغة منتظرين وقت الدّراسة... أنظر إليه حائرة وأود أن أصارحه أنّني في تلك اللحظة أقسم بأغلظ الأيمان أنّه لا أتمنّى شيئا آخر في الحياة غير وجوده معي... لا يهمني ساعتها لو مات كلّ العالم... صدقيني نفس الشّعور أراه في عينيه... كلّ هذا وأكثر يقتلني كلّ أسبوع... أصبحت لا أطيق هذه العطلة المشؤومة التي تبعدني عنه والله أنّه لظلم إبعادنا عن بعضنا.

انتبهت سلوى عند سكوتها عن الكلام ليارا فوجدتها حائرة تائهة معها فاتحة فمها من شدّة الذهول... ثمّ قالت يارا: واو أكل هذا في قلبك يا سلوى... انتبهي لنفسك فالحبّ صعب كما يقولون... ولكن تذكرت أنك في أوّل الكلام قلت إن الوضع أصبح غير مريح... ما الذي أزعجك يا ترى.

أجابتها لا أدري كأنّ العيون أصبحت تراقبنا أكثر من اللازم خاصة الذين نعرفهم... حتى أن هناك بعض التصرفات المخزية من صديقه حازم... ظلت تعاد وتعاد... كلّ مرة.

سألتها يارا: ماذا تعني.

أظنّ أنّه يحسد صديقه إيهاب عليّ فيحاول النّيل منه أمامي دائما.

ضحكت يارا: أنت جميلة جدا... لا ألومه... ولكن هل انتبه لعلاقتكم.

وكيف لا ينتبه... فإيهاب لا يستطيع إخفاء حبّه لي... فهو يغمرني بحنانه وعطفه... يخاف أن يمرّ الوقت وهو لم يشبع من التمتع بعيني... وفي بعض الأحيان لا يهمه الحضور... ولا أخفيك أنّه أصابني بعدوى مرضه هذا... فقد أصبحت لا يهمني أحد إلّا الشّبع من سحر عينيه... النّظرة التي كنت أنا من علّمه إياها فأصبح ينافسني في مدتها وفي كلّ مكان...

تابعت قولها: إننا لا ندرس يوم السبت.

أجابتها يارا في حيرة تبغي إفصاحها عمّا ترمي إليه: نعم.

تابعت أتعلمين أنّه في لحظة... وخلال انفرادنا... أخرج كلمات صريحة عن شعوره... لأول مرة يفعلها... اقترب مني... وكأنّها كلمات لرجل يحتضر على فراش الموت... قالها بتلعثم وصعوبة كبيرة... اقترب من أذني... وقال: لماذا لا تأتين يوم السبت؟!... نحن نشتاق لك كثيرا... .

أكمل هذه الكلمات بصعوبة ظننت خلالها أنّه سيفارق الحياة... صدمتني الكلمات جدا... لم نعتد على التعبير بالكلمات... أو قولي أنّها أوّل الكلمات... كم كانت معبّرة!... الصراحة يا أختي أني لم أتمنها... أصابني بالجمود... لبثت هنيهة ثمّ أخرجت كلمة بنفس طريقته... قلت له:... سأرى إن كان بإمكاني ذلك... قلتها وشعرت بعدها بالفرحة أنني استطعت إخراجها من جوفي... كأن الأمر معدٍ... ضحكت على إيهاب ونفسها وتابعت قولها... لكن الأمر أحلى من العسل... أظنّ أنّي سأقوم من نومي على السّابعة صباحا.

-ضحكت يارا قائلة: لماذا؟ غدا الجمعة.

-تابعت سلوى تائهة: لا لا أقصد يوم السّبت.

-ابتسمت يارا: وهل ستذهبين؟.

- طلباته أوامر يا يارا... تقولها وهي تائهة... طلباته أوامر... وأيضا لقد سهّل لي طلبه ما تمنيته... فأنا أتمنّى لو كنت أستطيع أن أبقى في الجامعة لا أرجع منها إلّا كلّ ثلاثة شهور... لأشبع من لقياه الذي لا أشبع منه... أحسّ أن لقاءه فرصة ولا ينبغي تضييعها.

* * *

يوم السّبت كعادته ذهب مبكرا لسكيكدة... لا يمل القعود في الإقامة وفي بعض الأحيان يتفق مع بعض شلته على البقاء عطلة الجمعة فيها.

كانت السّاعة العاشرة صباحا عندما وصل بوابة الإقامة ورن هاتفه... أين أنت؟... كانت سلوى... كاد قلبه أن يقف... في الإقامة لماذا؟... قالت: أنا أيضا

بعد نصف ساعة نلتقي... وقف ضاحكا كالمجنون... يضحك بلا صوت... لم يصدّق الخبر... لقد فعلتها... يردّد في قلبه... لقد جاءت... لم أكن أظنّها ستأتي أبدا... أحبّك يا سلوى... أحبّك والله أحبّك...

صعد يجري مع صاحبه وألقى بأمتعته... وأشعل الأنترنت في هاتفه بسرعة... وبعث لها مباشرة... أهلا بالمسنجر... بعد هنيهة... أجابت: أهلا كيف حالك؟... انزل أمام إقامتي إني نازلة... جن جنونه... أحسّها أتت من أجله... لا كالعادة تأتي من أجل الدّراسة... أحسّ كأنّه مسؤول عنها... مسؤول عن تمضيتها ليوم سعيد.

-كانت أبواب الجامعة مغلقة يوم السّبت... التقى بها... وقال لها هيا بنا... وقالت له: أين؟ ماشية وراءه... استقلّا الحافلة نازلين لمدينة سكيكدة أو روسيكادا كما يحلو للجميع تسميتها وهو اسمها أثناء الفترة الرّومانيّة في الجزائر قبل ميلاد المسيح عليه السّلام...

نزلوا إلى روسيكادا... اشترى غداءهما على عجل... سندويشين شاورما... وهي عبارة عن لحم الدّيك الرّومي مشوي... وبعض الليموناضة... وتوجهوا بعدها للبحر... وهذه المرة قرّر أن يريها شاطئ فلفلة أو جاندارك jandark المشهور في روسيكادا...

ذهبا بالحافلة... لمدة 10 دقائق... كان عطرها يحبس أنفاسه... وحرارتها المنبعثة من جسمها الذي يلامسه تكاد تذيبه... أخذ بيدها عند نزولهما من الحافلة وكان لا يطيل إمساكه بيدها إلّا عند مصافحتها كلّ يوم... يمسكها قليلا ثمّ يطلقها... أو عندما يتناوشان أثناء مزاحهما... لذلك أحسّت بشيء خارق في ملمس يديه كأنّه شيء يمر منه إليها... وهو أيضا غارق في نفس الشّيء... كأنّه العشق يسري لقلبه.

لم يكن الموسم الصيفيّ قد فتح أبوابه بعد... لكن باعة الشّاطئ بدأوا

يحجزون أمكنتهم أوائل شهر ماي... لأنّ الشّاطئ رغم الإقبال الضعيف الذي لا يتمثل إلّا في العشاق... إلّا أنّ تجارة كراء الشّمسيات بدأت تتحرك...

اكترى لها شمسيّة وكرسيين وذهبا لمكان هادئ وانفردا على الشّاطئ... كان اليوم كأنّه حلم... استمتعا متعة لا توصف بأدق الكلمات... كانا عفويين لأقصى درجة مع بعضهما البعض... لأنّ سلوى أحبّت إيهاب ولم ترد منه الكمال... أحبّته كما هو... فقد صارحها في أوّل معرفتها به أنّه كان مدمنا على الكحول والمخدرات وحتى التدخين... لم يزعجها شيء... أيقنت أن كلّ شيء سيتغيّر مع الزمن... لم تحاول أن تغيّر شيئا فيه... ولعل هذا أشدّ ما أعجب إيهاب فيها... فأصبح كأنّهما روحا واحدة في جسدين مختلفين... لا يتملقها... لا يتظاهر أمامها أبدا... يتصرف في وجودها كأنّه لوحده... لا يغيّر وجودها في تصرفاته شيء... ولم يكن من سلوى إلّا أن ارتاحت للوضع وماثلته في هذه العادة.

-أمضيا أمسيّة رائعة كأنّهما في كوكبهما الخاص... تلاعبا بماء الشّاطئ وغنّيا بأغاني الهاتف... كانت الأغاني تطبع على لحظاتهما رونقا خاصا... كانت تلعب كأنّها شيفرة لحبّها... فكانا يتداولان وضع الأغاني بهاتفيهما... وكل مرة يضع فيها أحدهما أغنيّة لمغنٍ كان ينظر في عيني الآخر بحنان ويقول له... اسمع هذه الأغنيّة إنّها جميلة جدا... كانت هذه طريقتهما... بَرَعا في إمتاع بعضهما البعض... وكانت كلّ أغنيّة تحمل من المعاني ما يعجز قلبيهما وألسنتهما عن قولها... يتيه ويحفظ كلّ منهما تلك الأغنيّة حتى ولو لم تدم مدة اشتغالها طويلا... لأنّها تمثل الأكسجين الذي يعيشان به لحظة الذهاب في العشيّة إلى الغرفة وانفرادهما في فراشهما، فيقوم كلّ منهما بوضع تلك الأغاني ويصل السّماعة بأذنيه ويستمع لأدق تفاصيل كلمات تلك الأغنيّة والأغنيات...

كانت طريقة ممتازة لنقل مشاعرهما... أمّا ذلك اليوم فقد كان لهما كلّ اليوم... كان كله لهما... فقد وُضعت الأغاني كاملة على طاولة عشقهما وبطريقة ذابت معها القلوب لأنّها كانت عاطفيّة جدًّا ومختارة من مغني إيهاب المفضّل العاطفي «الشاب حسني»... أمّا سلوى فقد كانت تختار له من الأغاني الشّرقيّة المشهورة للفنانة «إليسا» خاصة لأنّها كانت المفضّلة لديها.

مرّ الوقت ولم يحسّا به... قاربت السّاعة على الثالثة مساءً... طلبت سلوى من إيهاب الرّجوع لأنّ الوقت تأخر... فوافقها إيهاب الرّأي لأنّهما تعبا جدًّا واستمتعا بما فيه الكفاية... قال لها... أوّل مرة أتعب في البحر من دون سباحة... ابتسمت مستثمرة كلامه... عن أيّ سباحة تتحدّث... أظنّ أنّني عند السّباحة معك سأغرق... ضحك وفهم قصدها... وأجابها في طرفة عين... البحر الذي آخذك أنا إليه... خذي حذرك منه... لأنّه عميق جدا... نظرت في عينيه وضحكت وأجابته... أوه معك لن أخاف من شيء.

ابتسما وحملا الشّمسيّة والكراسي وأعاداها لصاحبهما وذهبا إلى مكان انتظار الحافلة.

-ركب الاثنان الحافلة وفي هذه المرة اقتربا من بعضهما البعض أكثر من أيّ وقت مضى... أحسّا أنهما فعلا جسد واحد... لم يكلّما بعضهما البعض... كان الأمر بينهما ساعتها كأنّهما يُسكتان بعضهما البعض... يُريدان أن ينصتا إلى شيء... لعلّ الإحساس الدّاخلي الذي يتملّكهما ساعتها... إحساس بالانتماء لهذا الجالس بجنبه... إحساس بالحبّ فوق حبّ النّفس لهذا الجالس... إحساس بالتقدير والاحترام العظيم لهذا الجالس... احترام عبّر عنه إيهاب لسلوى ذات مرة... قائلا: مستعد أقطع يدي إن هي امتدت إليك وأزعجتك أو لمستك بسوء... كان يقولها مزاحا معها... لكن في حقيقة الحال كان يعنيها من كلّ

قلبه وفهم الاثنان ذلك ساعتها.

إحساسهما أدخلهما حالة من اللاشعور كأنّهما يستمعان إلى أفكارهما... وصلت الحافلة كعادتها... سلّمها لإقامتها وهي لا تزال في حالة نشوة من هذا اليوم المميّز في حياة علاقتهما... ودّعها إلى ساعة محادثتها بالمسنجر... وذهبا كلّ لإقامته... لم تصل إلى غرفتها حتى رنّ المسنجر برسالته... كانت «شكرا لك لأنك أتيت اليوم شكرا جزيلا» شكرها لأنّها أحسّت بشوقه لها.

كم هو رائع عيش الحبّ وكتمانه على الحبيب... حلو ومر... سهل وصعب... وفي حقيقة أمره لم يكن مكتوما... كان غير مصرح به بشكل لفظي فقط... كان التصريح به يزداد صعوبة يوما بعد يوم... فحبّ إيهاب كان يكبر ليأخذ من كلّ أنواع الحبّ الموجودة في الخلق... كان حبّه كأخ يغار على شرف أخته... كان حبّه كأب يريد الأفضل لابنته ولا يرضى لشرفها أن يداس أو كرامتها أن تهان... على استعداد أن يضحي بأيّ شيء، أو يهين ويضرب أيّ أحد أو أيّ مجموعة يمكن في يوم أنّها تلمس سلوى بسوء... كان حبّه كحبّه لنفسه أو أنّه الحبّ الوحيد... الذي يحسّ أن حبّه لسلوى أكبر منه... نعم فهو يرى أنّه يحبّ سلوى أكثر من نفسه التي بين جنبيه... فهو يقدّم رضاها عن رضاه دائما... يقدّم مصلحتها عن مصلحته دائما... كان حبّه كحبّ الأمّ لابنتها... يخاف عليها من الهواء البارد... يخاف عليها من لفحة شمس محرقة... يمرض ويغتم لمرضها ولو بأتفه الأمراض... يُحسّها بعمق مخيف...

كان نظره إليها واحتياجه لها يزداد يوما بعد يوم... كان احتياجه كاحتياج الابن لأمّه... يتدلّل عليها دلال الأطفال... يحسّ كأنّه يملكها كاملة بعقلها وقلبها وجسدها... كان دلاله عليها سببه لمن لا يفهم عشق العاشقين صعب الفهم ويبعث لمن لا يفقه في حبّ المحبّين غرابة وعدم اقتناع وفي بعض الأحيان يمكن أن يحتار من يرى كيف لسلوى أن ترضخ لدلاله عليها...

كان دلاله ينبع من جوفه... ينبع من قلبه... ينبع من روح مشاعره... كان لا يرى دلاله عليها شيئا يذكر أمام ما وهبها هو... أمام ما أصبح وأمسى يحسّ لها من هيام... أمام تسليمه لقلبه لها على طبق من ذهب لتفعل به ما تشاء... لتعذبه أو لترحمه... لا يهمه أبدا ما سيلقى في هذا الحبّ... كان الأهم عنده أنّه لن يتوانى أبدا في الإخلاص لمحبوبته كأنّها مَلِكَته... نعم نصبها الملكة وهو في خدمتها الوزير المطيع... حتى أنّه من فرط حبّه لها أصبح يقدّسها ويراها كالأغراض المكتوب عليها لافتة «ممنوع اللمس»...

فُتن وفرح بها وسعد لاجتماع كلّ صفات فتاة أحلامه في مخلوقة بريئة... براءتها معه أعدمت غريزته الذكوريّة تجاهها... كان كثيرا ما يضحك على نفسه فهو يعرف نفسه جيّدا... كيف أنّه وفي حضرة فتيات أقل منها فتنة تهيج نفسه جدًّا عليهن حين يحاولن فتنته... أمّا في حضور سيدة الكل فهو لا يكاد يهتم بشيء غير الرّاحة والطمأنينة التي تنزل على قلبه... لا يعرف لها تعريفا أو تعبيرا... كأنّها حالة الطفل الذي يكون بعيدا عن أمّه ويشتاقها ويبحث عنها بلهف وشغف... وعندما يجدها تنزل السّكينة على قلبه في جوارها لا يهمه شيء غير بقائه بجوارها...

أو لعلّ شعوره نابع من سعادته بحد ذاتها... نعم سعادته التي لن يغامر مهما حدث بأيّ شيء يستطيع أن يسبّب حرمانه من كلّ هذه السّعادة... وكانت كلّ سلوى أو معظمها في يده فكيف يغامر بأن يخسر حبّها من أجل نزوته... فطُهرها وعفافها كانا أسمى مميّزاتها... وهو يعلم أنّ الحبّ كزجاجة المصباح سهلة الانكسار ومستحيل إرجاعها لما كانت عليه من قبل... يعرف أن حقيقة الحبّ قداسة لا يمكن أن يشوبها جري وراء إرضاء لغرائز ولا يؤثر ذلك في إنقاص وتيرة ذلك الحبّ... ولا يريد لقوة هذا العشق أن تخفت ويذهب وميضها... يريدها أن تَعظم وتعظم حتى تذهب به لحلاوة أحلى من

حلاوة حبّه الحالي...

جرّب الحبّ ولا يريد إلّا أن يُجرب المزيد منه... المزيد، المزيد وكان الأمر ميسورا... فقد كانت نفس المشاعر تسري في الجسدين... نفس الأحاسيس في العقلين... نفس المفاهيم... نفس الاستنتاجات... نفس الحالة عاشها الاثنان... يريان الموت أهون ألف مرة من خسارة الحبيب... أقسى عذاب في الدّنيا... لا يحتملان فرقة يوم فكيف يحتملان الفراق أو الخصام.

عرفا جيّدا وعاشا تجربة أن الحبّ لا يحتاج إلى جنس ولا حتى لجنس قبلة... فبالعكس كان الخوف على خسران هذا الحبّ أو سقوط أحد الحبيبين من عيني الآخر مسببا في عفة الآخر... فلا إيهاب يريد أن تحس سلوى بشهوته تجاهها ولا سلوى بطبيعتها ترغب في تبيان رغبتها تجاهه وهذا معروف ومتفق عليه عند البنات وتتعدّد الأسباب وراء هذا الشّعور...

لذلك كان الغريب والمضحك فعلا هو إحساس إيهاب بالخوف الشّديد من خروج رغبته في سلوى إلى العيان... هذا الخوف أو مشاعر الرّاحة التي تحدث له في انفرادها به كانت هي السّبب في عدم إحساسه تماما بشهوته لجسدها الصارخ...

لكن ما حيّر إيهاب كثيرا هو أنّه في بعض الأحيان حين انفراده في غرفته على فراشه... كان يحلم أو يتحلم بها... كان يشهّي نفسه جدًّا بسلوى... كان يرى نفسه يقبلها في فمها... ويتأوّه كالمسكين... لم يُرضه ذلك... كان يرى في هذه الأمنيات أبعد من المستحيلات وأصعبها... كان لا يريد لهذه الأحلام والرغبات أن تخرج من عقله الباطن... كان يتحرج بها... كان يخشى حتى وهو في فراشه مغطى بغطاء نومه أن يرى نفسه يفعل ذلك مع سلوى... كان مخلصا لصورته أمامها... مخلصا لها... أراها وجه الإنسان الشّريف العفيف الطاهر... فلا يريد حتى لنفسه أن تحس غير ذلك...

كان يراها كأنّها من الحور العين... وكانت ترى عفّته ومحاولته لإخفاء وإبعاد الشّكوك لرغبته في لثمها... نعم لثمها الذي بانت رغبته في عينيه وكشفت من خلالهما... كانت رغبته دفينة ولم تفعل شيئا ضارا في ذلك لحبّهما الطاهر... بل على العكس من ذلك فإمساك إيهاب لنفسه أمام سلوى رغم انفرادهما في غير موضع كان له سحره في زيادة معزّة وحبّ واحترام سلوى له.

-انتهت أيّام الأسبوع ورجع الكلّ ومضت أيّام الدّراسة تسري إلى منتهاها.

في بعض عطل الأسبوع

في منزل سلوى كانت العائلة مجتمعة على مائدة العشاء... وكانت مفتوحة على صالة الجلوس التي كان تلفزيونها مفتوحا... جمعت طاولة الأكل كلّ العائلة إلّا محمد فلم يكن قد عاد إلى البيت بعد... كعادة كلّ الشّباب ليس لهم موعد محدّد للعشاء... وقت ما يعودون يأكلون ولو على الثالثة صباحا... كان أكل أمّ سلوى الشّهي يلمّ العائلة في حبّ وود... كانت الوجبة مرقة جلبانة مع طبق بطاطا مقليّة مع طبق سلطة... كانت وجبة عاديّة في يوم عادي...

كان صوت التلفزيون في صالة الجلوس المقابلة عاليا... كان الموضوع المدروس ليلتها مميّزا... عن ماهيّة السّعادة... موضوع لم تستطع الكتب أن تحوي كلّ التعاريف له... يختلف معناها من إنسان لآخر ومن مكان لآخر وزمان لآخر وطرف لآخر... أعجب الكلّ بالحلقة... لم تكن مدتها طويلة...

عند انتهائها... تنهد أبو سلوى الحاج صالح كما يسمونه كونه أدّى مناسك العمرة مع أمّها... تنهد وقال: أتعلمون يا أولادي وكان إسحاق أيضا بدأ يفهم كلّ شيء من كلام الكبار... واصل الحاج قوله... أتعلمون ما تعلّمته في دنيتي يا أولادي... تعلّمت أن الهناء أو السّعادة كما كانوا يسمونها في التلفزيون... الهناء مختصر في فائدة دينيّة بسيطة لكن معناها أعمق وأوسع،

جملة يمكن أن يكون الكلّ سمعها... «إذا أردت أن تكون سعيدا أو تشعر بالسعادة الحقيقيّة والتي لا تنتهي... فعليك أن تستفتي قلبك قبل كلّ خطوة تخطوها، هل هذه الخطوة تقربك من الله أو تبعدك عنه، فإن كانت تقربك منه فافعلها وإن كانت تبعدك عنه ولو أشبارا بسيطة فلا تقربها أبدا مهما كانت»...

أتعلمون أنّه وفقا لنهج نبينا المرسل محمد صلّى الله عليه وسلّم «كلّ منهي عنه نتركه... وكلّ ما أمرنا بعمله نعمله»... لماذا؟... لأنّ كلّ ما نفعله والله لا يرضى عنه يجلب بالضرورة معه هم وغم أو مصيبة ملازمة... وهي أضداد السّعادة... إذا بالابتعاد عما يغضب الله أو ما يبعدنا عنه... نكون بذلك ابتعدنا وأبعدنا أنفسنا عن البلايا التي تكون معاصينا سببا لها... وهذا يستوجب الفرحة لأنّه نوع من التوفيق في الحياة... وبالإضافة لأنّه كلّ ما يقربنا من الحي القيوم يحبّبنا فيه ويحبّبه فينا... ومن أحبّه الله أصبح سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يرى به ويده التي يبطش بها واستجاب لدعائه... وهذا أقصى ما نتمنّى في دنيانا وآخرتنا وعين المراد في الحياة وأفضل التوفيق... لذا يا أولادي لا أوصيكم إلّا بالصبر على جهد طاعة ربكم والعمل بهذه النّصيحة القيمة التي أفادتني في حياتي كثيرا.

فرحت البنتان كثيرا بكلام أبيهما وقامتا لغسل الأطباق بعد أن أتمّ الجميع العشاء وتمنوا الصحة والعافيّة لبعضهم البعض...

كان لكلام أبي سلوى وقع مميّز في أذنيها... كان يعلق في ذهنها... ترى دائما أن أقل ما يمكن أن تفعله لوالديها وخاصة أباها... هو أن تحافظ له على سمعتها التي هي سمعته... كثيرا ما كانت تُفهم هذا الكلام لأختها يارا هذا منذ صغرها... كان حبّ الأب الحبّ الوحيد الطاغي على قلبها قبل ظهور إيهاب في حياتها... لذلك لا تأمل أن يتعارض هذين الحبيبين والحبّين في

يوم من الأيّام.

* * *

رجع تلك الليلة محمد أخ سلوى متأخرا... كانت السّاعة تقارب الحاديّة عشر ليلا... دخل غرفة أخته فوجد سلوى على حاسوبها... ناداها لتسخن له العشاء... ذهبت ولما عادت بالعشاء وجدت وجه أخيها متغيرا... أدخلها بعنف وألقاها وأغلق بابه وحذرها عن إصدار أيّ صوت... كان قد أشعل تلفازه وزاد حجم الصوت... لم تفهم المسكينة سبب غضبه... كان وجهه محمرا يشع من عينيّة اللهب.

سألته: ما بك؟... ما الأمر؟

سألها وهو مطبق على أسنانه من الغضب: هل صحيح ما سمعته؟

أجابته مفزوعة: ما الأمر؟... لم أفهمك؟... .

بدأ غضبه يزداد: أصحيح أنك تخرجين مع أحدهم في الجامعة؟...

فوجئت جدًّا بقوله ونفت بقوة وحلفت بأغلظ الأيمان...

انفجر غضبا عليها: ولكنهم رأوك على شاطئ جاندارك مع أحدهم ولم يعرفوه من هو؟.

كادت تبلع لسانها ولكنها حافظت على إنكارها وحلفت مرغمة أنهم يكذبون عليها... وترجته لكي يخبرها من الذي أخبره، لكي تذهب إليه وتُذِلّه أمامه وتُكذّب كلامه...

احتار ولم يدرِ ماذا يفعل وأمسك نفسه بقوة على ضربها وحذّرها أنّه سيسأل عنها جيّدا والويل لها إن كان الكلام صحيحا وأقسم لها أنّه سيُدخلها قسم العنايات المركزة في المستشفى.

خرجت مسرعة من عنده وهي تبكي بحرقة ودخلت غرفتها... غيّر أنّ يارا كانت تغطّ في نوم عميق... ألقت سلوى بنفسها فوق سريرها ودموعها تنزل

على خديها، لا تدري أين تذهب بتفكيرها... لأنّها لم تزل ترتعش من أثر ذلك الكلام المفاجئ...

لكنها زرعت في وجهها ضحكة بل ابتسامة لطيفة... ابتسامة حنان... وقالت في نفسها وهي تفكّر في حبيبها إيهاب «أحسنت يا إيهاب... أحسنت... فقد أصبحت تجلب لي الضرب والمذلة والعار»... واصلت ضحكها كأنّها مستمتعة لأنّها تعرف إيهاب جيّدا... تعرف براءته... تعرف عفته... تعرف شهامته... تحبّه وتعشقه حتى الثمالة... رأت وجهه أمامها فأقبلت تخبره بما حدث... فتراه يهزأ بها ويضحك عليها... نست ما جرى وغرقت في ضحكة قلب وسرور نفس لا يعرفها إلّا العشاق عند ذكر الحبيب!.

* * *

كانت سلوى في فراشها تحاول أن تنام مع صورة إيهاب... أمّا إيهاب فقد كان لا يزال ساهرا خارج البيت ففصل الصيف يستعد للدخول وحرارة الجوّ تُبعد عن أعين معظم الشّباب النّوم إلى ما بعد منتصف الليل... كان هو وفادي وبعض الرّفقة... حين أتى حازم يسأل... أين كنتم لم يكن لديّ رصيد في الهاتف... كنت أبحث عنكم... لديّ أخبار رائعة لكما يا إيهاب وفادي عند انفرادنا سأخبركما... قالها وهو يضحك.

لم يلبثا إلّا أن انفردوا وذهب بقيّة الشّلة إلى منازلهم...

سأل إيهاب حازم: ما الجديد!... ما الأمر المهم الذي كنت ستخبرنا به!

خفّض حازم صوته وقال لصاحبه: لقد أتاني محمد أخو سلوى يسألني إن كانت الأخبار التي سمعها عن أخته صحيحة...

تفاجأ إيهاب وسأله في حيرة: أيّة أخبار؟ .

ضحك حازم وأجابه مستهزئا: يقول لي أن أحدهم أخبره أنّه رأى سلوى مع أحدهم على شاطئ جاندارك.

صدم إيهاب وعلق فادي: مستحيل... .

ثم أضاف فادي: إذا في الأخير ظهر أنّها عاهرة... ويا ترى من هو هذا صاحبها؟.

أضاف حازم: مبارك عليه يا ابن عمي... مبروك عليه كلّ تلك الأنوثة الصارخة... تلك الشّفاه... تلك العيون... ذلك القوام الرّشيق... آه ذلك القوام آه آه... وأضاف... وأنا أقول في نفسي لمن كلّ ذلك الجمال الذي أصبحت تحرص على إبراز مفاتنه... أصبحت يا عمي تلبس الضيق بذلك الخصر الدّقيق والحوض الواسع... تقتل من يمعن النّظر فيها... أموت وأعرف من هذا المحظوظ.

صحا إيهاب من صدمته وأمسك فادي عن قوله المثني لكلام حازم... أنّها عاهرة... وقال لهما مدافعا عنها:

المثقف

ألا تعرفان أنّها أكبر خجولة رأيتها في حياتي... عن أيّة عاهرة تتحدّث... وعمن تتحدّث أنّه يصاحبها ويخرج معها... لقد كنت أنا الذي أخذها إلى هناك... ولا يذهب بالكم بعيدا... فأنتم تعرفوننا جيّدا أنني أعُدّها كأختي الصغيرة...

قال لهم ذلك وهو يتألم داخليا... لأنّه لا يملك الحق الذي يجعله يرد عليهم بقوة عن كلّ تلك الكلمات القبيحة التي قالوها عن سلوى... تمنّى حينها لو كان أخا لها أو أحد أقرب أقربائها لكي ينال منهم كما نالوا من شرف سلوى بكلامهم... ولكن علاقته العاديّة كأي صديق دراسة لم تكن تشفع له... وهو حتى لم يصارحها بحبّه... لكي يُعرف حبّهما كأي عاشقين ويُسكِت كلّ مُتكلّم إلّا من أراد المشاكل لنفسه...

ولكن الوضع زاد تأزما أكثر فأكثر... فالأمر الذي أغمّه وأحزنه فعلا وصدمه هو ما الذي يمكن أن يفعله محمد لسلوى في هذه الأثناء... عضّ على شفتيه

وتأوّه لعدم حضوره للدفاع عنها... ضد أخيها محمد... أصبح شبه متأكّد أنّه يحبّها أكثر من أيّ أحد في الأرض.

-كلّ هذه الأحاسيس كانت تتصارع داخل إيهاب المسكين... فيما أخذ حازم في الضحك الأشبه بالهستيري على الموقف وهما لا يصدقان أين وصلت الأوضاع.

-واستهزئ به حازم قائلا: ستدمّر حياتها بفعلتك... وهو لا يعلم ما يعصف داخل إيهاب...

أجابه إيهاب... وما الذي فعلته أنا !؟... كنت لها الأخ الثاني... ومحمد يعلم جيّدا أنني لست أنا الذي أفعل أفعالا تنقص من رجولتي... تعرفونني رجلا ولا أفعل ما أخجل منه... أختي ووضعتها فوق رأسي.

أعقب بعده حازم الحديث: المهم مرة أخرى احسبها جيّدا ولا تضُر الفتاة معك.

المثقف

غرق إيهاب في تفكيره... واستأذن الشّلة لكي يرجع إلى المنزل.

* * *

كانت السّاعة الواحدة صباحا عند وصوله للبيت... غسل رجليه وألقى نفسه فوق سريره في الظلمة محتارا ماذا يفعل؟... كان باسم أخاه الأكبر رافعا مع زوجته صوت التلفزيون أمّا نسيم أخاه الأوسط كان غارقا على ما يبدو في نومه في غرفته... بعد تعب عمل يومه في مصنع الآجر.

أخذ إيهاب هاتفه في يديه... لم يصبر حتى الصباح... أراد أن يطمئن على سلوى... لم يجدها على المسنجر... لم يُرد مهاتفتها ليلا ولم يكن متعودا على ذلك... لم يصبر... أحسّ بلهيبٍ يحرقُ قلبه لم ينطفئ إلّا بعد أن كتب لها في المسنجر.

* * *

-في الصباح نهضت سلوى صحوتها الأولى من النّوم على السّاعة الرّابعة فجرا... وكانت متعودة على صحوة خفيفة فجرا... وبعدها تعيد النّوم مباشرة إلى أن يوقظها رنين منبه الهاتف أو إلى أن تشرق الشّمس إذا لم يكن لديها موعد دراسة أو كانت في عطلة نهاية الأسبوع... المهم أنّها عند استفاقتها نظرت ونفس لهيب إيهاب كان يحرق جوفها لأنّها أحسّت أنّها محتاجة لإيهاب في تلك اللحظة.

تفاجأت برسالته «آسف... آسف جدًّا لأنني كنت السّبب في مشكلتك مع أهلك» لا أدري ما الذي عليّ أن أعمله لكي أُصلح خطئي... أنت أغلى عندي من أيّ مخلوق... أرجو أن تسامحيني».

-صُدِمتْ لرسالته وزرعت في وجهها ألف علامة تعجّب... وسألت نفسها: كيف يعقل أنّه عَلِم بالموضوع !؟...

كتبت له: من أخبرك!؟.

رنّ هاتفه عند وصول الرّسالة... سمعه في نومه... فرح كثيرا لأنّه أحسّ أنّها هي... حمل الهاتف وأجابها: أخوك محمد سأل حازم إن كان الأمر صحيحا... إذا كان لك عشيقا... أنكر حازم ذلك تماما وقال له أنك أمام أعيننا دائما... وهذا الأمر كذب، أو لعلّ الشّخص شبّه بك فقط.

ارتاحت سلوى قليلا....

أردف إيهاب القول: لكن أخبريني يا سلوى...

ماذا أخبرك؟

كتب إيهاب مستهزئا: أجيبيني بصراحة... هل لديك عشيق حقا؟.

اغتاظت قليلا وكتبت: أظنّ أنّني سأخرج مع أحدهم... هل لديك مانع؟

ضحك لا أبدا... ولكن أتمنّى أن يملأ الله حياتك بالهناء والسعادة وأن يستطيع هذا المغفل أن يسعدك.

مغفل !؟؟.

استمر استهزاء نعم مغفل ومن يقبل بمجنونة مثلك!

ضحكت يعيشك... شكرا جزيلا.

ضحك لا شكر على واجب... أتمنّى أن أسعدك.

فرحت سلوى بكتابته... فتنها الكلام الضمني كثيرا.

كتب لها: متى تأتين للإقامة؟

ردّت لماذا؟؟.

تعالي غدا بالسبت... يوجد مكان آخذك إليه... أقسم أنّه سيعجبك كثيرا.

أظنّ أنّني سآتي... وهل المكان جميل؟

كتب إيهاب فرحا: سوف يصيبك بالجنون.

أظنّ ذلك فعلا... فسوف تتسبّب لي بالجنون... فأنا لن آتي للخروج بل سآتي حاملة معي سكينة لأذبحك بها... ألم تفهم بعد!

ضحك إيهاب كثيرا: والله إني قلت الأمر مازحا... ولكنك خطيرة جدا... جعلتني أفرح فعلا... ظننت الأمر أعجبك فعلا... أظنّ أنّك مسؤولة الآن عن تخييب ظنّي... لأني لست على ما يرام الآن.

مُت أو اشنق نفسك... هل تريد لمحمد أن يدخلني المستشفى.

آآه... نسيت اعذريني... لم أسألك ما الذي فعله معك؟

لا شيء... لكنّه أخافني فعلا... وكان غاضبا جدا... ولا أدري كيف سأرى في وجهه بعد الآن... ما الذي تسبّبت لي به يا إيهاب!!.

إيهاب متحسرا: أنا آسف... أنا أيضا مثل أخوك.

وأكثر... شكرا.

نهضتِ باكرا...

عادتي... لكني أريد أن أرجع للنوم.

آآآ... اعذريني إذا... أحلام سعيدة.

حدّثت سلوى نفسها: «نعم بعد أن حدّثتك سأنام فرحانة»... وكتبت له: شكرا وأنت كذلك ارجع للنوم.

- وأين سأذهب إنّها الجمعة... وأنت تعرفين الجمعة عندنا... بأيّ سلوى... باي.

-أمسك إيهاب بالهاتف بين أحضانه من كثرة الفرحة... وغطى نفسه ونام نوما سعيدا... كأنّه سكران... كأنّه أمٌّ تحتضن وليدها.

* * *

يوم الأحد... أتت سلوى كعادتها إلى إيهاب مثل العادة... كأنّها روح تأتي إلى جسدها... لا تنزل السّكينة على وجدانها إلّا عند لقياه والاقتراب منه والتسليم عليه... كانا يسلمان بالمصافحة...

بالغ من دون وعي إيهاب في مسك يدها... وسألها: كيف حالك...

ابتسمت خجولة كأنّها لا تريد الحديث في الموضوع... وأجابته: بخير الحمد لله...

قال لها والضحكة تغلبه: هيا بنا إلى البحر...

ضحكت قائلة: لم أكن أنوي أن أقول لك على أمر أخي...

سأل إيهاب حائرا: لماذا؟...

أجابته لأنّه أمر عادي... فهو دائما ما يحذّرني منذ أن وعيت على الدّنيا... منذ دراستي في المتوسطة.

استدرك إيهاب قائلا: طبعا... فهو أخوك... كم تمنيت لو كنت أخاك لكي يكون لخوفي عليك أساس... ويكون لي الحق لكي أعنّفك إن أنت أخطأت في تصرفاتك...

غضبت سلوى منه: وأجابته... أنا متربيّة أحسن تربيّة... ولست بحاجة لمن

يؤدّبني ويعلّمني أين هو الصالح من الطالح...

انصدم ولم يدرك ما أوقع نفسه فيه... ولكنّه يدرك أن نيته شريفة ومصدرها حبّه الزائد في قلبه... ولكنّه لم يحسن التعبير فقط... فاعتذر من سلوى لأنّه أحسّ بكُرهها للحراسة المشدّدة على أخلاقها... كُرهها الذي تشاركها فيه كلّ البنات.

أومأت له سلوى بقبولها اعتذاره على مضض... لكنّه تمادى في الاعتذار وحاول احتضانها لإرضائها... أطبق فِعله على أنفاسها... تجمّدت في مكانها مصدومة... وبعدها أفاقت وحاولت الخروج من بين ذراعيه... مُعلنة بصوت عالٍ أنّها خلاص، خلاص سامحته...

سارع بنزع يديه لا إراديا عند إحساسه برغبتها في إنهاء احتضانه لها... كان موقفا أكثر من رائع... احمرت فيه الوجنتان وخجلت العيون... كانت أوّل حضن دافئ... أوّل مرة يضع يديه عليها... أوّل مرة تقترب من قلبه كلّ هذا الاقتراب... أوّل مرة يقترب القلبان لبعضهما... كانت لحظة خاطفة لكنّها لم تمر مرور الكرام... أحسّا بأنفاس بعضهما... أحسّا بحرارة بعضهما... شمّا رائحة بعضهما... عرفا رائحة بعضهما المميّزة عن سائر أبناء البشر.

كانت رغبة دفينة في كليهما لو طال ذلك الحضن... لكن ما دفع جسدها للانتفاض بين ذراعيه كان إيهاب يفهمه جيّدا... كان خليطا من أحاسيس متراكمة... كانت نظرة النّاس القريبة تلعب فيها دورا... كانت نظرة إيهاب حتّى... نعم نظرة إيهاب إليها تلعب فيها أيضا قسما... تربيتها ورفضها لمثل هذه الأفعال... وغيرها من مئة سبب أثّرت فيها وفي قرارها... كان إيهاب يشجعها ويعشقها لذلك... لكن رغبة العشق كانت تملأ قلبه طبعا... فلو كان الأمر بيده لاحتضنها منذ أن نزل حبّها على قلبه كالصاعقة... يلتصق ولا يفارقها أبدا... يذوب فيها حتى يصير الجسدان جسدا واحدا... والرّوحان روحا

واحدة... حتى لا يُفرق بين نفسه وبينها... ولكنه يشجّع فيها امتثالها لمبادئها ومشيها إلى جانب سور العفة والطهارة والاحتماء به من كلّ دنيء سوء وخُبث مطمع.

ثم ما لبثت أن جاءت شيرين... اضطرت سلوى إلى تغيير نبرة حديثها... حتى إيهاب فعل ذلك... كانا كالآلتين يستمدان الأوامر من نبضة مغناطيسيّة واحدة... صادرة من عقل واحد... يستجيبان لأوامر عَقْلَيْ بعضهما في نفس الوقت... لا أدري بما يوصف هذا الأمر لكن أظنّ المعبّرين وصفوه بتوافق الأرواح وتناغمها... وهو أوّل قطرات غيث العشق ولُبّه.

انتقلا مع وصول شيرين إلى حديث آخر... كأنّهما يدسّان على العالم أجمع سر مكتوم... سر دفين حتى على أعزّ الأصدقاء... مكتوم حتى على نفسيهما... فلم تبلغ بهما الجرأة بعد على المصارحة... لكن رغم ذلك فإن ما يجري بينهما أوضح حتى ممّا يجري بين العشاق المتصارحين...

كانت مشاعر جياشة تغمرهما... حتى أن أحدهما حين يستغرق في وصف محادثة أو مشاعر تجاه الآخر أمام الشّلة... ويلعب حينها العشق دورا في إعماء بصره وبصيرته ويذهب باسترساله إلى حد تبيان بعض مظاهر العشق في كلامه وأفعاله... فكان يتلقّى ضربة على القدم أو صدمة على الكتف... أو مقاطعة حادة أو أيّ شيء من الطرف الآخر... المهم في الأمر هو حثّه على الاستفاقة ليمسك نفسه... كلّ هذا وأكثر ولا توجد أيّة مصارحة بحبّ وعشق بينهما !!... عشقهما رائع ومضحك.

* * *

كانت الشّمس محرقة... شمس يوم ربيعيّ... كان العشيقان وشيرين وحازم مجتمعين في مكان عام وسط الجامعة... استأذن حازم للذهاب للدراسة... بعدها استأذنت شيرين للذهاب إلى مقهى الجامعة للإتيان بما يطفئ لهيب

حلقها... أحسّت سلوى حينها بالارتباك عند انفرادها مع إيهاب... فجرح ذلك إيهاب... كانت كأنّها تخشى أن يروها منفردة معه وسط كلّ تلك العيون... لم يعرف إيهاب ماذا يفعل بالضبط... كان الأمر كغرزة خنجر صغير في قلبه الصغير... الذي لا يتحمل... وكيف يحتملها وهو الذي نصّب نفسه كأكبر حام لها يفديها بنفسه... يخاف عليها من نسمة الهواء... يحميها حتى من نفسه... مستعد لقطع يده إن هي امتدت عليها... يحميها من كلّ النّاس... والآن تخاف هي أن يراها كلّ النّاس معه.

تحرك بسرعة بعد أن لاحظ ارتباكها قد زاد... وقال لها: هيا بنا نلحق شيرين... فرحت داخليا ومشت وراءه... لم يجد لتصرفها تنازلا ومغفرة في قلبه... وكيف لا وهو يحمل لها كلّ ذلك الإخلاص.

تحسّر لذلك فهذه شيرين مثلا ورغم غلطتها إلّا أنّها كانت تَعُدّه أسدها الجامح... معه تُحِس بأنها مع أخيها وحامي حِماها وتفتخر معه أيمُا افتخار بوجوده بجانبها أمام الجميع.

لم يكن سهلا عليه أن يمرّر مثل هذا التصرف... فقد حَكمت على علاقتهما وعقّدت الأمر عليه كثيرا... لكن الوقت كان قد فات... وأصبحت الأمور في حكم هيهات... وقُبض عليه ورُمي به بين قضبان رموشها سجنا له... سجنا اختياريًّا لا مفر منه... داءه ودواءه... نعم لقد فات الوقت على الامتعاض وعدم القبول... فات الوقت على ردّة فعل دفاعا عن قلبه... فات الوقت لأنّه كان قد سلّم قلبه كاملا... قدمه لها عن طيب خاطر.

لم تخف سلوى منه بل خافت من أعين وألسنة الطلبة... كان لِما حدث مع محمد أخيها... وكلام نجوى شريكتها في الغرفة سببا لتصرفها... كأنّها قرّرت أنّها لا تريد أن تظهر كمظهر العشيقة في أعين النّاس... ولو على حساب مشاعر إيهاب... ورَجَت منه أن يفهمها... إيهاب الذي أخذ عقله يذهب به إلى

احتمالات خطيرة على قلبه... ظنّ أنّ انحرافه السّابق كان سببا قد جعل سلوى تخشى أن يراها النّاس معه على انفراد.

كان موقفها تستطيع أيّ فتاة تخاف على سمعتها لم يسبق لها أن عرّضت نفسها لأيّ شبهة أن تفعله... ورغم خوفها الذي بدأ يظهر من أيّة إشاعة عليها... لم تستطع أن تُوقِف حبّها الجارف تجاه إيهاب... لم تستطع أن تبتعد عن مكان أمانها كثيرا... إن هي سنحت لها الفرصة لاقترابها منه من دون أيّ إحراج أو رقيب.

كانت الفتيات المزعجات اللاتي يعشن معها في الإقامة... سببا كبيرا لاتخاذها مثل هذه القواعد مع إيهاب... كانوا لا يملّون استفزازها وتعييرها مباشرة «بإيهاب حبيبي... إيهاب الفاتن»... لكثرة ما رأوهما منفردين بقرب مكان الدّراسة... لم يصدقن أنّه لا يوجد شيء بينهما... وعند أوّل فرصة يرونها تفكّر بعيدا سارحة... كنّ يفاجئنها... ويسألنها هل تفكّرين في إيهاب... كان استفزازها سببا للمتعة عندهن.

* * *

فكّر إيهاب كثيرا وبحزن لكي يخرج بفكرة يعذر بها سلوى... لأنّ قلبه أراد ذلك... أخيرا ولأن الأمر تكرّر مرة أخرى... نهضت وفجأة كرامة إيهاب... وصار لا يتوق إلى وجودها... ظهر برود في كلامه... أصبح ملازما لشيرين... والأهم من ذلك أصبح يشترط وجود شيرين أينما وُجد وليس العكس... وكل هذا لم يكن لِنقصان عشق وذهاب حبّ... بل على العكس نستطيع أن نسميه كبرياء عاشق... كان يفسر الأمر من جهة أنّها وعند تأكّدها يعني سلوى التام من عشقه وهيامه لها وعدم مقدرته التامة على فراقها... بدأت تتقلش من اللهجة الجزائريّة وتعني تتدلل لأنّها أيقنت أنّها ملكت القلوب... وصار كالخاتم في إصبعها.

مستجدات الأحداث أجبرت إيهاب على إنقاص شغفه على سلوى... اضطرته لبعث حبّه إلى أعمق مكان في قلبه... لم يُرد له أن يَظهر عظيما... لأنّ هذا الحبّ أصبح مزعجا للطرف الآخر... أو لم يصل لدرجة الإزعاج بعد... لكنّها لم تعد تقدس أو تعتبر ملاقاته في غير ساعات الدّراسة على أنّها فرصة لا تعوّض... أصبحت تُفرّط في هذه الفرص بسهولة... بسهولة تنزل لغرفتها وتتركه... بسهولة تتركه مع شيرين... دون أيّ علامات... بسهولة وحتى أنّها تتذمّر لو أن أحدا ألحّ عليها بالبقاء.

أصبحت تقدس دراستها... وكانت الامتحانات الأخيرة قد شارفت على البدايّة وهلّ هلالها... اتخذتها فرصة... فرصة لزيادة انسحابها.

لم تبدأ فجأة هذه اللامبالاة بوجوده... فقد بدأت وكأنها متوتّرة في جلستها ويستمر انزعاجها إلى حين وقوفها واستئذانها تاركة مجلسهما هو وشيرين...

وبعدها ورغم اندفاعه نحوها الذي لم يأفل لهيبه بعد... أصبحت كالدافن لأمر يجرحها في قلبها... تلقاه بمودة وإيخاء كعادتها حريصة على عدم جرح مشاعره أو السّماح له بأن يحسّ بشيء... لذلك كانت عند التقائه تحرص على الإتيان به إلى مجلس شيرين أو إحضار شيرين إلى مجلسهما... وبعدها ومن دون أن يَحُسا تفتعل سببا لترك المجلس والذهاب إلى غرفتها... كأنّها تُسلّمه إلى شيرين وتذهب مريرة القلب.

مع تسابق الأيّام لم يعد يغتاظ إيهاب من فقد سلوى قليلا... بل وجد أن كان لها في قلبه سبق رحمة لحاله... فهي من ركض لمداواة جرحه الأول مع شيرين... لم تتركه حتى أخذت بيده إلى أرض أكثر سعادة من سعادته الأولى معها... فهو يذكر لها جيّدا حين دخولها خط المعركة بينه وبين شيرين كانت لإشعارها بالغيرة كما فعلت هي به... لم تكن تطمع فيه رغم إعجابها الظاهر به وفتنتها به التي لا تكاد معها أن ترفع عينيها عنه وعن كلامه... لم تُظهر

رغبة يوما أن تكون المرغوبة لديه... لم ترغب أو على الأقل لم يكن لرغبتها بَيان في تصرفاتها.

كلّ تصرفاتها غايتها واحدة عندها... هي إرضاؤه... فعند هبوب ريحٍ على وِدّه الذي كان ظاهرا لشيرين انضمت مدافعة سلوى لحزب إيهاب... تبغي نصرته في حربه مع شيرين... ظنّت أنّه لن يطول الأمر ويتصالحا... لم تظنّ أنّ الجرح ليس جرحا بل هو معارضة مبدأ أو عدم احترام أهم الخصال... كرفض منتج لأنّه لم يستوفِ أهم شروطك... وليكن مقاسك مثلا... رغم اجتماع جميع الصفات المحببة الأخرى كتماثل المزاج والرؤيّة من زاويّة واحدة.

لم تكن سلوى معوّضة لشيرين فقط... فحبّها لم يُخلق بين ليلة وضحاها في قلب إيهاب... بل كبر مرادفا مستترا مع حبّ شيرين... وعند إخلال شيرين لشروط عقدها مع إيهاب أعلنت توقّف عجلة حبّه نحوها... فيما استمرت عجلة حبّه لسلوى بالدوران... وكأنما أخذ لها من حبّ شيرين في قلبه ووهبها إياه... وهبها الاهتمام الدّائم والرغبة الجامحة في دوام قربها اللتان كانتا من حظ شيرين... رغم إعجابه الذي يحاول كتمه ودفنه من أوائل أيّامهم بسلوى وروح سلوى وعيونها.

رأى إيهاب خصلة منه... خصلة من حبّه في حبّ سلوى... رأى تضحيتها بحبّها من أجل أن يَلقى الذي أحبّته... الحبّ من غيرها إن أراد... أو لعلها عند معرفتها جيّدا بإيهاب وانطلاقها اتجاهه كان وده واستلطافه ظاهرا لشيرين... أو لعلّ انطلاق شيرين نحوه هو السّبب في فتح الباب أمامها متجاوزة خجلها يوما بعد يوم...

لعل هذا ما كان السّبب في إدلاء دلوها في جب القناعة في بادئ الأمر، لا السّعي وراء الرّيادة... لكن ما الذي يقوى المحبّ الولهان على فعله عندما يحسّ بمبادلة حبيبه نفس المشاعر... نفس رغبته في القرب... من يستطيع

ألا ينهزم أمام هذه الفرصة خصوصا أنّها تراه من يستحق فعلا حبّها... فرغم اهتمامه السّابق الأقوى بشيرين... كانت تُحسّسه باهتمامها ولا تجرحه أبدا ولا تُثقل كاهله بالغيرة التي تُحيّره...

كالعالمة بأبجديات العشق... لا يحزن لها طرف أبدا... ناهيك عن بذله وعطائه عند مقدرته وسعيه الدّائم لخيرها ومصالحها... ما ولّد عندها عرفان بالجميل ومعاملة بالمثل في كلّ الأوقات... فكانا يتعارضان بعض الأحيان لأنّ كلا منهما يسعى لإرضاء الآخر ولمصلحته وإن كان ذلك ضد رغبته.

كلّ هذه المشاعر السّابقة كانت كأنّها تمرين لهما على إخفاء مشاعرهما عن الآخر مهما كانت الظروف... المهم والأهم لديهما كان رضى الطرف الآخر... ما ولّد عندهما نوعا من إتقان للتمثيل المسرحي على الآخر كي يشعر دائما أنّه راض عنه... لم تحسّ سلوى أنّه يرغب في دوام قربها وأنه مجروح من فقدها إلى جانبه... ولم يحسّ هو ما الذي جرى لها... ما دفعها نحو ضياع بعض الرّغبة في جواره.

لكنّ مشاعر سلوى ما فتئت تتغير... ما كان يحسه إيهاب هو أن لسقوطه غير المعلن في بحر هواها أيقظ في قلبها إحساسا لم يكن يعرفه من قبل... أنبت لها حبّه الفائق وحرصه عليها شيئا من الغرور المختلط... أصبحت ساعيّة بحبّ لتملكه وحرمان كلّ من له رغبة فيه من صحبته... كانت المعنيّة شيرين... لكن لا تكف أن ترحم وتعطف إلى درجة أن تتركه معها كاملا وتذهب من أمامهما... لغرفة أحزانها... لأنّ عدم رضاها بوجود أخرى والبعد القصري عن الحبيب أضحا يؤلمانها... أصبحت لا تقوى على المشاركة.

كان هذا الإحساس الذي باغته... وسكن فكره وجعل من كثرة معاينته لتصرفاتها استدلالا له على صدق إحساسه... فأحسّ الإيثار فيها... زاد وهج حبّه لها وعظم تقديسه لها... لأنّها رغم جرحها لوجود منافس على قلب

حبيبها... تضحي بطيب خاطر ومن دون أن تبدي أبسط شعور... وتذهب إرضاء للطّرف الثالث الذي كان الصديقة المميّزة والأخت والشّريكة في بداية الحبّ الطفوليّ الذي جمعهما كأنّهما توأمين... جمعهما كأنّهما وردتين على ساق واحدة... كان إيهاب ساق حبّهما.

بدا لشيرين فرحها... كأنّها استبشرت خيرا باسترجاع إيهاب... كأنّها كانت يائسة من عودة شغفه تجاهها... بدت للعيان رغبتها لغياب سلوى عن مجلسهما... لأنّها لم تُطل الزمن وعاودت نادمة لحضن حبّ إيهاب غير المعلن... المعطي بلا رغبة في الأخذ...

حبّه المميّز الذي جعل «التضحيّة من أجل إرضاء الحبيب» شعارا له... ما جعله ينسى أو يتغاضى عن غلطات سلوى الجارحة... جعله حبّه يحسّ بأنه لا يملك حتى الحق في الغضب منها... جعله يبحث لها دائما عن حسن ظنّ لنواياها حين أخطائها... كان يُغَلّب حسن النّيّة دائما لِما كان قد عرفه من خصالها.

غيّر أنّه لا ينكر أنّه في بعض الأحيان راودته فكرة إثارة غيرتها بصديقتها شيرين... غيّر أنّ سلوى لمّحت له أن صديقه فادي مميّز ويعجبها - إعجاب عادي كإطراء فقط - نظر إليها إيهاب حينها وضحك... وعلّق ضاحكا: ها قد بدأنا إذن اللعب القذر... أنا الصراحة مستسلم... لا أقوى عليه يا شيرين.

قد كانت شيرين الوسيطة بينهما في الحديث... يوجّه كلّ منهما الحديث إليها... ولكن المقصود بالكلام واضح... فضحك الكلّ... وأومأت سلوى لشيرين بأنها الأقوى وبأن عليها أن تفتح عينيها جيّدا إذا... ضحك إيهاب وأردف قائلا: حاضر يا شيرين تُبنا.

اقتربت الامتحانات رويدا رويدا... خوف والتزام سلوى بدراستها حسمَ الأمر... كانت متفوقة وذكيّة وتُنسيها الامتحانات أيّة التزامات أخرى... قرّرتْ

النّزول للبيت للمراجعة في جوّ يلائمها... لأنّ جوّ الإقامة مع ارتفاع الحرارة بدأ يقلّل راحتها...

نزل الخبر كالصاعقة على سمع إيهاب... لم يصدّق ما سمعه... كيف أمكنها أن تسمح لنفسها بالابتعاد عنه أسبوعا كاملا!؟... أيقن إيهاب مع شعوره ذلك أن حاله تدهور وأن حبّ سلوى بالنسبة إليه هو موضوع حياته وسبب وجوده وتنفسه... تدور حوله في أفلاك كلّ أحداث حياته بصفة ثانويّة... يستطيع أن يجعل كلّ شيء متوافق مع حبّه بحيث لا يمس عشقه أو مدى علاقته بسلوى بأيّ أذى... أمّا هي فعلى الأقل لم يستطع حبّها السّيطرة كليا عليها بعد... لم تصل حيث درجة حبّ إيهاب... وتمنّى أن تكون سلوى مماثلة له.

ولكنّه يتمنّى لها أيضا الأفضل ويحبّ الذكاء فيها وومضة وبريق النّباهة في عينيها عند فهمها للتمارين الرّياضيّة والفيزيائيّة المعقّدة... يحبّ لها النّجاح وبتفوق وكان هذا طبعها... تمنّى لها السّيادة على قائمة النّاجحين... ولكن كان يتدلّل ليحصل حبّه على امتيازات وسط أيّام الامتحانات المزدحمة بالدراسة... امتيازات اهتمام لا أكثر ولا أقل.

* * *

الدرجة الخامسة
لا يعرف الشوق إلا من
يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيها

لا يعرف الشّوق إلّا من يكابده
ولا الصبابة إلّا من يعانيها

دقّ قلبه بسرعة... ولا يكاد يصبر ساعة في مكانه... غيابها أخذ معه الرّاحة... أخذ العقل... أخذ الانتباه لما هو موجود أمامه... أخذ اهتمامه بحياته... لم يهضم عقله فكرة غيابها أسبوعا بلا سبب... أكل التفكير فيها خلايا عقله... كاد يُجنّ، لم يتمالك نفسه... لم يستطع إكمال أسبوعه... الكآبة خنقته... ذهبت حلاوة كلّ شيء... مات قلبه... لم يعد يحسّ بوقته، أثّرت فيه كثيرا... قرّر إنهاء أسبوعه يوم الثلاثاء... ذهب إلى بيته لعله يقترب منها... لعلّ قلبه يقترب من قلبها فيهدأ... وفعلا وجد الرّاحة في مدينته لأنّها فيها... لعله مجال

قلب المعشوق... أمور لا يعرفها إلّا قلب هائم... فلسفة لا يتقنها إلّا من وهب قلبه.

يبيت ليلة معها بقلبه... هي كلّ المراد... يُطفأ ضوء غرفته وينام في سريره ولهيب الشّوق يحرق قلبه... يحثّه القلب على وصل الحبيب... لم يستطع الفؤاد مواصلة كتم عشقه... ابتعادها بلا مبالاة لأسبوع كان سبب هلع للقلب من خسران الحبيبة... قرّر مصارحتها لتفهم مقدار قيمتها عنده... قرّر مصارحتها ليريحها ويرتاح... قرّر مصارحتها بحبّ مزّق أحشائه.

أمسك الهاتف وهو خائفٌ كأنّه سيفعل جريمة... فرِحٌ كأنّه سيدخل على عروسته... مرتبكٌ كأنّها لحظة إجراء أهم امتحان في حياته.

ارتعدت فرائصه... واختلطت مشاعره... غطّى وجهه وقلّب جسمه جهة الحائط كأنّه سيكتب أهم الأسرار... فتح هاتفه على رقمها وكتب كلمات يُحسّها وتُحسّها... كلمات تخرج من قلبه كالجمر... كتب لها اعترافا وإعلان استسلام... كلمات كانت مكتوبة تدفع نفسها يوميًّا إلى حلقه ليقولها لكنّ شجاعته كانت الخائن الأكبر.

كتب لها بإحساس أحن من الأمّ على رضيعها... حنانا على أرهف وأرقّ شيء في الوجود.

كتب كلمة صرخ دائما قلبه بها ولكن لم تنبت بها شفتيه.

كتب لحبّه:

كتب لها ذلك لأنّ قلب العاشق دليله... لأنّ إحساسه لمن يكن ليخنه... لأنّه أحسّ أن الحبّ قد عَظُمَ بينهما وكَبُر شأنه... وصار مخيفا لها... فاختلطت عليها الأمور لأنّها وبالرغم من أنّها تبادله نفس المشاعر إلّا أنّها لا تُفضّل لهذا الحبّ أن يظهر للعيان ويفضحها، ولا تُفضّل أن تظهر مشاعر حبيبها تجاهها أيضا أمام مرأى الرّقيب... وهذا مالم يستطع هو السّيطرة عليه... فأربكها

الموقف اليوميّ... أربكها هذا الحبّ الملتهب.

لهذا أَحسّ أن حبّهما أصبح مشكلة بينهما وكتب لها أنّه لا يملك حلا له... وأعلن لها أخيرا أنّه لن يستسلم وسيحبّها رغما عنها... لأنّه أحسّها كشيء في جوفه... أحسّ نفسه يحتويها بكلّ ما فيها... أحسّ نفسه يمتلكها وليس لها أيّ أمر ولا نهي على نفسها... أحسّها جزءا منه، فلا رأي لها لأنّ الحبّ كان قد غمر وأغرق قلبه.

كتب كلماته البسيطة من كلّ قلبه... كأنّه لم يفرح كلّ حياته هكذا فرحة... كانت السّاعة الثانية بعد منتصف الليل... لم يسمح عذاب الشّوق لقلبه بالنوم وكيف ينام وجريمة ابتعادها عنه لم يُصَفّ حِسابها بعد... بعث بتلك الرّسالة لهاتفها وأمسك هاتفه بقوة يحكه على صدره مغمض العينين... يضم رجليه إلى صدره تحت غطائه... كأنّ لهب السّعادة نزل وأراد أن يجمع جسده كاملا داخل قوقعة هذا اللهب النّازل.

لم يلبث قلبه ثلاث دقائق إلّا وحدّثه بكلمات أخرى يجب أن تقال... كلمات أخرى يجب أن تصل إلى المحبوبة...

أمسك هاتفه ثانية وكتب: تزلزل قلبي... ويبكم لساني... وأُغيّر «

كتبها وكانت كتاباته تعبيرا عن الشّيء الذي لم يستطع أحد أن يكفه حقه، وكيف يستطيع أحد أن يكفي الحبّ حقه... فهو شيء لا تستطيع أن تقول إنك واقع فيه إلّا عندما تحسه بقلبك... وتعصف رياحه بأرجائك... فلا ترتاح ولا يهنئ لك بال... إلّا إن شاركك الحبيب أخبار قلبك ووجدانك... فمن النّاس من لا يجد صعوبة في البوح به ومنهم من يجبن ويتركه ليعظم في قلبه فتجعله الأيّام والحوادث جبلا من الحكايات والروايات عالقا بلا خروج... وكيف تخرج... ومن أين يبدأ الحكاية... حتى أن عظم العشق يجعل قرب الحبيب هو أسمى ما يتمناه المرء... فلا يفكّر بأيّ شيء قد يخلق ارتباكا أو

حالة غير مأمونة قد تساهم في إبعاد المحبوب... فيستمر بكتمان حبّه متناسيا البوح به... رغم إلحاح قلبه كلّ يوم.

أمسك كراسة أشعاره كاتبا معبّرا عن هذا الشّعور قائلا:

قُرْبُ الحبيب أولى من تنفسي
فكيف أرضى لنفسي لست مُقتربا
فهوى الحبيب قد امتلك كُلّ
الجوارح منّي لست مُعترضا
لك كلّ الحبّ، لست مُقتنعا
منك بالفصل بين الرّوح والجسد
فأنا أنت وكُلّك بعضي
فكيف يسبّب بعضي ببعضي مُبتعدا.

المثقف

أرسل الرّسالة الثانية... وأمسك الهاتف بين صدره ثانية كأنّه يُمسك الجمر يضمّه وفي عقله نشوة السّكارى... اجتمع في قلبه فرح الفارحين وسعادة السّعداء... يتقلّب في فراشه... ارتفعت حرارته ولا يبالي... كاد يذوب من لهب النّشوة... أسعده أمله... أسعده فرحه بانتظار ردّ الحبيبة... كان كلّ شيء مدبّرا مخططا له بعناية فائقة... كان اختياره لساعة متأخرة من الليل ليس اعتباطيا... كان خوفه وعدم درايته بالطريقة التي يمكن أن تردّ بها سلوى... ما دفعه للتفكير مليا... كأنّه أراد منها النّوم لكي ينعم هو أيضا بالنوم... النّوم على فراش السّعادة... أراد منها النّوم ليُلغّم هو هاتفها ليلا دون درايتها... ليبعث هو مرسال قلبه... كأنّه لا يريد أيضا أن يقتله الانتظار لردّها... فأراد أن يقوم بفعله وينام هنيئا ويترك أمر الردّ لسلوى حين استفاقتها صباحا...

لهذا ترك الدّنيا وسافر في أجمل الأحلام الورديّة... نام كنومة العروس في

مخدعها... لم يستفق إلّا ونور الشّمس يداعب نافذة غرفته... وزقزقة العصافير تدوي أرجاء المكان... فتح عينيه بصعوبة لسهره ليلته الماضيّة... أنزل يديه مباشرة لهاتفه ليرى ما استجد من أمر عشقه... كانت السّاعة تقارب العاشرة صباحا...

لم يجد شيئا... أزاح عينيه وفِكره بعيدا... رأى في عيونه صورة محبوبته... ظنّ أنّها لازالت نائمة... بدأ قلبه يزداد نبضا... لأنّها يمكن أن تكون قد صحت من نومها في هذا الوقت... كان يتخيّل سعادتها الفائقة حين قراءتها لرسائله... كان تخيّله نابعا من كونه وضع نفسه مكانها ورأى أن هذا أكبر شيء قد يتمناه من حبيبه... كلمات حبّ... كانت كلماته جزءا من فيض جنونه بها... فقد تمرد على صمته تجاه غيابها لحظة وقوع قلبه في غرامها... رأى أن غيابها لأيّام أظلمُ فراقٍ يمر على قلبه... تمحّن وتكدّر حتى عاد لا يرى من يُكلّمه... حتى حمل نفسه وعاد إلى بيته باحثا عن القرب إلى القلب... القرب إلى مركز حياته... اقترب فاحترق... نعم فقد اقترب بكلماته المعبّرة عن حبّه اقترابا منها لم يعهده من قبل... فأحرقه تماطل الرّد عن حروفه... لهذا ظهر وسيظهر أنّه سيلاقي سعيرا جَزاءَ جرأته هذه... فقد طال انتظاره ولم يفارق نظره هاتفه... كلّ دقيقة ودقيقتين يحمله ليرى «هل من جديد»...

طال الأمر عليه... بدأ الانتظار يَذهب بعقله... حاول الخروج لأصدقائه في المقهى... لكن لا فرق... لم يفارق الهاتف نظره... واضعا إياه فوق طاولة المقهى... نصف عقله مع أصدقائه وكلامهم ونصفه الآخر مع هاتفه... كاد يجن لأنّ وصول الرّسالة لا يحدث صوتا يُسمع... كان رنين الرّسالة خافتا... لهذا كاد يخفت قلبه المسكين وهو يتأكّد من هاتفه... من وصول تذكرة نجاته أو عدمها... جرب شيئا لم يكن قد خَبِره من قبل... لم يذق في حياته أمرا كهذا انتظار... حتى انتظار ظهور نتائج البكالوريا لم يكن طعمه بهذه

المرارة... لم يضطر في حياته أن ينظر لهاتفه كلّ دقائق يومه... كلّ دقيقة تمر كانت تجلب معها توتّرا وقلقا زيادة... كانت تُضاعف الحيرة وعدم الفهم لشعور الضفة الأخرى... عصفت الدّقائق بخياله...

لا يكاد يُفكّر ويظنّ في حالة محبوبته ظنّا... إلّا ويطرأ بباله ظنّ أخر... في غمرةٍ يجزم أنّها خجولة ولا تجد ما تكتب... ومرة يجزم أنّها متوتّرة ولا تعلم ما تأثير هذه الرّسالة على علاقتهما في الظاهر... أذهله ظنّه وأحسّ أن عدم ردّها مصيبة... كلّ دقيقة تمر ولا تردّ فيها تأزم الوضع أكثر عليه... فردّها يجب أن يصل... أحسّ كمن يريد أن يضرب رأسه في الحائط من كثرة النّدم... نعم النّدم... فهو لم يبعث بمثل تلك الرّسالة إلّا ليزيد الجوّ لطافة بينهما... ليُقرب بين قلبيهما... ليُصرّح عن مأمولٍ المصارحة به... ليجمع الشّمل بعد أن جرحه وعذّبه ظنّه فيها رغبتها بالابتعاد... ليشرع مدى حقه في الاقتراب... فإذا به باستمرار عنادها أو أيّ شيء كان شعورها... يذهب بجهوده سدى ويُدخله في توتّر وخوف عميق جدًّا لدرجة الرّعب...

نعم لقد أصبح مُرتعبا ممّا سيأتي لأنّه مستغرق في « كيف سيعاود الوقوف أمامها مرة أخرى « وهو لم يفهم ما يخالجها من شعور... هذا ما صعّب عليه الانتظار... فأصبح ليس يريد شيئا غيّر أنّ تَرجع المياه لمجاريها كما كانت قبل غلطته... نعم غلطته لأنّه أصبح يراها غلطة... لعدم ورود أيّ شيء أصبح يراها كارثة... كارثة خسران سلوى.

كانت حروف اسمها ترن في دماغه كأحلى سيمفونيات موزارد وبيتهوفن... كيف يعمل؟ وما العمل؟... سلوى... سلوى... ينادي عليها فوق فراشه فاقدا الأمل.

-لم يستطع السّهر طويلا خارج البيت... توتّر حاله كثيرا... حتى أن أصدقاءه المقرّبين كانوا في الجامعة... دخل إلى بيته على السّاعة التاسعة... ولازال

يُحدّق كلّ دقيقة إلى شاشة هاتفه... وُضع له الأكل ولكنّه كان فاقدا للشهيّة... فلم يسهل لنفسه اشتهاء شيء غير علبة الياغورت وحبة موز... أكلها بسرعة حتى يتخلص من هذا العشاء... فليس الجوع ما يُقلقه... أكلها ليتخلص من تأنيب داخلي يحثّه على القيام بواجبه تجاه جسمه لا غير.

عصف الليل بقلقه... لم يجد بُدّا إلّا معاودة الخروج... خرج ليجلب كوب القهوة من المقهى قبل إغلاقها... لأنّه أيقن أن ليلته ستكون طويلة ولن يكون مع هذه السّلوى نوم... جلب القهوة ساخنة وسحب سيجارة من علبة السّجائر، كان يدمن نوعا محببا من السّجائر جزائريّ الصنع يدعى «ريم» نسبة إلى غزال الرّيم الذي يعيش في الصحراء الجزائريّة... لطالما تغنّى به شيوخ الغناء الشّعبي الجزائريّ بجمال وفتنة عيونه الفائقة...

سحب سيجارة وانتبه أنّها ما قبل الأخيرة... ذُهِلَ لذلك لأنّه كان قد اشتراها في صباح هذا اليوم فقط... لم يكن كثير التدخين... قلقه الرّهيب ورغبته في الوحدة ليفكّر في أمرها هو الذي دفعه إلى أكل السّجائر أكلا وكان سببا معاونا لفقدان شهيته... اشترى علبة أخرى وقصد البيت... اختار بقعة مظلمة بجانب دارهم... جلس فيها طلبا للوحدة... لم يطل الجلوس كثيرا... لأنّ جلوسه هناك كان سببه التدخين فقط لأنّه لم يكن يدخّن أمام إخوته أو والديه احتراما... وصل غرفته وألقى نفسه ثانية فوق سريره لا يكاد يُبين أمامه... فتح الفايسبوك... كان عقله لا يزال يشفع لسلوى ويصنع لها آلاف الأعذار... قال في نفسه لعلها أرادت أن تغتنم فرصة الليل وحنانه للردّ على رسالته... لأنّه قد صَدَقَ من قال فعلا أن الليل للعشاق... كان يفكّر فيها تفكيرا متواصلا بلا انقطاع... كان عزاءه الوحيد بعض الأغاني التي كانت تومئ له باستماعها... وأحبّ ما جرى بينهما إلى قلبه من مواقف... كانت هذه هي ما يُفرح بها صدره... يعيد المواقف في خياله بلا انقطاع ليطفئ نار الشّوق إليها... أغانيها

كانت تحثّه على مواصلة الزحف إليها بلا خوف ولا تراجع... كان حبّها له الواضح من عينيها هو ما سبّب إقباله عليها بلا تردّد... لم يكن من النّوع الذي يُقبل على من لا تستلطفه أولا يرى فيها على الأقل ما يدلّ على أنّها معجبة به.

-أرِق ليله... وبدأ صبره ينفذ... أمسك قلمه قانطا وكتب في كناشة شعره... كتب ليُنفس عن غضبه.

أدمنت في هاتفي النّظر
حتى أعمانـي القلق والغضب
كيف تأبى أن ترُدّ لي الرّوحَ
بِما تدينُ هذه، كيف تأبى
فليس من الإسلام من ليس راحما
فإن كنت مسلما تكون رحيما
فكيف ترضى أن أظلّ مشتعلا
وفي يديها الماء منهمر
وفي يديها صك نجاتي من
لب جهنم إلى قلب النّعيم
كيف لم أرَ عجزها كيف لم
أفهم أن خجلها عجز
ما كان يرضيني أبدا ما كان
أن أكون بين مطرقة وسندان
وا سلوتي أصبحت سلوتي
فضغط صمتك على قلبي قد طال

المثقف

كانت تشتعل نقطة خضراء بجانب اسم من يُشغّل حسابه على الفايسبوك... ويستطيع حظر اشتعالها متى أراد... لم تفتح سلوى طوال اليوم حسابها... أو هكذا ظنّ إيهاب... كان يعدّ كلّ الطرق الممكنة للتواصل معها... حذف الاتصال المباشر من باله نهائيا... كان أوّل ما فكّر فيه وجرّبه... كان يُظهر على هاتفها على أنّه اتصال من مجهول... لم يستطع الكلام أحسّ أن لسانه مبتلع لا يستطيع تحريكه... لكنّها أجمل طريقة... أكسبته راحة لا يعرف مثلها دواء، لحالته تلك... لكنّ صمتها يوما كاملا لم يُطل راحته تلك... لذلك انحصر تفكيره في الطريقة... نعم الطريقة التي يحقّق بها أمله في وصالها... الفايسبوك لم تُشغّله... وصعُب عليه أمر الاتصال بالهاتف كثيرا... فلم يبق أمامه إلّا مراسلتها نصيبا بالهاتف... هذا ما استسهله قلبه... وما ساغ على هواه.

-مضت الدّقائق ومضت السّاعات... فارتت السّاعة على الثانية صباحا... السّاعة التي بعث فيها رسالته الأولى التي مضى عليها يوما كاملا... ضغط عليه صمتها وعدم ردّها كثيرا... قرّر أخيرا معاودة الكرّة لعلّها تلين ويحنّ قلبها وتَرُدّ له الرّوح... إحساسه بنار تأكل جوفه جعله لا يدرك ما يجري حوله... أمسى لا يهمّه إلّا أن تنقذه سلوى من هذه الحالة... فهي الطبيبة الوحيدة لعِلّته... أحسّها كأنّها معذّبته وهو كالعبد الذليل يتمنّى ويترجى رحمتها.

فتح هاتفه وكتب حاسا بكلّ كلمة:

«أرجوك، أرجوك حالي الآن يشفق عليه العدو... سأجنّ بالتأكيد... كيف تصمتين أنت عليّ أنا!؟...

كيف يعقل أن تكون قلوبنا نحن غير صافيّة على بعضها البعض!؟،

قومي بأيّ فعل لا تبقي صامتة... قومي بأيّ فعل لكي أفهم أرجوك أنّك راضية عليّ وقلبك صافٍ عليّ... وإذا أغضبتك في شيء قولي لي... لا تخجلي أبدا... لم أجد شخصا يفهمني وأفهمه مثلك... إني أنتظر مكالمتك أو رسالتك.

المثقف

«الصراحة راحة يا سلوتي... لا تتركي إيهابك يتعذّب... إن فراق الصيف وحده يفقد العقل... وأنا الذي كنت أقول: لن نفترق أبدا ولن نغضب من بعضنا البعض أبدا !!!!؟

أو أزعجتك لمّا صارحتك بحبّي؟؟ !»

حاول إفراغ كامل شعوره لكنّه لم يفلح... فلم يستطع أن يفرغ ضغطه... لم يتمالك نفسه... كاد ينفجر... رغم ذلك لم يعد يُحمّل سلوى السّبب في توتّره... ضحك على نفسه كثيرا... وكيف لا وهو الذي حاول أن يُسعد نفسه بمصارحة حبّه التي يُقدّسها وعلى استعداد أن يفعل بنفسه الأفاعيل قبل أن يفكّر أن يجرحها... فأصبحت هذه المصارحة مشكلة لا يجد لها حلا.

-عاود على السّاعة الثالثة صباحا الخروج من البيت... لم يستطع النّوم صارت السّيجارة نديمه... تُحرق صدره ليُطفئ توتّره... يداعب بلسانه رشفات من قهوته... لا تكاد تنطفئ سيجارة حتى يُشعل أخرى... كان قد خرج بسرواله القصير وقميصه الدّاخليّ... داعبت نسمات الصيف الباردة جسمه فأنعشته... لم يكن البحر يبعد عنهم كثيرا فشاطئ «كاف فطيمة» لا يبعد إلّا عشرة كيلومترات فكانت التيارات البحريّة تتحكم في جوّ مدينته دائما.

فتح الفيسبوك... فتح حظر حسابه لكي يستطيع رؤيّة مَن مِن أصدقائه متصل بالأنترنت ساعتها... باغتته رسالة على المسنجر رقص على رنينها قلبه... عدّها سلوى... لكنّها كانت «شذى الرّيحان» الاسم المستعار لصفحة صديقته «شيرين»...

كانت تسأله: «كيف حالك إيهاب... اشتقنا لك... «

أجابها: «والله بخير وأنت...»

أجابته: «بخير... تركتموني أنت وسلوى لوحدي... مللت الذهاب إلى الجامعة.»

«أجابها «حتى أنا اشتقت لك كثيرا»...

أجابته «وكيف حال مراجعتك؟... هل راجعت جيّدا؟»...

أجابها ضاحكا: «إلى حد السّاعة لم أفتح كراسة»

أجابته ضاحكة: وأنا مثلك تماما... حتى سلوى... كذلك»

دقّ قلبه لذكر اسم سلوى وردّ عليها «سلوى !!! وهل كلّمتها «...

أجابته: «نعم... قطعتُ الاتصال معها... قبل أن أحادثك بدقائق... قالت أنّها تريد النّوم»

نبض قلبه بشدّة وتذكّر أنّه بعث لها برسالة إلى هاتفها في ذاك الوقت... ولابد أنّها اضطرت لقطع المحادثة مع شيرين من أجل قراءة رسالته.

عاودت شيرين مراسلته «... سلام... أين أنت «

أجابها: «أنا هنا... كنت أشعل سيجارة فقط... وكيف ذلك !... سلوى المجتهدة... لم تستطع المراجعة «.حاول مراوغتها... لأنّها أخبار الحبيبة...

أجابته: «لا أعلم... إنّها تقول أنّها تحسّ هذه الأيّام أنّها ليست على ما يرام... وأنّها متوتّرة كثيرا... حتى النّوم لم تنم منذ يومين»

تفاجأ إيهاب مرتعبا « ولِمَ كلّ هذا؟ « وأحسّ بأنّه سبب كلّ هذا... لام نفسه وأنّبها واحتار وسأل نفسه «كيف العمل؟... كيف الحل؟... ماذا أفعل لها؟... أنا سببها».

أجابته على سؤاله:»قلت لك لا أعلم؟... تقول أنّها تحسّ نفسها مغمومة»

قتلته بكلماتها فغيّر الكلام: ألم تقولي لها إني أنا أيضا ذهبت للمنزل؟

تفاجأت شيرين وأجابته: ألم تتحدّث معها أبدا بالمسنجر؟

أجابها مراوغا لها: لا، لا... لم أتقاطع معها في الأنترنت.

أجابته: آه... لم نتحدّث عنك كثيرا... تحدّثنا عنك في الأوّل فقط وقلت لها أنّك لم تستطع إكمال الأسبوع... المهم، علينا الدّراسة جيّدا.

شكرها إيهاب في قلبه كثيرا لأنّها أوصلت مشاعره لسلوى... أوصلت أنّه

أحسّ بالكآبة بعدها... وأجابها:»نعم... وخاصة أنتما... لأني لا أمتحن في هذا السّداسي الأخير كما تعلمين إلّا على مادتين ولحسن حظي أنهما في يوم واحد».

أجابته: إنك محظوظ جدا... أنا التي عليها دراسة كلّ المواد.

أجابها: لا أخاف عليكما.

أجابته: إن شاء الله... وهل ستأتي من أوّل الأسبوع أو كيف؟

أجابها: آآه... لا أعلم؟... لأنّ يوم امتحاني هو يوم الثلاثاء... لا أدري صراحة؟... المهم أنني سأكلمك إن أتيت.

أجابته شيرين والشوق يقتلها: وماذا تفعل في البيت؟... تعال لكي تشجعني.

أجابها: إن شاء الله... ربما آتي... فلقد ألفت الإقامة والجامعة... وأصبحت لا أطيق البيت.

المثقف

أجابته: إن شاء الله... أظنّ أنّني أكثرت عليك ولم أتركك تنام... ليلة سعيدة.

أجابها ضاحكا: قولي إنّك تريدين النّوم ولماذا اللّف والدّوران.

ضحكت: ليلة سعيدة.

أجابها: ليلة سعيدة.

قطع اتصاله بالأنترنت وغرق في تفكيره... حَزِنَ مباشرة... أحسّ بأنه سبّب لسلوى كارثة... «لقد أثّرت على دراستها» يعاتب نفسه بترديدها... راودته فكرة أن يفاتح شيرين بالموضوع لعلها تصالحهما... لكنّه تراجع لأنّه يعرف جيّدا معزّته عند شيرين وأنه سيتسبّب في كارثة أخرى لشيرين... لكنّه لا يجد إنسانا أقرب إليها من شيرين... لا يمكن أن يأمن أحدا على شيء بينه وبين سلوى غير شيرين... لكنّه قرّر بعد عمق تفكير مكابدة الأمر بمفرده... احتار في المشكلة التي خلقها... لم يكن رد فعل سلوى في الحسبان... لم يكن يفكّر حتى أنّ الأمور تنتهي بصمتها وعجزه تماما على فعل شيء.

كانت السّاعة تشير إلى الرّابعة والنصف... أيقظه آذان الفجر من تفكيره العميق... كان قد أكمل نصف علبة السّجائر... لم ينتبه لذلك... قام وذهب إلى فراشه وألقى بنفسه... وغرق في نوم عميق... لم يستفق إلّا عند العاشرة والنصف صباحا... أيقظه رنين هاتفه... كان المتصل مجهول... رفعه مسرعا وقلبه يكاد يفارق قفصه الصدري... كلّمه... ألو... ألو... كان الصمت كلام المتصل... مقطوعٍ بتنهيدات أنثى قطّعت شراييه... دامت المكالمة نصف دقيقة... كانت أجمل نصف دقيقة في حياة إيهاب... قُطعت المكالمة... شهق خلالها إيهاب ووضع الهاتف على قلبه... أحسّ بحرارة غريبة تنبع من نصف جسده العلوي وتخرج من قلبه... أحسّها سلوى... كانت سلوى، لم يكن نصف سكان الأرض قادرين وقتها على إقناع إيهاب على أن المتصل ليست سلوى... أحسّ بكلامها... أحسّ بما لم تستطع نطقه...

المثقف

أحسّها تنهيداتها كأنّها تقول: « نعم يا حبيبي... أنا أيضا أحبّك... لكني أخجل... افهمني... ولا تقلق إنني معك، إنني معك وقلبي معك... أحسّ ما تحسّه... أحسّ بنار الحبّ الذي أشعلته علينا برسائلك... وهذا ما أتمنّى يا حبيبي».

أحسّ كلّ هذا الكلام وأكثر من صمتها... أحسّ أنّها تريد أن تطمئن عليه جيّدا... لأنّه أقلقها عندما قال لها أنّه متوتّر ويكاد ينفجر... أرادت تهدئته... أرادت أن تُنصت جيّدا لصوته لتعرف أنّه على ما يرام... لأنّه أغلى ما تملك... كلّ هذا أحسّه وكانت هي الحقيقة.

* * *

مكالمتها غيّرت كلّ شيء... لطّفت الجوّ وأبعدت عنه الأحزان وضاعفت عشقه... أصبح للتنفس طعم ثان... كانت كأنّها تعبيرا لموافقتها له... تعبيرا عن ضم صوتها له... تطمينا له... اطمئنانا عليه... حبّا وهياما فيه... إذعانا لطلبه

ولو أنّه كان متأخرا... كانت كأنّها طلب للمزيد... كانت كأنّها وضع الخد على الخد واستماع لآهات الطرف الآخر... والاستمتاع بذلك... كان الصمت كلامها لأنّها أرادت سماع القلب لا الشّفتين... كانت المكالمة وصل للروحين وتوحيد للجسدين وحضن للقلبين... فعلا كأنّه احتضن روح سلوى مدة تلك المكالمة... أبحر بعيدا نازعا ثوب الهم والغم من عينيه... مُجليا عن نفسه ما كدّره تفكيره السّيء بها... أصبح مبتهجا... كانت كنز حياته... أصبح لا يرجو من الدّنيا إلّا حبّها... إلّا مبادلته هذا الحبّ الذي بدأ يحسّه فعلا كأنّه نار تتأجج وتأكل نصفه العلوي.

أحسّ بنور هذا العشق يخرج من عينيه... كانت كلّ خليّة من جسمه تشكرها «شكرا حبيبتي»... كانت كلّ قطرة من دمه تصرخ عاليا «أحبّك... أحبّك سلوى»... كان الشّكر من صميم القلب لأنّها حقّقت له الأماني... لأنّها حقّقت ما كان القلب يطلبه... لأنّ حبّه كان قبل رسائله ولولا الحبّ ما كانت رسائله... ولكنّ رضاها عنه ما غاب لحظات صمتها... غاب وكاد يغيب عقله معه... حتى أتت معجزتها - مكالمتها - معلّلة لغيابها... مفسرة، مبينة لأسباب تماطلها... ومسببات عجزها.

عجزها الجميل على النّفس، الحلو على القلب.

كره حين صمتها قائلا الجملة الشّهيرة «السّكوت علامة الرّضا»... لأنّ اتّباعه لمثل هذه القاعدة لا يَحلّ مشكلته... لأنّه يعرف شرط عجزه.

احتضن هاتفه، لا يصدّق نفسه... كان الواقع هنا أفضل من الحلم... كأنّه شيء أُنْزِل من السّماء عليهما... وعليهما أن يستمتعا به ولا يأبهان لأيّ شيء آخر.

كانت مكالمتها إعلانا لمرحلة جديدة بينهما... مواقف جديدة... إيماءات جديدة... ذكاء، وفهم جديد... حلاوة قصوى لا تلبث أن تزيد... فرحه كان

حقيقيا، كانت فرصته لتجريب حقيقة السّعادة... كأنّه أخذ وطره منها... فحدّث نفسه أنّه لا يبغي منها الآن أيّ شيء... الآن أتركك يا حلوتي ويا سلوتي لدراستك... ادرسي كما تشائين... قلبي عليك راض.

* * *

لم يلبث في سعادته إلّا وأيقظه اتصال آخر أفزعه لأنّ الهاتف كان على صدره... صعقه اهتزاز الهاتف ورنينه في أقرب مكان لقلبه... قلبه الذي لم يندمل جرحه بعد... فقد أخرج كبر عشقه شيئا فشيئا قلبه من أحشائه... كان يتدلّى على صدره ولم يكن المسكين يدري أنّ هكذا يؤول حال العاشق...

أيقظه اتصال صاحبه حازم... نظر كالعائد من حلم... كالقائم من نوم... كالمستفيق من غفوة... أخرجه حازم مجبرا... قابله ولهانا... كانت سعادته في وجهه... كان يمشي لا يهتم معه بشيء من حديثه... كان كمن يحمل أجمل سر في أحشائه... كان سعيدا وأسعد معه حازم لأنّه كان منشرح الصدر... سهر الاثنان وفادي تلك الليلة حتى جاوزا منتصف الليل... كان مالئا لكرسيه من فرط سعادته بصفة غريبة... كأنّه التكبّر زُرع في وجدانه، كأنّها العلياء أمسكت بزمام أموره... كأنّه أمسك بكلّ أحلامه... كان إعجاب الكثيرين بسلوى وخاصة نديميه سببا لعليائه وفخره وازدهار بسمته لحيازته لها... أو لعلّ ذلك الإعجاب ما زاد رضاه عن مميّزاتها وشمائلها واطمئنانه لاختيار قلبه... ناهيك عن أنّ كلّ شمائلها يحمل منها في نفسه توأم حتى عدّها توأم روحه.

رجع للبيت لا يأمل ولا يرجو مزيدا... مشبّعا لا يقوى إلّا على النّوم... نعم النّوم... رجع إليه النّوم بعد رحيل ضغطها... سلّم نفسه واستسلم للنوم بعد أن احتضن خيالها بشدّة.

* * *

مضت عليه أيّام عطلة الجمعة محتضنا حين انفراده هاتفه... قارئا غير مالٍ لرسالته إليها... مالئا وقته بغرامها... يحاول قليلا المراجعة... وقليلا التمتع بسماع أغاني عاطفيّة كانت محمّلة على بطاقة ذاكرة هاتفها نقلها لهاتفه... يدرس بسماعها مشاعرها... ويسلّي نفسه بذكراها... كانت صورتها في هاتفه لا تفارق عينيه... أَمِنَ الإمعان فيها... في عينيها، يدرسهما... في شفتيها، يهيم بهما... في استدارة وجنتيها... في تلألؤ أسنانها... في بياض رقبتها كالعاج المنمق... يتيه حائرا في يوم امتلاكها كلّما يسقط على صورتها... كان يطفئ بتلك الصورة لهفه وشوقه لعينيها... يبكي لعدم صبر عينيه عنها، وقلبه عن بعدها.

بدأ الأسبوع الدّراسيّ... نزل حازم وفادي يوم السّبت استعدادا لامتحانات يوم الأحد... بات ليلة السبت في غرفته يصبّر نفسه ليوم الثلاثاء... لكنّه لم يطق صبرا... خصوصا عندما أخبرته شيرين أنّ سلوى نزلت للجامعة... لم يطق صبرا كأنّه تم التفريق بين قلبه وجسده... كأنّه فارق روحه... كيف وفيه حركة أن يسمح للجبال أن تفرّق بينه وبينها... لم يقوَ على احتمال تلك الليلة... فارق فراشه في معظمها لخارج بيته ليشعل سجائره... ويشعل معها غضبه للّيل الذي لا ينجلي.

نهض باكرا قاصدا مكان العشيقة... فلا أمان إلّا في قرب الأحبة... وصل مستبشرا للجامعة... كانت خطاه متردّدة مرتجفة... وما كان يمدّه بالعزيمة هو وجود شيرين... نعم، شيرين... فشيرين مصدر قوة بالنسبة له.

كانوا لا يزالون يمتحنون حين وصوله للجامعة... راسل شيرين « إن خرجتِ تعالي فأنا في مكاننا المعهود»... كانت السّاعة العاشرة والنصف... لم يلبث في مكانه عشرة دقائق أخرى حتى أتى إليه حازم... وبعده فادي... كان كلّ الكلام عن الامتحان... حتى خرجت شيرين... فرح إيهاب لخروجها... كان

يخشى خروج سلوى أوّلا... وصلت ساعة نهاية الامتحان.

إنها السّاعة الحادية عشرة صباحا... حتى خرجت سلوى في صحبة بعض بنات الفصل ونجوى... لم ينتبه إيهاب لوصولها إليهم حتى سلّمت البنات عليهم... جلست سلوى وصديقتها بعيدا عن نظره كأنّها تريد ألا يراها... كأنّها متوتّرة ووجلة... نقلت توتّرها لاسلكيا لإيهاب... أصبح يرى نفسه كأنّه يزعجها في مجلس أصدقائها... نعم، أصبح يرى أنّه مجلس أصدقائها وهو دخيل عليهم... بدأ الإيثار يطفو في ساحة تصرفاته... لم تلبث قليلا في توتّرها حتى أوعزت إلى صديقاتها فنهضوا ونهضت مستترة داخلهم لا تريد أن يرى وجهها... أصبح التوتّر والضغط عشيقي إيهاب... ذهبت المحنة... لم يحرك ساكنا... لم يجد رد فعل لهروبها إلّا الهروب... فتصرفاتها كانت أساسا لتصرفاته... بدأ يخمن ويؤنب نفسه... ويقول لها: لو لم أكن أنا مع الشّلة لكانت سلوى جلست معهم متمتعة بأريحيّة كبيرة.

قرّر ترك مكانه لها معهم... لكن أين يذهب المسكين... ومع من يمضي وقته ولهما نفس المقرّبين... لم تفارق صورة ذهابها من الجلسة خلسة خياله... لم تشفع نداءات شيرين حتى في استدارتها... أجابتها أنّها ذاهبة إلى الإقامة وهي مستديرة... كأنّها لا تريد رؤيّة شيء... مضت مسرعة ولكن... العزاء الوحيد كان الضحكة التي رآها خلسة في عينيها حين رؤيتها لإيهاب في المجلس... تلك السّعادة التي لم تفارقها حتى فارقت المجلس بها... لمحت سعادته بها ولمح سعادتها بوجودها بقربه... لكنّ اللقاء في مجلس واحد اتضح أنّه صعب.

لم تتركه شيرين... كان شغفها... كان أحبّ أصدقائها وأقربهم إليها... لم تتركه حتى قاربت السّاعة الثانية بعد الظهر... وقت إجراء الامتحان الثاني... أدخلها للجامعة ورجع للإقامة مثقلا بيومه... وأخذ قيلولة حتى جاء حازم وفادي على السّاعة الرّابعة.

أخذوا في المراجعة كلّهم... كلّ على طاولته... كان أحبّ يوم وأقوى يوم للمراجعة لأمثاله من المستهزئين هو اليوم الذي يسبق الامتحان... كان الكلّ خائفا... بدأ يذلّل عقبات فهم مادتي يوم الثلاثاء شيئا فشيئا.

لم ينهض يوم غد باكرا ولم يهتم بالصعود للجامعة... أصبح كلّ ما يشغل باله هو كيف لا يزعج سلوى... كانت أوّل تضحياته بمجلسه مع أصدقائه... تركها على راحتها معهم لأنّه يعلم جيّدا أن أفضل إنسان ترتاح إليه في صديقاتها هي شيرين... ووجوده إلى جانب شيرين يحرمها منها... لذا فضّل عدم الصعود للجامعة يوم الإثنين... رغم اتصال شيرين المُلِحّ عليه للصعو للجامعة للقائها... لم يرضخ لطلبها خاصة عند سؤالها بطريقة عرضيّة عمن هو برفقتها... فلما سمّت له سلوى ارتعب وخاف قليلا... تركهم وشأنهم... كانت أوّل التضحيات التي يحسّ فيها أنّه وحيد... فحبّ حياته حار قلبه وفكره كيف يرضيها... أصبح شغله الشّاغل راحتها... وأقل راحتها عدم إبعادها عن شيرين؟

المثقف

* * *

صبر إلى أن أتى يوم الثلاثاء، كان الامتحان على السّاعة التاسعة والنصف إلى الحاديّة عشر صباحا... ذهب للجامعة... حاول التباطؤ بحازم وفادي كي لا يتقاطعوا مع شيرين وسلوى.

رأتهم شيرين فأتت مسرعة... كان كلّ الكلام عن الامتحان إلّا هو كان البال مشغولا بتوأمه... اختلط الطلبة عند اقتراب ساعة الامتحان أمام قاعات الدّراسة... لمح سلوى قرب القاعة مع الطالبات... كانت شيرين لصيقته... وطبعا غير واعية بما جرى بينهما... وتحبّ أصلا أن تكون سلوى بعيدة عنه... تحبّه عندئذ لأنّ باله يصفى لها...

حين لمح سلوى... حاول التباطؤ... حتى دخل جميع الطلبة ودخلت معهم

قاعة الامتحان... دخل وراءهم وجلس بعيدا عنها لكيلا تراه... لا يريد إزعاجها في ساعة مهمة كهذه... أكمل ذلك الامتحان وخرج مسرعا ونزل مباشرة للإقامة متذرعا بأنه يود تناول الغداء مبكرا... عندما اتصلت به شيرين.

كانت الفترة المسائيّة مماثلة... أصبح يلاقي صعوبة كي لا ينتبه أحد أن علاقته بسلوى ليست على ما يرام... نزل تلك العشيّة كذلك مسرعا يائسا هذه المرة... لأنّ تلك على ما يبدو هي آخر مرة يمكن أن يرى فيها سلوى ولو من بعيد هذا الأسبوع... لأنّها أخبرت شيرين أنّها ستذهب إلى البيت باكرا صباح يوم الأربعاء.

عاود النّكد والكدر والهم ملازمة صدره مساءً... كيف لا وقد ترسمت وتحقّقت كلّ مخاوفه... فالحبيب الذي لا يقوى على مفارقته ساعة... أصبح لا يريد أن يرى خياله... لم يشفع الخجل الظاهر على محياها في تقديم العذر المناسب للقلب لكي يرضى... كان القنوط مصاحبا لإيهاب ليلة الأربعاء... كان من فرط الحزن لا يكاد التنفس جيّدا... عبوس وجهه بان للعيان... لم يفهم أصدقاؤه ما الذي جرى له... لم يفلح أحد في إسعاده... وكانت الكارثة العظمى عندما أخبرته شيرين أن سلوى قد أرجعت كلّ لوازم غرفتها وأنها لن تنام ليلة أخرى في إقامتها... وأنها عند ظهور النّتائج ستعاود المجيء للنظر فقط ثمّ الرّجوع للبيت.

المثقف

أحسّ باليُتم الحقيقي... أراد الشّرب... أراد المخدرات... وكان له ما أراد... فقد أعجبت الفكرة صديقيه وفرحا بها فرح الثعالب خصوصا أن الامتحانات قد ولّت وقد أفلحوا على ما يبدو فيها... فأرادوا احتفالا أخيرا في الإقامة.

بعد أن نجحوا كعادتهم في تمرير قنينات الخمر على مركز حراسة الإقامة... ابتدأوا سهرتهم وانغمسوا فيها... لكن لم يفلح بإيجاد السّعادة التي نشدها... حتى أنّه خاف على نفسه إن هو سكر، خاف أن يفعل شيئا في نفسه... فلم

يُكمل شرابه واكتفى بالمخدرات ما حيّر صديقيه كثيرا لكنّهما لم ينتبها لسره.

شرد كثيرا تلك الليلة... كاد يبكي لأنّه لن يرى على ما يبدو سلوى إلى العام المقبل... افترقا ولم يتصالحا... ذهبت من دون أن تُصالح... كادت الدّموع أن تجد لها طريقا أمام أصدقائه... لكنّه أمسك مشاعره وحاول أن يبدو في دور القويّ كعادته... البشوش الذي لا يملّ الضحك... سارت تلك الليلة على العموم جيّدا.

* * *

بعد نهاية الامتحانات العاديّة بعشرين يوم كانت تُجْرى امتحانات استدراكيّة أولى... ومن لم ينجح في إحراز نقاط تؤهله لاجتياز السّنة يستدرك الأمر في امتحان آخر في شهر سبتمبر يسمى الامتحان الاستدراكي الثاني.

أي أن أبواب الجامعة والإقامة لن تغلق إلّا إذا أجرى الطلبة المتأخرين في النّجاح امتحانهم الاستدراكي الأول وتستمر إلى غاية خروج النّتائج النّهائيّة... أيّ أن الأمر يستمر إلى الأسبوع الأول من شهر أوت... لهذا فإن للطلبة فُرصا كثيرة يستطيعون أن يستغلوها... كان هذا محور حديث إيهاب وفادي عند استفاقتهما من النّوم... كان هذا هو الحديث، كلّ مرة يعيدانه عند الامتحان... يزرعان به الصبر لأنفسهما إن هي لاحت لهما بوادر عدم النّجاح في الامتحان الرّسمي.

كان يوم الأربعاء 25 من شهر ماي 2010... يوم مشمس نقيّة السّماء فيه من أيّة سحب... بدأ الشّباب يغطس في بحر ذلك الصيف... لمعت لإيهاب فكرة الذهاب لأحد شواطئ سكيكدة المميّزة لافتتاح موسمهم الاصطيافي... اختلف الشّلة حول الوجهة... فكل الطريق من مدينة سكيكدة إلى « قرية سطورة « السّاحليّة السّاحرة... كانت عبارة عن شواطئ فاتنة مفتوحة للمصطافين وما

بعد ميناء النّزهة الخاص بها كانت هناك حوالي عشرة شواطئ على الطريق الجبلي أو الممشى المنحوت في الصخر على طول «جبل ميرامار» وكان من بينهم شاطئ «ميرامار»... كانت كلها تسحر الأنظار... كانت فكرة حازم أن يذهبوا في هذا الاتجاه...

أما إيهاب فكان يفضّل الجهة الشّرقيّة من مدينة سكيكدة، جهة شواطئ «جاندارك» و»فلفلة « الرّمليّة السّاحرة... كان شاطئ بطول التسع كيلومترات كثيرا ما يجمع معظم سكان سكيكدة وبعض الولايات الدّاخليّة الأخرى القريبة « كقسنطينة « و»قالمة « لشساعة الشّواطئ ونعومة رمله وصفاوة ونقاوة مائه.

مالت الكفة جهة إيهاب وحتى فادي فضّل « جاندارك « أو كما أصبح اسمه «شاطئ العربي بن المهيدي « نسبة لبطل الثورة المشهور.

ذهب الشّلة إلى البحر بعد غدائهم... كانت أمسية مميّزة جدا... أخذوا عدة صور على الشّاطئ للذكرى... أصبحت الصور بطعم مميّز... لأنّ صفحات الفايسبوك أصبحت ملاذ تلك الصور.

كانت البقعة التي جلس فيها إيهاب واختارها هي نفسها المكان الذي جلس فيه هو وسلوى فيما مضى... أصبحت في لمح البصر كالنصب التذكاري تحمل ذكرى ساخنة حميميّة من الدّرجة الأولى... ذكرى اجتماعه مع حبّه العذري الأول... الحبّ الشّريف العفيف الطاهر الذي حرك وجدانه... كان يتلمس رمل ذلك المكان بيديه ورجليه كأنّه يريد أن يمتص الذكريات منه... كأنّه يحسّ وجودها في المكان... كأنّه يسمعها... كان طوق الحبّ لا يزال يلفّ المكان.

سارت دقائق السّاعة بغفلة منهم... لم ينتبهوا إلّا وشمس المغيب لاحت في الأفق... كان الثلاثة قد أخذوا وطرهم من تعب السّباحة والتنزه على الشّاطئ، اكتفوا وتوجهوا ليلا إلى إقامتهم التي بدأت مظاهر نزوح الطلبة منها تظهر

للعيان... كان تعب يومهم يعمل كمضاد للأرق فلم يستطيعوا أن يتجاوزوا العاشرة ليلا... النّعاس لعب بجفونهم وذهب بهم النّوم في أحلام بعيدة... لم يستمر نوم إيهاب طويلا فنومه الباكر على غير العادة أشبعه وأشبع جسده مبكرا أيضا...

فتح عينيه على السّاعة الواحدة والنصف فجرا... لم يجد ما يفعل... كانت النّافذة مفتوحة على مصراعيها... أشعل سيجارة وأخذ بين يديه كوب القهوة الباردة المتبقي التي لا يستطيع أن يفصلها عن التدخين... ووضع في أذنيه سماعة الهاتف وواصل استمتاعه بنسمات الليل الباردة وأروع الأغاني العاطفيّة... قلبت عليه الأغاني المواجع... هاج فكره في سلوى... لم يستمر طويلا حتى أحيا تذكره أمله الذي خاب... بدأت الأحزان والأشجان الانقضاض عليه وأجبرت عقله على تذكر كلّ موقف سيّء مر معه مع سلوى هذه الأيّام... حتى غلب على عقله أعظم ما كان يحسه من قلق وحيرة وضغط حين راسلها ولم تجبه... بدأت فكرة أنّها يجب أن تشرح له سبب كلّ شيء بالتفصيل... سبب سكوتها... سبب هروبها... كان يريد أن يصرخ في وجهها لو كانت سامعة له... أنّها يجب عليها ذلك... يجب ألا تتركه يتعذب أكثر... ألا تتركه لأحزانه... ألا تتركه لحيرته المدمرة... كأنّه يصرخ معترضا، فمن غير المعقول أنهما هما الاثنان بعد أن كانا لا يصبران حين يرى أحدهما خيال الآخر إلّا ويأتيان مسرعين حتى توضع اليدين على اليدين مسلّمة على بعضها... كلّ هذه الرّغبة في بعضهما تصبح كأنّها عداوة... تصبح تجاهل وتخطي كأنّهما لا يعرفان بعضهما منذ الأزل... كأنّهما لا يُتقنان بعضهما... كأنّهما لا يسكنان أرجاء بعضهما.

قاربت السّاعة على الثانية صباحا... أخذ جسمه بالانتعاش من نسمات البحر القريب... كانت السّاعة تشير إلى عيد ميلاد نزوته الأولى... رسالته

الأولى... كان قد مر أسبوع على فتح قلبه لها... بدأت حرارة جسمه تزداد... قصد فراشه القريب من النّافذة وغطى رأسه كأنّه يريد أن يحسّ نفسه وحيدا في الدّنيا... وأخذ هاتفه فرحا لأنّه سيفتح سره الشّخصي ثانية... عقد العزم على النّهوض بمطالب جديدة عسى أن يستلطف هذا القلب المستبد... هذا القلب الأبكم الذي يرى أن استمرار سكوته سيدفعه لحافة الجنون... بدأ يفكّر مليًّا من أين يبدأ لها كلامه ليعبّر عن حال انتظاره المقلق،

كتب لها:

لا أزال أنتظر قلبك يحن ويعطف على محبوبه... لأنّ قلبي ذبل من أجلك واعذريني سأبقى أعشقك رغما عنك... لأنّها صعبة جدًّا أن أسمح فيك بعدما وجدتك... من المحال أن أفرّط فيك... لم ألقَ في حياتي فتاة تفهمني وتحبّني وتخاف عليّ وتحسّ بي مثلك يا عيني الغزال... أقسم أنني أحسّ بك وتحسين بي حقا.

بعث بها، كانت السّاعة الثانية وست دقائق صباحا... بعدها مباشرة وصل إليه إشعار استلام الرّسالة من هاتفها وكان قد شغّل هذه الخاصيّة في هاتفه ليتأكّد من وصول رسالته... اطمأن لوصولها.

تفعل معه الرّسالة أشياء غريبة... يحسّ بعدها أنّه مرتاح فكريا... كأنّه قام باللازم منه... كانت تقرّبه منها، كانت تُخرج لها ما يكتمه في نفسه... كانت تُوصل لها كلّ مشاعره... ستُحس بعدها أنّها تفهم معاناته... ستعيش حالته في وقتها...

كان شيئا في داخله يُخبره أنّها ليست نائمة وتقرأ رسالته في الوقت الذي يراها تفعل ذلك... أبطأ تخيلها من نبضه.

بدأ يتعود على أسوأ عادة لها... بدأ التعود على سكوتها وصمتها... لم تعلم المسكينة أنّها أفقدته كلّ إرادته... لم يبقَ في مقدوره أن يفعل أيّ شيء...

وكيف لا وهو يعدّها محور حياته... كان حبّها مركز شعوره... كلّ حكايته... روايته آنذاك في الدّنيا... أبعدت نفسها فابتعدت روحه من جسده... لم يعد يفقه شيئا... كان يراسل روحه لعلها تدله على الطريق... تُرشده إلى ما ينبغي عليه أن يفعل... أحسّ بالعجز تجاهها... أحسّ بالكره تجاهها... لأنّها تتحكم في الموضوع من دون معرفة ما تترتب عنه من معاناة له... بدأ يكرهها... وكُرهها يدفع الدّموع إلى العيون... لأنّها تملك سعادته وهناءه بين إصبعيها... لم يقوَ المسكين على الحل ولم يدرِ ما العمل... لم يجد الطريقة التي يُفهمها بها أنّه محتاج وبشدّة لرسالة من عندها... لم يَلقَ في جموع أفكاره طريقة يستطيع بها ذلك إلّا مراسلتها لعلها ترحم... وهذا ما يحسّسه أنّه عاجز أمامها... مقت هذا العجز... وهذا الحقد أصبح يحمله على نفسه أولا... لأنّه أوّل من يعرف أن سكوتها هو علامة لرضاها كما يقولون... وأنه ليس عليه إلّا السّعي وراءها بلا خجل... نعم الخجل، فقد كان خجله منها... شيئا استجد في شعوره ونقل إليه بطريقة أو بأخرى من خجلها هي منه... بدأ هذا الأمر يسوء عليه... إلى أن غاب عن وعيه ونام مجدّدا.

* * *

صباح يوم الخميس كانت وجهتهم الثّلاثة البيت... وصل إيهاب قبل منتصف النّهار إلى منزلهم... فما لبث قليلا في غرفته منفردا إلّا وهجم عليه شوقها وآهاته... أصبح يخاف من الوحدة لأنّ التفكير فيها بشدّة هو أوّل ما يخطر بباله... والتفكير فيها يجلب اليأس والقنوط والضغط النّفسي الهائل...

هلّ عليه هلال أنّه لا يملك حلها بيديه... لم يحتمل الجلوس في البيت... سارع للخروج للمقهى عساه ينسى برفقة أقرانه ويلاتها وويلات شوقها... ينسى ما يسببه التفكير فيها.

لكنه والمضحك في الأمر أنّه ما لبث أن جلس في المقهى إلى جوار صديقه هروبا منها... حتى وردت إلى هاتفه مكالمة من مجهول... إنّها سلوى... نفس الطريقة... صمت وآهات وحنان يعبُر عبر الأثير... صمت يطبق عليها بعدها... تفقد هذه الكلمات والآهات التفكير والسمع... لم يستطع الإصغاء لأيّ من الكلمات التي تصدر من أصحابه... سحبته تلك الآهات إلى فكرة الرّجوع لغرفته من جديد... غرفة العشق التي يحسّ فيها بأقصى درجات الوله... كأنّها لا تريد له أن يبتعد ولو قليلا عن الهم والعشق ولوع شوقها وانحسار التفكير فيها...

ضحك على حاله مستهزئا... لا تريد له أن يخرج من قوقعتها...

لاح على باله شبح فكرة أحسسته بالقهر فعلا... أحسسته بالعجز فعلا... بدأ يستنتج أنّه مثلما هو عاجز عن كلّ شيء أمامها إلّا كتابة الرّسائل... فسلوى أيضا عاجزة عن الكتابة وعن أيّ شيء آخر إلّا المكالمة السّريّة من مجهول... تطفئ بها لهيبها وتُرضي بها نفسها وعشيقها... تماما كما تفعل معه الرّسائل حين يبعثها... تساءل بعدها... إذا ما الحل؟... ماحلّنا؟... ضحك على حالهما الذي وصلا إليه.

نزعت بمكالمتها الغمة على صدره... أدخلت النّشوة ثانية إلى عروقه... حمل نديمته قهوته ورحل إلى مكان سعادته... إلى غرفته لأنّها أعطته بوليصة الأمان من الرّعب الذي كان يخافه داخل تلك الغرفة... دخل عرينه كالأسد... تُرجع له ردات أفعال سلوى عن رسائله الرّوح إلى عشقه... تُرجع له بسمته... أمله في الحياة لأنّها أصبحت فعلا موضوع حياته... تفعل مكالمتها أو أيّ فعل آخر الأفاعيل في مدى إيجابيته بالموضوع... كأنّها تُعطي للعلاقة نفسا جديدا، وفرصة جديدة للاستمرار... لعلّ المستقبل يحمل في طياته فرجا إلهيًّا لهذه المعضلة.

ولكنها لا تعلم أنّه بالرغم من أنّه أحسّ بالعجز إلّا أنّ مواصلتها له تُغدق عليه عشقا وتغرقه أكثر فأكثر في هيامها... لأنّها تحسسه أنّها دائما معه وتتذوق الغرق في بحر عشقها مثلها مثله.

* * *

مضت دقائق اليوم لم يدرِ كيف مضت... المهم عنده أنّه أصبح وأمسى غارقا في يُمّ العسل على طريقتهما الخاصة... كأنّه تناسى موضوع ردّها على رسائله... وأقنع نفسه أنّها لا ولن تستطيع الكتابة له... وكيف لا يعذر حبيبته وهي المالكة لأمره... المتصرّفة في أشلائه... رضاها أهم من أكسيجينه... تناغمها معه بطريقتها الخاصة حقّق الكفاية والقناعة عند قلبه لمّا أدرك عجزها.

أمسك كراسة شعره قائلا:

لعَمري ما للقلب همٌّ سواها
من كان يظنّ أنّي سوف ألقاها
أحاول جاهدا أن أصل
فأعجز ولست وحدي فالكل عاجز
لطالما أعجبني تماثُل خَصْلنا
غيّر أنّه عند تماثل عجزنا ساءني
أبيت بنار أصبح بجنة
ما غيَّر لِعُمري الحال إلّا اتصالها
كلامها صمت أحنّ من ترنيمةِ كروانٍ،
مالت له كلّ جوارحي
كلامها آه اخترقت به
كل موضع فِيَّ، لا أُصدّق

المثقف

فيا من تراها كن لها خير حِبٍ،
كي لا يَبينَ في سماها غيرُ رضاها
أحبّها حبّا لو قُسِمَ على العالمين
لكان كهوى قيس نصيب كلّ فَردٍ

غربت الشّمس وخَلَفَ الليل النّهار، وإيهاب لم يتغيّر حاله... لا يزال غارقا مع موسيقاه لا ينتبه لشيء... حاضرا بجسمه غائبا بوعيه، تأخذه كلمات الأغاني من حال إلى حال... فمرة تزيد نشوته... ومرة تضع الحق معه في عدم الصبر على العشيقة فيزداد حقده عليها لعدم ردها... ومرة تتغنى الكلمات بالصبر فيشدو قلبه صبرا على العشيقة... أغنيّة تؤجج غضبه لعجزه وعجزها... وأغنيّة تهيم صبابة بقلبه... زادت بمرور الدقائق تراكمات شروده... كلّ الأجواء تدلّ على أنّه سيترجم آهات قلبه برسالة هذه الليلة... ولكن الليل لم يزحف بجدائله بعد... تماطلت السّاعات والدقائق... ولم ينجح الصبر في حثّه على الانتظار حتى السّاعة الثانية بعد منتصف الليل... السّاعة التي أَلِفَ المراسلة فيها... حتى عدها ساعتهما...

عند الحاديّة عشر بالضبط أمسك الهاتف وكتب لها متودّدا لعله يطفئ نار وَجْدِه وشوقه:

« كيف حالك اشتقت لك كثيرا، كثيرا... اشتقت لرؤيتك... ولكن لم أكن أظنّك قاسيّة القلب هكذا... أنا سأجن وأنت كأنك ميتة يا عيني... الهائم فيك... ليلة سعيدة».

ككل مرة حين إرساله رسالة... كان كأنّه يفتح أبواب النّعيم فتهبّ على نفسه نسمة حنان تلفّه وتزيد لهيب شوقه وهيامه.

لم يتناصف الليل حتى أصبح متيما بحبّها وبذكراها. فتح المسنجر وكتب

المثقف

لهـا معاتبا:

ويحك حبّي

ويحك رفقا بقلبي

ويحك آهاتي تخنقني

استمرار هذا الحال يسقمني

ويحك أمام حبّك أعلنت عجزي

رفيقة دربي إلى جهنّم العشق

ويحك أمام صمتك أعلنت رفضي

أمام صمتك ألقيت رايتي

ويحك آمنت بك فلا تخذلي فؤادي

عجزت أمامك فلا تتجبري

ويحك رسالاتي آخر أوراقي

لم أعد أجيد الصبر فارحمي أحشائي

ويحك رفقا بحبّي

ويحك رفقا بحبّك

كتبها واحتضن هاتفه يحرقه بنيران صدره... لم يلبث إلّا دقيقة إلّا ورن بين أحضانه وانقطع اتصال من مجهول... لم يكد يقع بصره عليه حتى زُرعت على وجهه وردة حمراء وعلى شفتيه ابتسامة عطف... كأنّها المحبوبة بين أحضانه، اعتصر الهاتف بين ذراعيه كأنّها هي... كأنّها أخبرته أنّها لوصول رسالته ممنونة له، معجبة بها، كأنّها تخبره أنّها بين أحضانها...

اتصل بها اتصال من مجهول وقطع، ردّا على اتصالها... كانت أفضل طرقهم وأسهلها للتواصل... من كان يظنّ أنّ مثل هذه الأفعال البسيطة تنقل أعظم المشاعر وتوصلها إلى قلب الحبيب... نعم إلى القلب مباشرة... مشاعر أنبل

وأعظم من أن تنحصر داخل كلمة وحيدة تدعى العشق، أقل ما يقال عنها أنّها وهب للنفس لأجل عيون الحبيب... لم يشأ لتلك اللحظة التي أحسّها أنّها تربطهما عن بعد، وتوصل المشاعر للقلوب، والأحاسيس للأبدان... لم يشأ لهذه اللحظة أن تمر مرور الكرام، وأردف قائلا لها عبر المسنجر:

أحبّك

أحبّك كلمة حين قلتها لك أحسستها

أحبّك كلمة أدمنتها حين أدمن الشّوق تمزيق قلبي

أحبّك في كلّ نفس لي، قلتها حتى صارت ذِكرا ليومي...

أحبّك وأحبّ عينيك جدا، أحبّيني...

أحبّك ومن عينيك لا تحرميني

أحبّك وأصرخ صراخ الغريق في بحر الحنين إليك... أنقذيني

أحبّك ولا أرجو جزاء لحبّي، أحبّيني

أحبّك أردّدها كالشهادة على فراش الموت بسهام رموشك، أعتقيني

أحبّك وأحترمك وأبوء بنعمة عطفك، تقبّليني

أحبّك وصرت مهزوما بجيشك، انصريني

أحبّك ولست أهضم الصبر، اعذريني

أحبّك وصمتك قاتلي، أنعشيني

أحبّك والشوق لك، لنظرتك، لصوتك، لبسمتك، لضحكتك ولكل تفاصيلك

صار يحرمني الإحساس بيومي... علّميني.

أحبّك ولست أُهْدَى لحلٍ، أنيريني

أحبّك ولم أألف العيش دونك، أجيبيني

أحبّك ولأجل قُربك تَذهب راحتي، فماذا لك أفعل؟ أجيبيني

أحبّك وماذا عساي أفعل من غير حبّك؟، أحبّك

أحبّك، أحبّك، أحبّك جدا.

صار صدره يشدو بحبّها، ينام برفقتها، يحتضن خيالها، حتى تنطبق الجفون وتنام العيون... لم يلبث حتى لحق بركب النّائمين... غارت النّجوم، وسلمت الأرواح للبارئ الحي القيوم... إلى غد جديد لا يعلم أسراره وخباياه إلّا الله.

* * *

مضت الأيّام معه ومع حبّه، أَحسّ كأنّه أصبح لوجوده معنى... خرجت نفسه من بحر عزلته الأليمة، وحطمت قوقعة وحصن الذاتيّة، وانتصرت على الأنانيّة... فأصبح البذل والعطاء والإيثار دون مقابل شعار أيّامه.

لكن استمرار عدم ردّها ورضاه القهري بذلك يبدو أنّه أصبح عادة لديهما، ويبدو أنّها غلطتهما... فإنه ورغم مواصلته الرّسالة تلو الأخرى والشوق تلوى الآخر غيّر أنّه أصبح يفضحه كبرياؤه بين الفينة والأخرى... فأصبحت تتخلل أيّام عشقه بعض الأيّام التي تمر دون أيّ شيء يذكر، وأخذت مدة هذه الأيّام تتزايد، أمّا مدة الشّوق والحنين المتوّجة بتواصل ورسائل... فأخذت تلك الحلوة تتناقص...

عدم التجاوب أحيا رضيع وحش اسمه الكبرياء، بدأ يكبر شيئا فشيئا من رحم مكابدة الصبر والانتظار... أخذ يمسكه هذا الوحش، يسيّره معظم أيّامه... يقنعه بعدم التنازل لها ساعة، وعدم جدوى مغازلتها ساعة أخرى... لكن هذا الكبرياء يختفي بمجرد صدور أيّ شيء منها... أصبحت حياته بين مد وجزر.

ظهرت النّتائج ووُفّق إيهاب وسلوى وشيرين في النّجاح دون الحاجة الى اجتياز أيّ من الامتحانات الاستدراكيّة، لكن حازم وفادي لم يفلحا وواصلا حظهما مع الفرص الأخرى.

فرح إيهاب بنجاحه بالعام الدّراسي كثيرا، كان يردّد كثيرا لشيرين أنهما هي وسلوى وجوه خير عليه... قرّر بعدها هو وشيرين التسجيل في فرع الهندسة

المدنيّة خصوصا بعد تأكيد تسجيل سلوى فيها.

رغب هو وشيرين التسجيل في هذه الكليّة التي كثر كلامهم الثلاثة عليها مدة عام كامل لكونها متميّزة وفرص العمل في مجال الهندسة المدنيّة كثيرة ومتعدّدة، من بناء إلى طرق وأشغال عموميّة...الخ

زادت أيّامه فرحا وسرورا وإشراقا بنجاحه، وتفاؤلا بغد أفضل خصوصا مع سلوى... سلوى التي طال سكوتها وصمتها الذي خلقت بفعله في نفس إيهاب هيبة عظيمة منها... هيبة واحتراما وتقديسا فاق الخيال...

جعله جمالها الذي سحب روحه... جعله حبّ جمالها عبدا خاضعا لها مسلوب الحريّة... استمر حبّه في الكبر والعظم لإيقانه أنّها تبادله نفس المشاعر... كانت طريقتها في التعبير عن حبّها رغم عدم كفايتها تُشعره بالرضا التام ويُغرقه هذا الرّضا أكثر فأكثر في العبوديّة للمحبوب وفقدان أيّ قدرة على معارضتها، والإحساس بالفرح العارم حين الظنّ برضاها وتقبلها للمغازلة ومبادلتها للمشاعر.

برهنت الأيّام أن الحبّ يعظم وينمو أكثر إن هو ولد عظيما وقوبل بالترحيب والخضوع... فصمتها، خجلها البادي من تصرفاتها أثبت صحة ظنون إيهاب برضاها التام عن كلّ كلمة قالها وكتبها لها... لا بل خاضعة تمام الخضوع لإرادته... لا تملك لنفسها طاقة أو رغبة في الخروج من تحت طوعه... سلمت له نفسها كاملة، لا تنتظر إلّا كلّ جديد، تصبو إلى الحل للقائهما من جديد من غير عقبات أكثر ممّا يأمل هو لهذا الفرج... تُمضي أيّامها مستمتعة أيما استمتاع بكلامه العسلي، الدّواء الذي يضمّد جروحها، ويشفي غليلها، ويسكت آهاتها، ويلهمها الصبر الجميل على بعده... كأنّه أصبح من واجبه أن يبعث بدوائه دائما يوميا، كوصفات الطبيب. وكيف لا يعتبره واجبه وهو المسؤول عن بداية هذه المشكلة... نعم تراها مشكلة وهي التي كانت لا

تقوى على فراق صوته يوما واحدا... فأجبرها الخجل من كلمات حبه على الصبر على فراق أروع نغماتها... واكتفاؤها بالانتظار أكثر منه لكيفيّة حل هذه المشكلة... فقد أعيتها المحاولات وأدمعت عينيها لعجزها وجبنها عن إسماعه صوتها أو الرّد على رسائله... رسائله التي كان يعرف كيف يزرع فيها السّم الذي يصيب دماغها بالشلل من فرط النّشوة... لم يترك لها يوم من أيّامهم التي أمضوها برفقة بعضهم البعض إلّا وشرح لها وذكّرها بمواقف كانت قد زرعت الحيرة في النّفوس وكان التعبير عن معناها غير متاح... كان جبل الخجل يمنعه... وضّح لها كلّ المواقف وفسرها لها وأخبرها عن عظم الحبّ الذي كانت تحمله تلك المواقف...

شرحه لتلك الأيّام أعاد عيشها من جديد بكلّ ما تحمله من مشاعر وألفة ولقاء وتمتع برؤية العيون وسائر مفاتن الحبيب... أصبحت تلك الأيّام حلما بعدما كانت سهلة وبسيطة التحقيق... ولكن شغفها بما يحمل قلبه أضحى إدمانا، أصبحت حروف الكلمات بلسما يحمل الشّفاء... لا تحمل قدرة في خلدها تستطيع معه أن تصبر على عدم وصول رسالته أكثر من يومين... تُسارع دائما للمطالبة بحقها فيها بطريقتها الخاصة، تأخذها منه بلهف وشغف كأنّها ابنها، لا يطفئ لهيب صدرها إلّا هي... تضمها وتضم حروفها لتسكت لهف قلبها الذي لا تعلم ما الذي جرى له...

لم تعهد في حياتها هيجانا ولوعة وحرارة ولهيبا وخوفا ورعبا ونشوة وحنانا تضني كلها قلبها كمثل إحساساتها خلال هاته الأيّام الممتعة، ذابت صبابة بلهيب حبيبها... سلمت له نفسها... ليحرق ذاتها... ويمحقها داخل نزوته...

أذهب انتظارها رسالته النّوم من جفونها... شوقها للحروف علّمها السّهر... حتى تنال مرغوبها... وتنال معه راحتها حتى ينزل على قلبها لوع وشوق جديد لا يبعد إلّا مسافة غروبين أو شروقين.

كانت حقيقتها أعظم من خيال إيهاب... مهما توقع إحساس قلبه حالها لم يكن ليصيب إلّا بضع شعورها... كانا يتنافسان في الرّضوخ والخنوع والعبوديّة لرضا الآخر... كانت آهاتها وصرخاتها تدوي سماء الليل... يقتلها بكلماته حين يلحّ في طلب ردّها على توسلاته... فتخنقها صرخاتها وألمها لأنّه لا يعلم مدى توجعها لعدم قدرتها على إرضائه وكتابة ردّ مناسب على كلّ حرف كتبه لها.

كانت تذرف له عن كلّ حرف دمعة لكي يسامحها لأنّها تأخرت في الردّ وتركته يتوسل وهو المالك لحالها... تتقلب على الجمر كلّ ليلة ألف مرة... لا تقوى على معاندة ومقاومة شيء عظيم كان يقف بينها وبين كتابتها لأحرفها... كان خليطا من رعب عظيم ورعشة قاتلة لا تفارقها إلّا عند تركها لفكرة الكتابة من أصلها.

كان هذا الشّعور لا يستطيع فهمه أحد إلّا إيهاب فهو ينتابه كلّ مرة يريد فيها فضّ هذه المعضلة ومهاتفتها مباشرة... كان يتملكه مثل هذا الوحش حين تغزو عقله مثل هاته الأفكار... لا تتركه الرّعشة والرهبة إلّا عندما يتنازل عن قراره... لهذا لا يعذر الحبيب إلّا الحبيب ولا يفهم العاشق إلّا عاشقه...

لحسن حظهما أن عظم عشقهما بلغ بهما أعلى درجاته فراحت الأرواح تتخاطب وتتفاهم ونقلت كلّ الحال وتفصيله... وخلق لهم اللوع وشدّة الشّوق وعظم حبّ الوحدة للانفراد بعشق الفؤاد وذكرى الوريد وحضن الوساد ألما لفقد الحبيب... حاسة سادسة من كلّ ذلك انبثقت لهما... لثم وقوة حضن... أحسّا بحق وجود الحبيب... أحسّا الشّفاه تعتصر الشّفاه... أحسّا لهيب الفم المعطّر وعصر الذراع لِلُقيا الصدور... عانت من تخاطرهما وتناغم قلوبهما وتواصل أرواحهما الوسائد.

* * *

مرت الأيّام ومضت ساعاتها... واقتلعت بلهيبها مسامير لحد الصبر... لم يبق منه ما يسكت الفؤاد ويمسكه داخل قفص الصدر... ولكن رب العزّة رحيم حين يطلع بصعوبة الأمر.

فانفطار قلب سلوى لتعظّم كبتها لحبّها وإعلان مشاعرها... وحُرقة العين لرؤية صاحب الرّسائل مصلح دائها... أحزن ذلك كله الجسد والروح... فقادها الشّوق وهَمّ عيونها لفرح قريب... فعما قريب يُلمح الحبيب.

من شرفة بيت جدتها لأمها لمحت القاضي على كرسي المقهى جالسا كالنسر... يرتشف قهوته... فحسدت الكأس على لثم فاه... لم تُصدق الفرحة فلم ترمش للحظة... تبتلع بنظراتها كلّ حركة لفارسها... تطفئ بطول النّظر طول الصبر والقهر.

نطقت ضاحكة من حسن حظها... وقالت لدائها معاتبة - أنت هنا يا دوائي وأنا أتجرع لِلقياك قناطير الألم... إذا كان هذا مكانك فهذا مكاني --.

فطلّقت مذ ذاك اليوم بيت الأب والوالدة... فتضرعت لأمها أن تطيل المقام في ثكنتها لحراسة قلبها... لحراسة الجاني عليها والقاضي... لتسجيل كلّ حرف من حركاته إن هو خاطر بنفسه واقترب من مرمى الثكنة.

لم تستسغ أختها يارا ابتعادها غيّر أنّ الحيرة من تبدّل حال أختها بدأت تشغل بالها... فكثرة شرودها الذي اختلط بتورّد وجنتيها وشفاهها بشكل لم تعهده بها... إلى جانب طول السّهر حتى شكّت أنّها لا تنام... ففي كلّ وقت تقوم في ليلها إلّا وتجدها ليست من القوم النّائمين.

تسألها فتجيب عن طول السّهر... عن أرق تحدثها يؤرق جفونها كلّ ليلة يأبى هجرانها... حتى أعيى السّهر معها القمر.

لم تقدر الأخت سبر أغوار العاشقة... ولم تقرّر العاشقة البوح بسرها الورديّ رغم العذاب... بل لم تفكر في مشاركة أحد لأجمل أحلامها... فأحلى

ما في حكاية عشقهما أنّه سرهما.

وما الكتمان إلّا أخ العشق وكيف لا وهيامها ولهيبها مكتوم حتى على الحبيب... فلم تأبَ إلّا القتال بأتفه أسلحتها... وكيف تقاتل من حاصر القلعة وأسر جنودها وأطاعت له كلّ جوارحها... بل حتى قلبها خان العهد واستسلم لقانون الطاغيّة المبجل.

فلم يبقَ إلّا عجزها الحليف الوحيد... الحليف الذي أطال الفراق وأعيى الجفون في مراعاة ما يصل إلى شاشة التليفون... ولكنه برز كأقوى الجنود... أرضخ وسيُرضخ فلول الطاغيّة... يأبى أن يستسلم حتى بعد استسلامها وخنوعها لعدوها بعد مكابدة القهر والصبر مع مغاوير عشقه وحقدها الأعمى على البعد عنه... رغم أن كلّ شيء في معادلة عشقهما لصالحها... فكلماته التي تأبى أن تتركها وحيدة في سهرها كانت الأولى... والثانية أن أغدق الله عليها أُنسا لوحدتها ووَجدِ أنوثتها ورِقّة حالها أن لاقى عيونها بصاحب الضفة الأخرى... لينسيها حزنها لفرط لُطفها وسقوطها الكامل في بحر عيونه... بعد أن فرضت عليها فرحتها بحصولها على اعترافه بحبّه ضريبة بدأت في حلاوة وأضحت مؤلمة... فعجزها بعد عجزه أمسى مشكلة.

أما هو فمسكين لا يحفل نصيبه من المشكلة إلّا بإلقاء كلّ طاقة عشقه في حروف رسائله... فلا رسالة منها وصلت لتقتل طول انتظاره... ولا خيال جمالها وفتنة عيونها اقترب ودنا منه ليطفئ لهيب انتظار شروقها.

فانتظر وانتظرت وانتظر وانتظرت حتى حال حالهما عادة... هي تبغي طول ساعاتها جديد حروفه... وهو يخاف في مرور دقائقه أن تغفل أو تنسى تأجج جهنم صدره... لعدم صبره... لعلها تشاركه فتحلى أيّامه وأيّامها.

* * *

الدرجة السادسة

المثقف

سوزان

المثقف

ســوزان

طال أمرهـم وأكل مـن الوقـت مـا يقـارب الشّـهر... احترفـا فيـه العشـق والحـبّ... احترفـا لعبـة الصبـر كالتنويـم المغناطيسـي... فأصبـح الانتظـار بلهفـةٍ لـبّ موضـوع الأيّـام... فأصبـح المسـتقبل يلـوح بيـن عينيهمـا كأنّـه أعـوام مـن العسـل... يغرقهمـا الأمـل فـي وصولـه فـي نشـوة لا تنضـب... يريـان الأيّـام بنظـرة متشـابهة... فليسـت إلّا هـي أيّـام صبـر قبـل أن تجعـل أيّـام الدّراسـة مـن الصعـب سـهلا... وتلقـي كلّ واحـد منهمـا فـي حضـن الآخـر رغمـا عـن أنفهمـا... كأنّهمـا يريـان يـوم التقـاء الرّوحيـن يـوم عرسـهما... يـوم تقبيـل وحضـن القلبيـن المعذبيـن لبعضهمـا بأشـدّ عاطفـة.

كان الأمـل فـي وصـول تلـك الأيّـام هـو مـا يمضـي أيّامهمـا بأقصـى سـعادة كنشـوة السّـكران... كالعاشـقين المقبليـن علـى عرسـهما الآتـي فـي الأفـق... هـي بخجـل العـروس تتدلّـل عليـه... وهـو بتفهـم لدلالهـا وغنوجهـا يـداوي الأسـقام

ببلسم حروفه... تُنصت حين يأفل صبرها لضربات قلبه ونبض حبّه بمكالمتها المجهولة... فتُحيي نفسها وتحييه بتلك الدّقيقة... وتُرجع قطار العشق إلى سكته... وتزيد فرحا للقلب الصابر... وتُجلسهما فوق السّحاب... فيريان الدّنيا بغير سابق النّظرة... فيُلقى التبسم على المحيا ويصير التيه والسرحان عادة... وتُلقي قوقعة الغرام على الظل خفة وعلى الوجنة تورّدا... وللجسم انطلاقا وارتياحا.

مضت على هذا المنوال عدّة أيّام قبل أن تلوح في فكر إيهاب خطة لتمضيّة فصل الصيف كعادته... فقد كان حبّ السّفر أقوى هواياته... فجمع بين حبّ السّفر وإمضاء عطلة جميلة بفكرة واحدة... فنقص موارده الماليّة يقصيه من هذه الأحلام إلّا إذا اخترع حلا.

وكان الحل قد حسم أمره في أعوامه الماضيّة... فقد أصبح من عادته إمضاء صيفه عاملا في أحد الولايات السّاحليّة الخلابة... لا يهم نوعيّة العمل... المهم أن يجمع بين قرب الشّاطئ وزهوه وبين مصدر القوت والإقامة... فيُرضي بذلك الرّغبة الجامحة فيه بالتجديد... فولايته سكيكدة رغم انفجارها بأبهى الشّواطئ إلّا أنّها لا تحمل لتعوده عليها أيّ جديد يذكر له... فيصبو دائما لأبهى الأماكن.

كانت أوّل مغامراته أن عمل نادلا في مقهى على شاطئ (شابي CHAPPI) في قلب مدينة عنابة (جوهرة الشّرق الجزائريّ)... وفي الصيف الذي سبق الماضي كنادل في مطعم على شاطئ جيجلي (في مدينة جيجل الخلابة بشواطئها وجبالها الدّائمة الخضرة).

ولولا انشغاله صيفه الماضي بالتفكير في حلمه الميت كضابط لاغتنمه كذلك في مغامرة جديدة...

أما في هذا الصيف فقد لمعت في ذهنه فكرة العاصمة... فقد كان من

أشدّ عشاقها.

لا يجب أن يشاركه بشكل محتم أحد في هذه المغامرات... فإن كان يراها هو متعة في تجريب مكان جديد مع ضمان المبيت والمصروف... فقد يعارض أصحابه ذلك التفكير ويرون أنّه من غير اللازم العمل بعيدا عن المنزل.

لذلك لم تكن دائرة الموافقين على هذه الخطة عريضة... فأخذ رفقته فيها في التناقص... فقد كان شاهين هو مفضلهم ولكنه انخرط في صفوف الدّرك تاركا صفوف الدّراسة... لذلك لم يعد إيهاب يهتم كثيرا لوجود الرّفقة بقدر ما يهتم بحسن اختيار المكان... فالرفقة شيء لن يَعدَمه هناك... فمثيلو تفكيره كثيرون من شباب مثله في عمر الزهور سيلقاهم في انتظاره أين ما يذهب.

لم يكن عليه كلّ صائفة إلّا البحث في بعض مواقع العمل المطروحة على الأنترنت... واصل البحث حتى رست سفينة بحثه على عدة اختيارات... جرّب الاتصال بهم حتى وافق أحد المجمعات السّياحيّة الفندقيّة الشّاطئيّة على عمله كنادل موسمي في مطعمه... كان مجمعا فندقيا راقيا من ثلاث نجوم على مقربة من شاطئ سيدي فرج غرب العاصمة.

في الفندق

تلقّى ذلك القبول بالحضور للتجربة بفرحة عارمة... وكعادته لم يُطل توضيب حقيبته متوجها بسرعة إلى محطة المسافرين بعنابة ليبتاع تذكرة الرّكوب في ليلته تلك.

ركب حافلته على الواحدة ليلا بعد أن انتظر عبورها بجانب موقف الحافلات بالحي المحاذي لسكناه المدعو حي بومعيزة.

كان وصوله على السّادسة صباحا... لبث في - الخروبة -محطة المسافرين للعاصمة حوالي السّاعة... استعاد فيها لياقته البدنيّة بعد تعب السّفر... بكوب من الحليب تلاه كوب من القهوة السّاخنة مع حبة من البقلاوة المعسلة.

انفرد بعدها بسجائره وقهوته يحارب بهما النّوم المطبق على جفونه.

لم تبلغ السّابعة حين خرج متجها إلى محطة تافورة ليعاود منها الرّكوب إلى سطاوالي ومنها إلى سيدي فرج التي تبعد 20 كلم عن تافورة.

تأخّر وصوله لازدحام السّير -لكون كلّ المسافة حضريّة-إلى غاية التاسعة صباحا.

سأل حارس باب المجمع فأرشده بالدخول إلى مكتب الاستقبال... خطا خطواته الأولى متأملا باحة الفندق الخارجيّة الواسعة ومباني المجمع الذي أعطته انطباعا عن رُقي المكان وعمله.

أيقن أن العمل في مثل هذه الأماكن كالفن يستلزم إتقان حركاته... سرح فكره عمّاذا يمكن أن تحمل جعبته من إتيكيت وانضباط وحسن استقبال للزبائن يمكن أن يرضي بها رب العمل... فقد كانت تجاربه في المطاعم والمقاهي العاديّة فقط... لمعت عيناه للأمر برمّته كأنّه تحدٍّ جديد يستلزم منه الإتقان بسرعة لتنجح خطته في تمضية أسابيع إجازته في كنف هذا المكان الرّائع.

طلبت منه موظفة الاستقبال الانتظار عند الباب حتى تنهي مقابلتها مع أحد -الموظفين... انتظر عند الباب يفكّر في المقابلة وكيفيّة إنجاحها.

تبادل حينها الحديث مع غاسل أطباق في مطعم المجمع تعرف به عند الباب يدعى سيد علي.

لبثا حينا حتى خرجت فتاة شقراء في قمة الجمال من باب الفندق ممشوقة القد كعارضات الأزياء... تلعب يدها بخصلات شعرها الذهبيّة... أقبلت في اتجاههما تمشي بخطوات رشيقة فاتنة متلاعبة بحوضها على أوتار كلّ النّاظرين... وأفخاذها المكتنزة المنحصرة داخل سروالها الورديّ الضيق المقطع في ركبتيها مبينا قطعتين ناصعتي البياض كأنّها مصنوعة من العاج المذهب... كانت متحوفة الشّكل والمحيا... ممزوجة بين جنسها الآري وكحل عينيها الصناعي ولباسها المغري الفضفاض الذي يغوي أكثر من أن يستر... نظرة من عينيها العسليتين تُجمّدك في مكانك لا تريد إلّا المزيد منها.

اتجه موضوع الكلام إليها حين ملكت نظرهما بشروقها... استرسل سيد اعلي في الحديث والعيون مشرئبة تجاهها.

إنها نزيلة هنا هي وأختها... هما ابنتا رجل أعمال قويّ هنا في العاصمة... يأتيان للاستجمام هنا في المسبح بعيدا عن العيون المزعجة.

وعضّ على شفته السّفلى متأوها... آه... لو رأيتها بالدو بياس الأحمر (لباسها الدّاخلي) لأصبحت كالطورو في هيجانه (الثور الإسباني)... لديها جسم قاتل... حتى أختها الصغرى أيضا مثلها.

هي ومثيلاتها من يزرعان البهجة في المسبح كلّ مساء.

كانت كلماته تزيد من اتساع بؤبؤ عيني إيهاب وتركيزه فيها وفي مفاتنها... تركيزه الذي جلب مع اقترابها نحوهما انتباهها له... يبدو أنّها أعجبت به فهي لم تُسقِط عينيها من عينيه مذ التقيا.

لم يفعل إيهاب شيئا فالإمعان فيها يزرع الجمود في الجسم... سرحانه في داخل عينيها حين انتباهها له سحرها... كأنّه يريد أن يعرفها شخصيا عارية من أيّة محسنات بديعيّة.

كانت لحظة صغيرة لكنّها بقت في الأنفس... جذبت بعدها نظارتها من شعرها الغجري زارعة ابتسامة خجل صغيرة على شفتيها... وفتحت بعدها باب سيارتها الأودي Audi A1 البيضاء مكشوفة نافذة السّقف... زادت السّيارة من جمالها... ركبت ومضت خارجة من الباركينغ مودّعة إياه بلمحة خفيفة... وزادت النّغمة التي اندلعت من داخل سيارتها من جاذبيتها.

زرعت فيه شيئا جميلا... شيئا مثيرا... شيئا جنسيا... لم يأفل لمدة... حتى أنّه أراد أن يسعى وراءها وينتظرها عند الباب الخارجي... أصبح يرى في مقابلة العمل كالحاجز بينهما.

غيّر أنّه أمسك نفسه بعد أن قال له سيدعلي أنّه هذا هو مكانها كلّ مساء وتبيت في بعض الأحيان مع أختها وصديقاتها... يُهوّلن المطعم بصخبهن وأشهى الأطباق... ينتقلن بعدها للزهو في شقتهن الفندقيّة رافعات صخب

الموسيقى بالرقص والويسكي.

تفاجأ ويسكي !... وازدادت رغبته وهيجانه الغريزي.

لبثا متأوهين مستهزئين بأنفسهما لعدم قدرتهما على ليال حمراء مع مثيلاتهن وفي ظروفهن.

ذكّرته لياليها بلياليه هيجان مراهقته... لم تكن ينقصها إلّا مثيلاتها من الفاتنات.

دخل بعد خروج الموظف إلى مكتب الاستقبال... استقبلته المسؤولة عنه وكانت أربعينيّة جميلة تدعى مدام سهام.

جلس بعد أن سلم عليها وأفهمها أنّه يريد منصب الشّغل الذي وضعوا إعلانه في الأنترنت.

طلبت الملف فسلّمه لها... بعدها أمسكت بهاتف مكتبها طالبة شخص اسمه عمي محمود قالت له أن المتربص قد حضر.

بعد دقيقتين حضر وكان رجلا خمسينيا أبيض أصلع الرّأس مقبول الشّكل قصير القامة عظيم البطن والأرداف.

كان عمي محمود مسؤولا عن المتربصين الجدد في المطعم... أخذ بيده واحتضنه ضاحكا محاولا إذابة الجليد بينهما في أوّل مقابلة... ثمّ مضيا وسأله متبسما: هل اشتغلت في مثل هذا المكان من قبل؟.

أجابه كاذبا: نعم اشتغلت كنادلٍ في فندق الرّيم الجميل (أربعة نجوم) بشاطئ طوش بمدينة عنابة... كانت فترة شهرين في الصيف فقط لأني أدرس في الجامعة...

وأضاف صادقا: أنّه اشتغل كثيرا في المطاعم والمقاهي الرّاقيّة والعاديّة خلال العطل الصيفيّة...

نظر له العم محمود فاحصا صحة كلامه... وقال له مطمئنا إياه: سوف

أساعدك لتتقن عملنا ولا تقلق فكل الذين أتوا أتقنوا كلّ شيء في يومهم الأول...

كانت كلماته تشجيعيّة جدا... أخذ بيده بعدها إلى المطعم وعرّفه على تامر وإياد نادلا الاستقبال هناك... استلطفهما إيهاب كثيرا... كانا في مثل عمره وسيمي المظهر وخفيفي الظل...

كانت السّاعة تشير إلى الحاديّة عشر عندما أشار إليه العم محمود بتتبعه إلى الأسفل... حمل حقيبته ونزل معه... أخذه إلى غرفة نومه التي سيتشاركها مع تامر وإياد.

تركه هناك لساعة زمن حتى يسترجع أنفاسه... بعدها يأتي لتامر ليرشده لمكان وجبة الغذاء في المطعم...

المثقف

استلطف المكان التحت أرضي... كانت في حوزة الغرفة خزانة رباعيّة الأبواب وثلاجة صغيرة وتلفاز مسطح الشّاشة أربعين بوصة.

استلقى في سرير من الأربعة الموجودة... كانت برودة المكان تبعث في الجسد الانتعاش والغفيان... كغرفة مكيفة... ألقى حقيبته في جزئه في الخزانة... واستسلم للنوم بعد أن عدّل منبّه الهاتف ليوقظه بعد ساعة...

سقطت جفونه سريعا فكان نومه ثقيلا لأنّه لم ينم ليله... أيقظه بأعجوبة صوت المنبه...

أدرك صاحباه في الغرفة الدّاخليّة للمطعم... عرّفه إياد ببقيّة فرسان المطبخ من الطباخين إلى المساعدين ووجد هناك سيد علي... تناول غذاءه الذي طلبه على استحياء...

بعدها كانت الخطة أن يبدأ مباشرة مع إياد وتامر الشّغل... ويستغل رفقتهما للاطلاع عن كثب على طريقة العمل وتوقيت كلّ فصل فيها.

كان الغذاء مزدحما واستمر لغاية الثانية بعد الظهر... فالمسبح الرّاقي كان

هو الجالب للزبائن...

أحسّ بالتعب لأنّه يومه الأول... وبعدها جاء فصل تلميع ومسح الطاولات والأرضيّة الذي دام طويلا لكبر مساحة قاعة الإطعام... أحسّ بعدها فعلا بالإنهاك.

أقبل عليه تامر ضاحكا بعد أن رأى علامات الإعياء باديّة على وجهه...

وقال له: (زيّر روحك كون يشوفوك عيان يْسَحتوك) أيّ أبدِ لهم أن الشّغل بسيط عليك... يَلزم عليك هذا في هذه المرحلة حتى يقبلوك في المنصب... ثمّ أعلَمه أنّه في الغد يأتي رابعهم... وسيصبحان ثنائيان كفريقين ينظمان العشاء والغذاء...

بعد أن انتهى حوالي الرّابعة مساءً اضطر للرجوع إلى غرفته ليستريح لأنّ المباراة ستدخل في شوطها الثاني على الخامسة مساءً... أيّ بعد ساعة فقط...

المثقف

ألقى بنفسه مهزوما على سريره واستسلم لشوط آخر من النّوم... أمّا رفيقيه فبقيا في السّاحة يرتاحان بكوب من القهوة والسجائر... السّجائر التي يزيد منعها أثناء العمل في الرّغبة فيها.

لم تطل تلك السّاعة في ذهن إيهاب... فلقد رنّ المنبه بسرعة أزعجته فقام بعده ممتعضا لمرور الوقت بسرعة... صعد للعمل مجددا.

مرت تلك الليلة بتوتّر لكنّها لم تكن بمثل ضغط منتصف النّهار... لأنّه لا يتناول العشاء هناك إلّا النّزلاء الذين يبيتون في المجمع الفندقي من سواح أجانب ومن الولايات الأخرى... خلافا للغذاء الذي كان معظم رواده من زائري المسبح الذي يحفل بالعائلات العاصميّة الرّاقيّة ذوات الدّخل الرّفيع...

سحب التوتّر كلّ تفكير إيهاب إلى ذلك المكان فحسب... فأمسى لا يشغل باله إلّا تمضية ساعات العمل للوصول إلى فترة الرّاحة ليعانق سريره من جديد... أثر فيه ذلك اليوم كثيرا... فخلد للنوم مبكرا... فرحا لتأخر عمل الغد

إلى ما بعد العاشرة والنصف... كان الفطور يُنشّطه فرسان آخرون... نام نومة العروس كالسكران... لم ينهض من فراشه إلّا بدعم المنبه كعادته على التاسعة والنصف...

نهض متثاقلا فتفاجأ بدخول عمي محمود الغرفة عليه بصحبة شاب غريب... لقد كان محمد الشّريف الوافد الجديد كنادل استقبال... كان آتيا من ولاية البليدة مدينة الورود المجاورة للعاصمة... كان فتى أسمر أمرد يبلغ الثامنة عشرة من العمر وسيم الهيئة كمعظم الشّباب الجزائريّ قويّ البنيّة رياضي الجسم واللباس... لمّا ألقيا التحيّة عليه أوصاه العم محمود بشريف بأن يجلبه معه في الموعد المألوف...

لبثا قليلا حتى عدّل إيهاب من هيئته جيّدا وخرجا قاصدان المقهى... تناولا الفطور معا وجلسا ينتظران في ترقب موعد العمل... وبينما هما كذلك حتى خرجت من بعيد فتاة الأمس الفاتنة متوجهة بسرعة لسيارتها... استغرب أمرها وكيف أنّه لم يلمحها في المطعم ليلة البارحة إن كانت من النّزلاء... مضت خارجة دون أن تلمحه.

انضم لهما إياد وتامر... كانا في نزهة على الشّاطئ... جلسوا يتعارفون مع شريف ويطفآن آخر سجائرهم قبل بدء العمل... حينها أتى العم محمود بخبر مفاجئ... لقد حدّدوا الفريقين... كلّ عضو قديم ينسق مع الوافد الجديد... فكانت من نصيبه وتامر تنسيق وجبات العشاء...

فرح إيهاب كثيرا لذلك... مضيا للغرفة بعد أن أعجبته فكرة تامر بتمضيّة اليوم على الشّاطئ... أخذا الشّمسيّة والكراسي وانطلقا بزهو على المحيا... كانت شواطئ العاصمة مميّزة كعادتها وخاصة منطقة سيدي فرج فشواطئها ناعمة الرّمال كالصحراء... كان الشّاطئ المخصص لنزلاء فندقهم على مقربة من مكان جلوسهم... رُتّبت شمسيات النّزلاء فيه بإتقان... كانت مصنوعة

بحرفيّة من القش والبردي اللذان يُكيّفان الجلسة بامتياز.

تعمدا الابتعاد عنه لتجريب منطقة جديدة في الشّاطئ العملاق الذي يمتد لعدة كيلومترات... أمضيا كامل وقت الظهيرة في الماء دون كلل... كان دفء وشفافيّة المياه من أغراهما.

بلغت الثانية بعد الظهر حين أومأ له تامر بالرجوع للمجمع للغذاء والاستحمام والتمدّد قليلا لكي يبدآ العشيّة بنشاط... ساعات بعدها وأتت مناوبتهم... ابتدآها بنشاط.

كانت السّاعة تشير إلى الثامنة مساءً حين طلب منه الطباخ إيصال وجبة سريعة إلى المسبح... إلى الطاولة 35... حملها بسرعة متوجها للمسبح يحمله الفضول... وصل مترنحا يبحث عن مكان وضع الأرقام في الطاولات... كانت عبارة عن طاولات صغيرة قصيرة توضع بجانب الكرسي الممدّد الطويل... وجد مكان الأرقام... فواصل البحث سريعا حتى وصل لمكان السّيدة... كانت فتاة في العقد الثاني ممتلئة الجسم كمثيلاتها من بنات العاصمة تتمتع بمواصفات عارضة الأزياء من احتراف الأيروبيك في صالات الجيم التي انتشرت انتشار النّار في الهشيم في العاصمة وعواصم الولايات... بدأت علامات البرونزاج تبدو على جسمها النّاصع البياض كأنّه بحر من النّجوم عند انعكاس الأضواء المتعدّدة الألوان عليها... أعجبته إطلالتها لكنّه لم يُبد لها أيّ شيء لالتزامه المهني... سلّم عليها وسلّم لها الوجبة.

مشى خطوات بعدها لا تقع عيناه كرجل إلّا على معشر الفتيات السّالبات للأنظار بجمالهن ولباسهن... فكيف حين تكون كلّ أشكال المايوهات القاتلة هي آخر ما تلتحف بها أجسادهن الرّاقيّة... كقطعة زبدة حلوة... ساترة عورتها بخيوط... تاه في حسنهن الشّباب... الذي أصبح يدعوهن بالباربيات... نسبة للدميّة الفاتنة باربي... لكونهن يتسابقن على التشبه بها...

مضى يلمحهن في طريق العودة بسرعة... حتى تفاجأ بيد تلوّح له... كانت فتاة... اقترب منها... لم يستوعب ملامحها بسرعة... لأنّ الأضواء المسائيّة المتناوبة من البنفسجيّة إلى الخضراء إلى الحمراء إلى الصفراء إلى الزهري... تضفي على الإحساس نشوة كأنك في عرس أو في أحد البارات والملاهي... بعد اقتراب فهم صورتها... كانت هي... نعم أنّها الشّقراء... دنا مبتسما...

بادرته القول: مرحبا بك عندنا...

ردّ الترحيب في استحياء: وبيك يعيشك...

إذا أنت جديد هنا قالتها مبتسمة مُركّزة في عينيه...

نعم ويقولون -الجديد حبو (أي أحبّه) -قالها بينما راحت عيناه تغرق وسط بؤبؤها...

ضحكت وأكملت له المثل: -والقديم لا تُفرّط فيه -وأومأت له أنّها هي القديم.

ضحك منتشيا بأحوال وجهها الفاتن: واش يحبّ منّي القديم نديرهولو (أي كلّ ما يريد منّي سأفعله له) قالها لها بعد أن دنا منها أكثر كأنّه أراد من الجملة أن تكون كالسر خافتة الصوت...

ابتسمت ناظرة إلى شفتيه بشهوة أيقظت شهوته... كان قريبا من شفتيها... منطقة الخطر... استدركت الوضع منتبهة: أريد منك سندويتش شاورما كوكتال مع قليل من الهريسة وقنينة كوكا كولا.

حينها صرخ صوت أنثى من المسبح... سوزان سوزان... انتبهت لها الشّقراء... وضحكت لإيهاب قائلة: آآآ كدت أنسى... هات اثنين إنّها أختي الصغرى تيماء...

ابتسم لها معجبا باسمها الموسيقي وقال: فعلا الأسماء الجميلة للجميلات... ونظرت في عينيه ضاحكة النّفس.

بعدها استسمحها الانصراف ولم يكد يتحرك حتى أزالت فوطة الاستحمام التي كانت تلف بها جسمها... أزالتها وأزالت وعي إيهاب معها... كانت كحوريّة الجنة في استدارة مفاتنها... مضت أمامه تقتله بطعنات خطواتها التي يهتز لها كلّ شبر فيها شبه عاريّة لا تضع على جسمها إلّا قطعتين صغيرتين باللون الزهري... قصمت تلك المفاتن تحكمه في شهوة جسمه المراهق... ضحك قلبه على ذلك الوضع ومضى بعد أن ألقت بنفسها في المسبح إلقاء المهرة من السّابحين... بالغت قبله بالتنطط متعمدة ذلك لتحكم قبضتها على إدراكه حين تسلبه بارتعاش جزئها السّفلي... مضى في طريقه خجولا من أن ينتبه أحدهم لهيجان جسمه... فلقد وقعت تلك الفتاة على إيقاعه... لم تكن كمثيلاتها من الفتيات الباربيات... رغم كثرتهن على حواف المسبح.

لبث قليلا في صالة الإطعام إلى أن جهزت طلبيتها الذي كان حارصا عليها دونا عن سائر الطلبيات... كانت سببه للرجوع بسرعة... وكانت سببها لرجوعه... صعد بأكل الشّقراء يتلهف للمزيد منها... لمحته حين وصوله فسارعت بالخروج من المسبح متثاقلة الخطوات دارسة مكان وضعها كعارضة الأزياء... تاهت عيونه صاعدة نازلة مع تلك الأيقونة التي يكاد بياضها أن يضيء المكان...

خجل بعد اقترابها أن يركز في أرجائها الحساسة... فأعاد نظره إلى بؤبؤ عينيها ذات الأشفار النّاحرة... وأعطاها الطلبيّة مصحوبة بالبطاقة التي تدفع بها ثمنها عند المغادرة وبطاقة أنيقة أخرى كتب فيها اسمه ورقم هاتفه وعبارة (لأجل العيون الآسرة... نحن في الخدمة في كلّ مكان وزمان)... لمع بريق في عينيها... كان هاتفه ما تريد...

شكرته بغنوج قائلة: Merciمقتربة شبه عاريّة أمامه في مشهد ملائكي أضفت ألوان الإضاءة الزاهيّة عليه هيئة الأحلام... وأثار العبق القاتل المندلع

من صدرها بقوة حفيظته... كادت تقتلع برائحتها الزكيّة روحه فانتفضت فرائسه تحضّه على النّهم منها... كان شذاها المنعش يعمل كمغناطيس يحثّ شفتيه على الالتصاق برقبتها لثما...

أمسك بعد جهد نفسه منها وطأطأ رأسه خجلا من مفاتنها... وانسحب إلى الوراء مستسمحا إياها الرّجوع للشغل...

كانت أغنيّة الشّاب خالد (هذه الليلة C'est la nuit... C'est la nuit) تملأ الأجواء..

أومأت بإصبعها لهذا المقطع المعاد من الأغنيّة... مركزة جيّدا في مقلتيه... تبغي انتباهه لمعنى دفين في المقطع... وقالت له تشدو مع الكينغ خالد:

C'est la nuit... à la nuit à la nuit.

لمعت عيناه واتسعت حدقتاه معجبا بفطنتها وبحسن اختيار اللحظة العفويّة ومفاجأ بمعنى حركتها الإيمائيّة التي لم يفهمها جيّدا... فقد جعلت عقله يهيج بهاته الفكرة كمن وضع البنزين على النّار... ردّ عليها بسرعته الخاطفة في الفهم بحركة صاعد نازل من رأسه راقصا مع الأغنيّة... كانت شفاهه مبتسمة والعين تملؤها الذهول في ماذا ستحمله له هذه الليلة العسليّة المباركة؟

ضحكت له مودعة مومئة ثانية بإدارة إصبعها تقصد فيما بعد...

مضى ضاحكا مكتفيا منتشيا... مضى سعيدا إلى عمله... أزالت تلك اللحظات التوتّر الذي كان يحسّ به خشيّة عدم إتقانه العمل المنوط به... فهو كمثله من الجزائريين يعدون العمل وإتقانه...

مضت مع السّواح الأوروبيين والعرب الليلة في جوّ ممتع... لم يأخذ باله من جريان رقاص السّاعة حتى أشار إلى السّاعة العاشرة ليلا... دقت النّهاية وبدأ العد العكسي لترك المكان نظيفا كما كان... رنّ هاتفه... أهلا... أهلا

سوزان... لعب صوتها بجوهره... طلبت سنويدشين آخرين.

قال لها: وبعد ذلك؟... لأنّه يعلم أن المسبح قد أغلق أبوابه...

ضحكت: أنا في الغرفة 21 الطابق الثاني...

تردّد قليلا ثمّ قال لها: أرجو منك الصبر لأني لم أتم عملي بعد.

لا مشكلة أجابته... لكن لا تنساني أرجوك... كان صوتها ذبلانا.

OK لا تقلقي.

بعد جهد ضَنِيّ وضعوا آخر الرّتوشات في توضيب قاعة الأكل... استأذن تامر وحمل طبقا أعدّه جيّدا وصعد به درجات الفندق مكلّما إياها هاتفيا أنّه آت... انتظرته عند الباب...

فاحت منها عند فتحها الباب رائحتها الزكيّة التي تهيّج الذكر وتنومه مغناطيسيا... ظهرت على عينيها نشوة وانطفاء ظنّهما مداعبة النّوم لجفونها... كانت قد غيّرت ملابسها وارتدت قميصا قصيرا أسودا فضفاضا عاريّة الكتفين مع تنورة قصيرة حمراء... مسدلة شعرها بخصلاته الشّقراء الحريريّة على صدرها العاجي الممتلئ الذي جعله الجيد المنخفض للقميص يبدو آسرا لمن يراه خصوصا عندما أشارت زمردة سوداء منسدلة بسلسلة من الذهب الأبيض البراق إلى شقه القاتل...

استقبلها بوردة حمراء كان يخبّؤها وراء ظهره أتى بها لتنافس شذاها الذي أيقظ حِسّه المرهف... أمسكت يدها العاجيّة بها... صُدِم بصره بعيون المها... أشفارها تؤذي كأشواك الورود... استبقته الحديث وأمسكت بذراعه بلطافة ساحبة إياه للداخل في هدوء... دخل غرفتها وتفاجأ بشساعتها ورُقيّها الخالص... أوّل ما لفت انتباهه بعد أن أحكمت غلق الباب وراءه... هو وحدتها فسألها عن أختها... أجابته أنّها لم ترض المبيت هنا وذهبت للبيت قبل قليل.

إذا أنت متعودة على المبيت لوحدك سألها...

أجابته: نعم أجد راحتي في بعض الأحيان في هذه الغرفة وأمسكت براحة يده تجرّه مبتسمة للجلوس على تختها...

كان سريرا واسعا من الخشب الأحمر مريحا جدا... جلس على حافته... ولا تزال قابضة على ذراعه الذي لامس صدرها في استحياء... كان محياه ينبئ عن خجله وحيرته... وكل خلايا جسمه تريد الانقضاض عليها...

زادت حيرته حين مدت يدها الأخرى إلى زجاجة الويسكي التي لم يلحظ وجودها على طاولة السّرير القصيرة... وملأت كأسين صغيرين وقرّبت أحدهما منه مذبلة العينين.

ابتسم لها شاكرا Merci... ارتشفها بشفتيه رشفة جلبت معها الحنين إلى ذكريات الأيّام الخوالي... وقربها فارغة منها يريد المزيد... ملأت بسرعة الثالثة فالخامسة حتى انسدلت عيناه قليلا وبدأت النّشوة تغزو عقله ويده المشلولة الملامسة لصدرها تنقل له شرارات الإغواء وتعمل كمجس نبض تنبؤه بداية هيجان تلك اللبؤة...

زال توتّره مع تلك الكؤوس واستسمحها أن تطلق سراح يده التي ستجلب له مقتله... أطلقتها بصعوبة أذكت لهيبه... استقبلت بفرح قراره بنزع قميصه لاندلاع حرارة جسمه من لهيب الويسكي...

فَتن جزءه العلوي المفتول العضلات لبّها... لم تستطع منع يدها من الاقتراب من صدره مداعبة إياه حين كلامهما الذي بدأ يصعب لانشغال فكرهما التام بنيل مأربهما من بعضهما البعض... التفّت يده حول خصرها النّحيل بعد أن أعمى بصره لمعان أفخاذها التي بانت بعد أن صعدت تنورتها إلى مستوى سروالها الدّاخلي مشتركة بذلك في عمليّة اغتياله عن سبق إصرار وترصّد...

مضت يده على لحم ظهرها... انكوت أصابعه بحرارة جلدها... لفّها بيده

إليه مسدّدا لها قبلة مباشرة أرعبت شفاهها... ذابت روحه في نعومتهما ورقتهما... انتزع شفتيه بصعوبة منهما... ابتعد قليلا ففتحت عينيها... رأى النّجوم تسكنهما مع دموع النّشوة التي زادت جمالهما... اقتربت بشفتيها تريد المزيد فوثب عليها... لم يرَ خمرا أعتق من رحيقها... اعتصرت شفتاه ثغرها كعاصر شهد النّحل يأبى أن يترك قطرة فيه من العسل.

أسكرت تلك القبلة كلّ عقله فاستباح بعدها كلّ مواطنها بالعصر واللّثم... غرقا في نعيم اللذة ونشوة السّكر... دامت حربهما جُلاّ من السّاعة... استعملا فيها كلّ فنون القتال... كان السّرير ساحة المعركة... خارت قواهما بعدها واختلط عرقها بعرقه واستسلما في انتشاء عظيم واستلقى مكانه فوقها كجسد واحد...

احتضنته بعد دقائق من النّوم المعسل بقوة وقبلته من فاهه كعربون رضاها... أطفأت بنزوتها المحرمة أجيج النّار التي أوقدتها فيه مساءً...

نهضت بعدها للدوش الخاص بغرفتها تزيل كلّ مظاهر التعب الممتع عنها... بينما احتضن هو سيجارة وكأسا عملاقة من الويسكي الممزوجة بالكوكاكولا... شرب نصفها ففقد معها نصف إدراكه قبل أن تخرج بإطلالة جديدة محمرّة الوجنتين...

دخل بعدها ليستحم بعد أن احتضنته... سكب الماء البارد عليه ليطفئ جهنم التي سكنته... خرج بعدها متلهّفا للمزيد من الويسكي بعد أن طارت ببرودة الماء نشوته... وجدها قد أخرجت قنينة جديدة وبعض من العنب والموز من الثلاجة الصغيرة.

فتحت شهيته للشرب... رنّ هاتفه حينها... كان تامر يسأل عن سبب تأخره... قال له أنّه خرج يتجول في الكورنيش قليلا... وأغلق بعدها هاتفه... واصل مع نغمات الرّاي الجديدة الشّرب والرقص... شاركته الرّقص... فتنها

المثقف

برقصه واستمتاعه الفائق بذلك.

فقد بعد كثرة الحركة والشرب الكثير من وعيه... فجلس بسرواله الدّاخلي في حافة الغرفة على البلاط محتضنا كأسه العملاقة التي لم تفارقه في رقصه... جلس على البلاط يمتص برودته بعد أن فشل المكيّف في إيصال البرودة إلى خلاياه المحترقة بلهيبها ولهيب النّبيذ...

استلقى بعيدا عنها بجانب النّافذة... أصبح للتعارف أوانه... أرادت بشدّة وَلَهٍ ظاهرٍ في عينيها معرفة المزيد من أخبار هذا الأشقر الذي أسرها بقوته في السّرير... وسلب لبّها بثقته بنفسه... ووسامته وفتنة جسمه المتناسق... ونظرات عيونه الذابحة...

علمت منه كلّ معلوماته وعلم منها أنّها الابنة الوسطى لمقاول كبير في بناء العمارات من العاصمة يدعى رشيد أيوب... وأنّها ترتاد كليّة المحاسبة في جامعة هواري بومدين بباب الزوار بالعاصمة... أمّا أختيها فالكبرى في منتصف العقد الثاني من العمر... متزوجة من مغترب في فرنسا وتسكن هناك معه في ضواحي باريس... أمّا الصغرى فتبلغ السّادسة عشرة من العمر ولا تزال في المرحلة الثانويّة...

انفتحت القلوب بعدها بالتكلّم بطلاقة وعفويّة دون تنميق للكلمات... خصوصا بعد الاطمئنان جراء صراحتهما المتبادلة... فقد لعبت الكؤوس بعقله وعقلها فجعلتهما ينطلقان بكلّ ما يختلج به فؤادهما من مشاعر... أصبحت من هناك من مكانها فوق السّرير كالصديقة المقرّبة جدًّا لقلبه... صارحته حينها أنّه يملك روح وحنان العاشق ونظراته البراقة السّاحرة غير العاديّة وأن من ستتزوجه ستكون أسعد إنسانة في الكون... وأنها ستعشقه في ليلة واحدة...

ضحك حينها غير مصدّق إياها في خبث أليف... كانت قد أيقظت بكلامها عن العشق الحنين لمن تمناها زوجة له... فراح باله مسافرا إليها...

المثقف

فملكت نشوة العشق القاهرة لكلّ النّشوات دماغه وقلبه... محركة مع ذكرى أسى عجزه الماضي قصته المحيرة.

نظر بإمعان في وجه سوزان الملائكي وبراءة وانطلاق حديثها معه... وسأل نفسه إن كانت تستطيع بطبيعتها كأنثى مَدّ يد المساعدة لقلبه ليتمكن من فهم مشاعر نصفه الآخر سلوى والطريقة المثلى والسهلة لتذليل العقبة التي خُلقت في طريقهما.

تردّد قليلا لكنّه نظر لموقع سوزان كطرف محايد في أرض بعيدة... لا تشكل أيّ خطر على سره الجميل... فحثّه هذا على مصارحتها للترويح عن نفسه المنخنقة من تعثر هذا العشق.

نظر إليها سكرانا وانطلق يسألها إن كانت تستطيع أن تعينه في مشكلة مع الجنس الآخر... ابتسمت بفرحة للموضوع... فانطلق كالبلبل لم يسكت عن الكلام عن موضوعه المفضل لمدة ساعة أو أكثر... وصف لها كلّ حكاية عشقه بكلّ فصولها وعِظم المعاناة فيها... مبديا تأوها وصعوبة تنفس ظاهر من فرط حاله المعقد...

انسكبت روحها لقصته وغرابتها وسلبت لبّها المشاعر الصادقة... حاولت جاهدة أن تعينه على حل المشكلة... لكن حلولها تدور كلها في خانة الذي لا يستطيعه... فعقلها لم يستوعب عِظم هذا العشق الذي يعجز فيه عن حمل هذا الهاتف ومكالمتها مباشرة.

استهزأ بكلامه معها وبعدم جدواه عندما حثّته على ذلك... غيّر أنّها طمأنته بأن حبيبته وباحتمال كبير تكون خجولة أشدّ الخجل... وهو نفسه الاحتمال الذي ساور قلبه.

مضت السّاعات بهم مرور الدّقائق لحلاوة السّهرة... أيقظه آذان الفجر من نشوته مرتعبا... تذكّر عمله الشّاق ولزوم الرّاحة الجيّدة له... فاستأذنها النّوم...

المثقف

وهمّ بلبس ملابسه لكنّها باغتته بحضن شديد وقبلة حارة... كانت القوة قد زرعت فيها أخيرا بعد تلك المعركة... فعادت شهوتها تحثّها على إغرائه... إغراؤه الذي كان سهلا بالنسبة لفتنة في مثل جمالها... أرادت فرائسه المنتشيّة الرّجوع لحلبة المصارعة لكن خوفه على عمله من اضطره للانسحاب بعد قبلة طويلة وكأس من النّبيذ أخيرة... تركها بعد أن قبل بعدها جبينها مختصرا قوة اعتذاره مهرولا إلى مخدعه... تركها وأبقى لها الوردة... جعله وجعلها السّكر وإرضاء الرّغبة من النّائمين خلال دقائق.

* * *

دقّت منبهات هواتف فريق الغذاء إياد وشريف على السّاعة التاسعة والنصف... زعزعت معها نوم الفريق الآخر... فتح إيهاب عينيه قليلا... بادره تامر السّؤال... متى أتيت البارحة فلم أرك رغم سهري لحدود منتصف الليل... أجابه إيهاب أن الجوّ كان منعشا على الكورنيش وازدحامه بالسواح والعائلات أنساه الوقت... خصوصا أن الهاتف فقد شحنه... حذّره بعدها تامر من أن المسؤولين لن يرضوا بإطالته لسهره خارجا.

أربك ذلك إيهاب... فكّر في أن سهرته الماضيّة... قد تكون الأخيرة... تأمّل قليلا في السّقف دون تفكير... وبعدها قرّر معاودة النّوم لتعويض نقصه لسهره... داعبته أفكار أوّل النّوم في سوزان... بعدها نزل عليه خيال سلوى... تخيل في سره في شهوة خارقة لو كانت هي من شاركته الليلة الحمراء... فهي الأحق به والأمتع له ومنى قلبه... لأنّ فكرة احتضانها فقط ليلة كاملة قد توصله للجنون لأنّها أكبر أحلامه.

داعب اشتياقه لها جفونه فأمسك هاتفه وأرسل لها رسالة يخبرها أنّه اشتاق لها كثيرا وأنه في العاصمة يعمل في فندق حتى نهاية الصيف.

ترسُّم حالِه في عمله أزال عنه التوتّر الذي أنساه حياته البعيدة... فعاود

قلبه الحنين لحبّه... والحنين لاحترام مواعيده ومواعيد حروفه المغامرة... حروفه التي تزيل الهم من الطرفين... فالحبّ كالصلاة كلّما احترمت ميعادها المحدّد وقوانينها وخشوعها... وفقك الله إلى الصلاة التي بعدها... أمّا إذا أهملتها... عاقبك الله بإهمال الصلاة التي بعدها... وبأفول الإيمان هنيهة من قلبك.

في الضفة الأخرى... استقبلت سلوى الميساج تفتحه برعب... لقد وتّرها وأقلقها غياب خياله من المقهى وحِسه من الهاتف... أزال الاستفهام من بالها... احتضنت الهاتف لصدرها بقوة.

دقيقتين ورنّ اتصال من مجهول عند إيهاب أيقظه تماما... أصغى للاتصال بكلّ حواسه... كان الاتصال من نصف روحه الآخر... وصل إيحاؤها بقلقها عليه إلى قلبه... أحيت الحبّ الصعب في أرض أخرى... فصدق من قال: الحبّ لا تقتله المسافات... فدارسي التخاطر يجزمون أن حالة العشاق حين البعد أو الهجران من أقوى حالات التخاطر ونقل المشاعر... وهم يدرسون في علمه طريقة تقوية هذا الانتقال حقيقة.

رجعت به المكالمة إلى أجواء مدينته العزيزة بن عزوز وذكرياته في التقلّب متمحنا مع هذا العشق... حنّ معها إلى أصدقائه وجلسات المقهى والسمر والديمينو حتى الواحدة ليلا... أصدقاءه الذين لم يفارقهم بالفايسبوك مذ ركب الحافلة آتيا... أراد في تفكيره أن يخبر صديقيه حازم وفادي عن مغامرته ليلة أمس... لكنّه فكّر مليا في أن الحكايّة تستطيع أن تصل إلى صاحبة أمره ويصير الأمر مشكلة... فنزع الأمر من باله وفضّل أن تكون سوزان الفتنة سره الصغير.

قلّب عديد الأفكار في دماغه قبل أن يذهب النّعاس بجفونه مجدّدا... لم يستفق إلّا بعد شمس الظهيرة... فتح حينها هاتفه فتفاجأ برسالة من سوزان... «صباح الحبّ حبيبي... لم أستطع أن أنساك للحظة... أُقسم أن خيالك يضمّني

ويقبّلني في كلّ لحظة... عذبتني... كويتني... شفيت غليلي... اشتقت لك حبّي واشتاق لك سريري... أحببتك حبّي وأحببت العذاب بين يديك... كلّمني فور صحوك من النّوم... باي».

أحسّ برجولته وانجرف وراء ذكريات السّرير ومعاركه... طلبها في الهاتف... كانت في سيارتها...

ألو عمري أجابته بحنان... أردتك في فراشي صباحا... هل ستأتي الليلة.

نعم أجابها اشتقت لك أنا أيضا... اشتقت لحضنك بشدّة ومص روحك من شفتيك... لكن فكرة أني بتت أتمشى على الكورنيش لا تنفع... فأصحابي حذّروني من إطالة السّهر خارج المجمع... ولا أريد أن يفضحوا أمري معك خِشية أيّة مشكلة... فكيف الحل...

لا بأس أجابته... لن نطيل السّهر الليلة... أطفئ شوقي بلقياك فقط حبّي وأَلْق عليّ ثقلك...

اتفقا وأغلق الهاتف وعيناه تلمعان بحظ المساء... ومضى ليأخذ حظه من وجبة الغذاء... وأخذ قهوته ولبس سرواله القصير ولحق بمجموعة العمّال التي بدأ بالتعرف عليها واحدا تلو الآخر... شاطئ البحر كان ملاذ المستريح من العمل...

لحق بهم بعد فترة... شريف من ورديّة الغذاء... أكله التعب... ضحك على نفسه من فرطه... ألقى بنفسه على الرّمال الملتهبة النّاصعة البياض... بجانب إيهاب يسأله عن برودة المياه... حنان وحرارة الرّمال بعثت في جسده المنهك روحا جديدة... تنهّد عندما رأى زورق البحريّة ماضيا في الأفق يجوب أعالي البحار... في تنهيدته بانت قصّة حزينة... قصّة انتحار في ذلك القرار... مضى يروي فصولها... في كلّ يوم أبكته قناطير النّدم.

أشار لتلك السّفينة باكي الكلمات... يروي قصّة حرقة HARGA فاشلة...

أكل فيها البحر نصف طاقم الزورق العابر للقارات...

تعجّب إيهاب وتشوّق لباقي الكلمات... كلمات كانت آهات... تتابعت سلسلتها من شفاهه البنيّة المائلة إلى الزرقة... من كثرة السّجائر والقهوة...

نعم يا إيهاب نعم... كان يوما قاتلا... كرهتُ فيه هذه المياه الزرقاء... كان يوما هادئا في صيف العام الماضي... اتفقنا فيه على الوصول لإسبانيا... بوابة القارة العجوز... كان شاطئ بوسكي في مستغانم هو محطة الانطلاق... ونجاح معظم تجارب العبور هو وقود العزيمة...

ألقينا فجرا بأنفسنا فوق ظهر القارب الذي كان بالكاد يستطيع حمل نصفنا... متوكلين على الله... واصلنا الإبحار لمدة أكثر من خمسة ساعات قبل أن تحل الفاجعة... فقد تفككت البراغي التي تُثبّت محركنا فسقط وغرق ساكنا الأعماق...

كانت وجهتنا تلوح في أفقنا مدة ثلاث ساعات أخرى فقط... لكن الحلم تبخر وأصبح حالنا في يد مالك الملك... يئسنا أشدّ اليأس... تسلمت الأمواج ذفة قاربنا... كانت وجهتنا الشّمال الغربي... تغيرت وجهتنا، وتلك السّاعات التي كانت تفصلنا عن البر أصبحت أيّاما... ودون بارقة أمل... هام بنا القارب في دوامة لا تؤمن بالوجهات.

ثلاثة أيّام والشمس الحارقة تكوي وجوهنا حتى تشقّقت شفاهنا من قوة العطش... حتى أننا لا نتحرك من خوف أن ينقلب القارب لفقده التوازن... التوازن الذي يحافظ عليه بصعوبة جراء حمولته المضاعفة... ساء حالنا بعد اشتداد جوعنا وعطشنا وفِعل الملح فينا... وخرج عن السّيطرة حالنا حين انتشار رائحة بولنا وغائطنا في سراولنا لاستحالة تحركنا من أماكننا...

خارت قوانا صار كلّ منا يحتفظ بِرِيقه بصعوبة ليبلّل حلقه الذي جفّ وجُرح من الملح وفقد الماء... انتظرنا الموت في كلّ دقيقة... فقَدَ الكثيرون

وعيهم وأظنّهم ماتوا... استمر حالنا هكذا لغاية فجر ذلك اليوم... حتى لمحنا ضوء الأمل في الأفق... لمحنا ضوء المنارة... وليتنا ما لمحنا... ففرحة بعض الرّكاب دفعتهم للنهوض وكثرة التحرك على سطح المياه المتكدر... بينما نحن كذلك... زاد هيجاننا حتى انقلب بفعله وبفعل الأمواج التي غدرتنا القارب... وصارت الفرحة جنازة... غرق معظمنا الذي كان نصفهم فاقد الوعي.

غيّر أنّ فرج الله يأتي حين تشتد حلقات اليأس... فلقد لمح زورق البحريّة الإسبانيّة الصابرين منا... الذين لم يحن أجلهم بعد عند الفجر... كنا متشبثين ببقايا القارب... كانت تلك المنارة على رأس جزيرة سان أنطونيو... فاتضح لنا أن قاربنا سلك بنا أبعد الطرق... أيّ الشّمال مباشرة... أخذتنا البحريّة إلى مدينة إيبيزا عاصمة هذه الجزيرة الصغيرة... ووضعونا بعد المستشفى في الحجز لمدة عشرة أيّام.

المثقف

وبعدها أركبونا البحر إلى مدينة فالونسيا السّاحليّة... إلى مركز حجز المهاجرين السّريين فيها مباشرة... لم نرَ شيئا... فمن عربة نقل من وسط الحجز إلى أخرى... إلى تصفيّة أوراق إرجاعنا إلى البلاد... إلى الباخرة مباشرة... حتى في الباخرة لم نغادر الحجز... إلى الحجز هنا في وهران لمدة شهر.

كانت رحلة عذاب وشقاء خسرتُ فيها أعزّ أصدقائي... غرقوا أمام عيني... صرخاتهم لازالت تُعذّب ذكرياتي.

يـــاه! صرخ إيهاب غير مصدق... لقد جرّبت الموت يا شريكي...

ضحك شريف... ولكنّي لن أرجع عن حلمي... وأنا هنا من أجل جمع المال لرحلة الرّجوع...

وإن مُتَّ! سأله إيهاب...

هزّ شريف كتفه مصمما وقال الجملة التي غزت فكر الشّباب الحراقة (ياكلني الحوت وما ياكلنيش الدّود)...

ذُهِل إيهاب فهي أصعب حكاية حرقة سمعها... بعدها شاركه إيهاب حلمه في ذلك الدّخل المرتفع حقا وراء البحار... فصديقه غاسل أطباق في فرنسا يُؤجر ب 2000 أورو أيّ أربعون مليون سنتيم جزائريّة... بينما يتقاضى في أحسن الظروف هنا مليونين... فعدّدا القصص التي كانت دافع الشّباب للنزول للبحر... فمن ينجح في الوصول يستطيع بعد عامين أن يبني منزل هنا ويقتني سيارة ويضمن مستقبله... وهذا إن لم تفلح الشّرطة هناك في القبض عليه... فكان كلهم يمضي عاما أو أعواما متخفيا إلى أن يفلح في جمع مال الزواج الأبيض الذي يُسَهّل له بعد ذلك الإقامة وإخراج وثائقه... ذلك الزواج الذي امتهنته أيضا بعض العصابات كحرفة لسرقة مال المهاجرين السّريين... فإن حالفك الحظ حصلت عليه غير مزور بمبلغ يتراوح من 5000 إلى 20000 أورو.

المثقف

تغيّرت الظروف الآن يضيف إيهاب... الذي جهل كيف ينصحه... وكيف ينصحه وهو أيضا يراوده حُلم الهجرة منذ نعومة أظافره... لا تُهمُّ الوجهة بالنسبة لحلمه فقد حقّق صديقه حلمه في دبي وآخر في الكويت.

ختم سرحانه قائلا... المهم أن يُسهّل الله لنا أيّ طريق نسلكه.

آمين قالها شريف ناظرا في الأفق بأمل... قام بعدها لشقّ ذلك الشّاطئ بجسمه المتلألئ بسمرة البرونزاج.

تركه إيهاب في المياه وعاد للمجمّع ليستعد لورديته المسائيّة... تغيرت ساعة وقوة جسمه طبقا لمتطلبات عمله بالتعود كما هو معروف... فأصبح العمل لا يأخذ منه الكثير من الطاقة... صوّر لنفسه فيلما وهو يقوم بعمله داخل قاعة الإطعام وأضافها لفيلم له يسبح في الشّاطئ... بعث بهم مع قصيدة شوق ملتهب لمعذبته وممتحنة صبره سلوى... سلوى الذي حيّره أمر عشقه لها... فهو في الجامعة تُقسم كلّ أعضائه على ألا ترى سواها... ويستحيل أن

يفكّر ولو لثانية أن يعجب بغيرها أو يتيه في امرأة غيرها... في غيابها قبل حضورها... فكيف بخيانتها هذه الخيانة العظمى.

فكّر في هذا الأمر مليا... فضحك على نفسه في استحياء من حبيبته... وأيقن أن السّبب بعد فتنة سوزان هو توفر شرطين أساسيين... ألا وهما البعد التام عن مسرح أحداث عشقه واستحالة وجود احتمال وصول نبأ الخيانة إليها... استحضر حينها قلبه كلّ عشقه... وتذكّر في لمحة وشهقة كادت توقف تنفسه... كلّ ذكريات ذلك الغرام القويّ... وذاك القلب الحنون الذي وهبته إياه كاملا دون شروط...

عصفت بوجدانه عاصفة من الخجل زادت من حبّه وتوقيره لها تكفيرا عن غلطته... غلطته هذا السّقوط الشّهواني الذي لا يضمن لنفسه ألا يكرّره مرة أخرى وأخرى... فقد جعل منه العشق لقمة سهلة للعيون السّاحرة... مادام الشّوق يعوّض وجودها... والبعد الكبير الذي اتحد مع زيادة امتناعها عن الرّد عن خطاب قلبه... ولّدا له إحساسا كبيرا بالضعف كالرّضيع... يلزمه الحضن والحنان... لهذا سقط حين أوّل سهم يُطلق عليه.

بَيد أن معشر العشاق يحكمهم قانون القبيلة... فقبيلة الحبّ تعاقب من يخالف قانونها بغير رحمة... وجرم الخيانة وإن كانت الخيانة جسديّة بغير منح القلب جريمة لا تغتفر... جريمة عظيمة العقوبة... لن يدرك إيهاب مقدار تلك العقوبة إلّا بعد فوات الأوان... وفي نفس الوقت لن يُفلح في درء ذلك الإغراء عنه رغم حبّه الأعظم لسلوى إلّا بترك المكان مهرولا إلى بيته... الحيّز الذي يحترم فيه عشقه.

مضت ساعات العمل وأخرجته طلبات الزبائن من غيبوبة غرامه... اتصل الموعود على الحادية عشرة... لم تُطق صبرا بعدها... كانت قد طلبت الأكل قبل ساعة مباشرة لكن إيهاب لم يكن بصالة الطعام... كان يوصل طلبيات

الزبائن في مختلف مناطق المجمع الضخم.

لم يطل انتظارها كثيرا... فبعد ربع ساعة دقّ عليها الباب بصحن منمق من الطعام البحري المقرمش... الذي تُفضّله... يزيّنه بوردته الحمراء... استقبلته بحضن كبير... لم يكد ينزع شفاهه عن مبسمها متخدرا بعسله... حتى نزع تيشرته... كانت تحبّ أن تراه كذلك... يعمي بصرها ذلك الصدر المفتول... ويجعلها أكثر حنانا... نزع صدره التاج من على عيونه... فلقد تناستهما عيونها واشرأبت بالنظر فيه... بينما يستلقي هو مقابلا لها في شق تختها... يحتسيها برفق مثل النّبيذ... يأبى أن يذهب بها بلحظة... طول انصهارها به يزيد تعتقها كالخمر... يقترب ليأخذ خمر الشّفاه تارة... ويصعّب عليها لثمه إن أرادت تارة في غمرات السّكر... يدنو ويبتعد... يُلهِب ويُطفئ... حتى كادت مفاتنها تنفجر من فرط الانتظار... انتظار غزوه الذي بات حلم يقظتها مذ فارق جسمها جسمه في آخر التحام... أعياها النّبيذ وأعيتها أنامله التي أخذ يستكشف بها كلّ خريطتها... رحم حالها حين تفجّر احمرار شفاهها شوقا للقبلة... وقرّر أخيرا مص روحها منها... استغرق فيها لثما أحال اعتدال عيونها حَولا... لم يبخل عليها بكلّ فصول العذاب... كان فارسا قويّا يحترم خصمه... لا ينزل سيفه إلّا والشبق مطبق عليها... أرضاها بنحرها دون رحمة... دون شفقة أطبق عليها كالعقرب يبث سمه فيها... سُمّه الملعون الذي حيّرت حرارة وقوة سريانه فيها وجدانها... فأصبحت كالمجنونة لا تبغي إلّا المزيد منه كأنّه أفضل أنواع إبر الكوكايين.

استلقى بعد أن انتزع روحها فوقها شهيدا كعادته... يمتص في أقصى درجات شهوته نعومة وحرارة جسدها موصلا شبقه لأقصى درجاته... رحل تلك اللحظة لأحلى أحلام النّشوة... لأقصى استرخاء... مضت الثواني والدقائق قبل أن يحسّ ثقل جسمه عليها.

تحرك من فوقها بعد تلك القبلة الجسديّة الكبيرة المحبّبة جدًّا له... بعد أن اطمأن أنّ كلّ السّم سرى منه فيها مع آخر قطرة من طاقته... استلّ نفسه منها ببطء أمتع داخل لبّها... لم تتحرك مكانها... شُلّت فرائصها.

بعد دقائق أيقظ رنين هاتفه وجدانه... عدّه تامر يسأل عن تأخره... فإذا بها سلوى تتصل من مجهول... تلخبط شعوره فجأة بعد سكونه يرتشف حقيقة شعورها من مكانها هناك.

من دون سؤال عرفت سوزان أن المتصل سلوى حين لم ينبت ببنت شفة... شرد ذهنه... اغتنمت فرصة تغيّر حاله ودخلت للحمام وأطالت لبثها... أعطته فرصته لينفرد بنفسه مع سرحانه بعواطفه وكأس نبيذه وسجائره وأغاني حسني المفضلة.

المثقف

خرجت بعدها محمرة الجسد والوجنتين... بدأ سر هذا الرّجل يداعب فضولها... فلم تستوعب بعد عظم هذا الحبّ الذي يأخذ لبّ الرّجل من فوق سرير أخرى بلا استحياء... لدرجة أنّها أعطته وحدته بعد أن رأت طلبها في عينيه... تركته يجدها فوق سريرها مخافة أن يتركها ليطلبها في مكان آخر... جذبها هذا القلب الصادق الذي لم يفلح غنويها وجسدها الفاتن الذي أسال لعاب مدينة كاملة في زعزعة جذر من عشقه الممتدة عروقه لأعمق وجدانه... لدرجة أنّه لا يخجل من تبيان عشق أنثى أمام أنثى عشق جسدها سمه... الجسد الذي لم تهبه منذ آخر قصّة عشق حزينة... كان بطلها طفل أخلاقُ عِشقهِ شهوانيّة... لم يعرف للرموش معزّتها... أو لمقلة العين قرارا... لم تُعِد الكرة بعده أبدا... كان سببها بعض من خوف البنات المعتاد من هذه المواضيع... وأيضا كيف تعيدها وأحلامها تبحث عن عاشق... وكيف تعيدها والجّل يخشاها لمركز أبيها وقوّته في الدّولة... ولا يجرأ على الإفصاح لها عن إعجابه إلّا من كانت في عيونه طمع ظاهر للعيان... كانت تراه رغم كلّ

الخدع... فلا يستطيع سلبها قلبها مع ذاك الطمع... إلى أن أتى إيهاب وسدّد في عيونها معطيا بولهه بمقلتيها مَهرها... لا يعلم أنّه قد وطأ عزيزا... لأنّها توغّلت معه بسرعة إلى الرّمال المتحركة فلم ينتبهوا إلّا والأجساد غرقى بعبق السّرير... لعلّ النّبيذ من ساعدهم ويُشكر لذلك... أو لعلّ بريق عينيه المميّز من سطا على إدراكها فلم تفق إلّا وهي في حضنه... كان بريق العاشق الولهان... لم تهبه كيانها إلّا عند رؤية عاشق في عيونه يحترم الجمال ويقف عنده مشلولا... عاشق يتقن الغوص فيها وإمساكها عن إدراك محيطها بلحظة... يتقن لعبة العيون... يدمن ممارسة الحبّ بها... عاشق يحبّ العيون... ولا تنكر أيضا أنّه ذلك الفارس المختار بعناية الذي سيأخذ سرها ويسافر بعد مدة وجيزة بعيدا...

المثقف

لم تغضب لجرحها... بل نزعت له القبعة احتراما... فالعشق سيدها وهي التي لا سيد لها... مسك ذلك القلب ببراثنها تأبى المصارحة... لا يتقن الحبّ إلّا قلب مثله... وإيجاده فرصة تريد منها كلّ خلاياها أن تغتنمها... ولكن...

نجحت بدخولها المُشرق وروحها الطيّبة جدًّا في إذابة الجليد الذي أقامه قلبه حوله لحظة ذوبانه في التّفكير في سلوى... لم يكن نجاحها بتغيير الموضوع... بل بالموضوع نفسه... فلا وصول لقلبه حينها إلّا بالكلام عن سيدته الذي يخضع لها... وكيف لا تكلمه عنها والكلام عنها يضاعف بهجته ولمعان عيونه ونظارة وجهه وجسمه وخفة ظله ولطافته واستمتاعه باللحظة... وتجني مع فرحته تلك زيادة إمتاعه لها... وإحساسه بها.

أقسمت حينها أنّها رأت الحبّ حقا... الحبّ النّادر الذي يسكن القصص الورديّة... ألقت بنفسها عليه وأخرجت له حقيقتها الطيبة الكريمة كاملة... أرادت أن يكون هذا الفارس ذو القلب العاشق الصادق صديقها المقرب... بعد أن أصبحت صداقاتها شائبة بالحسد المبطن والطمع غير صافية في أغلب

الأحيان... ذابت لقلبه الحنون وذابت لفتنتها بشراسته في تذوقها ونشوته بها كخمر عتيق... زاد إحساسها بأنوثتها حين أحضانه... لم يتبق منها من لم يستسلم للإعجاب به... أمسى يحسها ويفهم كلّ إيماءاتها رغم ساعات صداقتهما العديدة... وعزّة نفسه أمالت الكفة لصالحه... تلكم العزّة التي أظهرها لها في أوائل دقائقهما كي تكون خطا أحمرا باديا لا يمكن تجاوزه... لكيلا تجرحه فيجرحها ببساطة... فهو إن لم يكن قد أيقن أنّه يجلب لها السّعادة... وبطلبها يأتي... لم يكن ليفرض عليها نفسه.

* * *

المثقف

الدرجة السابعة
لحظة الفراق

المثقف

لحظة الفراق

المثقف

تعدّدت الأيّام وتعدّدت السّهرات الملتهبة واكتظت الغرفة الورديّة الجدران بوروده الحمراء... ومضت بعقولهم الليالي المتوحشة... مارسا فيها فوق الحلبة كلّ فنون القتال... اكتشفها فيها شبرا شبرا... علّمها مواقعها... أدركت معه كارثة شبقها من كلّ موضع فيها... أيقنت حدود أنوثتها اللامتناهيّة... وأيقنت سطوتها... فقد كان يستمر باشتهائها وهي بين جفونه نائمة... وبين أحضانه مستلقيّة.

خلقت حلاوة تلك الأيّام معها مولودا جديدا في القلوب الطيّبة... كجنين بدأ ينبض قلبها بحبّ صغير تحسدها فيه كلّ عاشقات العالم... وكيف لا... وهي الظافرة بسرير حبيبها متى أرادت... سريرٍ تُطفئ فيه نار شوقها وتداوي نفسها من كلّ الأعراض السّلبيّة للحبّ... فلن يلبث المحبّ أن يعاني وكل دقيقة من طول صبره لعدم الأخذ بحظه من حبيبته التي يراها ملكه... فمهما كان الحبّ عفيفا وطاهرا إلّا أنّ الوصل فيه يبقى أعظم الأحلام ولو كان مبطّنا

غير مصرح به.

وزاد من أمل حبّها طبيعة قلبه الحنون... ففؤاده لن يجرح أحدا صادق الحبّ معه أبدا... مهما كان طمعها في غير محله... إلّا أنّ قلبه يحبّ من يحبّه... إن أتقن الحبّ معه ولم يخطئ جُرحا.

بلغت عدد وروده النّائمة عندها خمس وعشرين وردة... ملأ شذاها الغرفة... وبلغ عدد أيّامه في العمل خمس وأربعين يوما... لم يأفل اشتهاءه منها... ولم يأفل اشتهاءها منه... أعطته لياليها... واستفرد بها عن رفقته طول ليالي عسلهما... زاد موقعه فيها... واطمأنت لصدق صداقته... وأحبّت لطافته معها... أصبحت كصندوق سعادةٍ يُفتح بوضع بصمة شفتيه على شفتيها... فتنطلق بعفويّة عن كلّ المواضيع التّافهة والجديّة تتحدّث بلا حرج... التقت كثرة كلامها بحسن إنصاته فجرى التّوافق باستحسان كليهما... فكلماتها الموسيقيّة التي لا تنضب تُشعره بِزهوٍ مستمر... بلكنتها العاصميّة الشّدقة التي تتذيل في معظم الأحيان بكلمة «ياخو» لتضفي على الكلمات نغمة كالشعر.

لكن لكلّ بداية نهاية... فقد اضطرت لقبول عرض مرافقة أسرتها لتمضيّة عطلة يقتلون فيها الصيف في مدينة سوسة في تونس بعد مجيء أختها من فرنسا.

جاءت إليه تودّعه بليلةٍ أخيرة... لم تقبل إلّا بوداع الغرفة الحميميّة... استقبلته في المساء بهديّة فاجأته بها بعد أن وضع الشّيفرة على شفتيها... فتح عينيه بعد أن كان حملها ووضعها على تخت النّوم حين أنعشته وخدّرته بشفتيها... نظر في هديتها باستحياء فهو لم يفكّر في إهدائها شيئا... قبِل هديتها المتواضعة بخجل بعد أن أقسمت عليه... كان هاتف آيفون آخر طراز... لم تتركه وشأنه إلّا بعد أن عاهدها أن يستخدمه كهاتفه الشّخصي ولا يُفرط فيه أبدا... حتى الصائفة القادمة... لكيلا ينساها أبدا... ويَبقي به كذكرى لها

في جيبه.

قبل ذلك بامتنان... لكن الثّمن كان غاليا... فلقد أذابت له سرا في كأس الويسكي الأولى حبة فياقرا... جعلته كالطورو... جعلته يأبى النّزول... بات ليله يحارب فوق السّرير لم يغمد سيفه... رغم انهزامها واصل القتال رغما عنها... حتى الفجر... أيقنت خطأها مستمتعة.

تفاجأت حين استجد القتال بعد أن لمس جثتها بجانبه صباحا بعد الاستفاقة الأولى... استغرب حاله... كان قد أكل الطعم الشّهي... فارقها بعدها كارهة للوصال... ضاحكة على حالها... بينما توجّه هو مغلقا نصف عينيه إلى غرفته... لم يقوَ على محاربة النّوم مجدّدا في مملكته التحت الأرضيّة الباردة المنعشة.

ذكر قلبه حبّ سلوى حين لامس خده الوسادة... ذكر حبّها وتألّم وتأوّه لكونها أحبّ وأجمل وأحن وأنعم وأشهى امرأة في الدّنيا يتمنّى أن يخوض معها ليلة فاتنة كليلته السّابقة... تأوّه لأنّه يراها الأحق بمعاشرته ومداعبته وحضنه والنوم على صدره... بل وحتى رؤيته عاريا ملقى على سريرها... كان هذا هو الحلم الخبيء الذي يحتفظ به لينالـه بعد الزواج إن كتب الله لهما ذلك.

أرسل لحبّها رسالة ليطفئ هيجان قلبه عليها ويخرج كبت عشقه... كانت الرّسالة كمثيلاتها تكرّر معانيها كلمة أحبّك ولا أحتاج غيرك.

نام قلبه بعد أن أرضاه بالرسالة ككل مرة... أصبحت الرّسالة من أجله هو أكثر من كونها لإرضاء عشيقته... ليُفرغ تلك الشّحنة المخيفة العالية الضغط من الحبّ... التي تملأ صدره قطرة قطرة منذ آخر رسالة حتى يحسّ بالاختناق... ويبعث لمعاودة التّرويح عن نفسه برسالة أخرى.

سمح له بالنوم... استفاق بعدها بعد الظهر متثاقلا... نظر في هاتفه الجديد

يبغي معرفة السّاعة... اشرأبت حينها عيناه وتوسعت حدقتاه في شاشة هاتفه يأبى التّصديق... لقد تحقّق حلمه... وصل أخيرا ما كان ينتظره... استطاعت أخيرا أن تجد للجرأة طريقا... وتكتب بأناملها ما كان يأمله... نظر برعب لعنوان الرّسالة الواردة... كانت من سلوى بكلّ تأكيد الحروف... لم يُطبق جفنه حتى يستوعب كلّ الحروف... الحروف التي يئس من وصولها كاليأس من دواء أعتى الأمراض... حمد الله رغم انتشائه سكرا... لتحقّق أمنيته بتفهم منها وشجاعة تجعلهما ينطلقان في روايتهما بحسن أفق.

فتح الرّسالة أخيرا بعد لحظة الرّعب التي شلّت تفكيره... فتحها بشهيّة بعد أن عدّل من وضعيته ونام بالهاتف كما كان ينفرد به لحظة انفراده بحروفه كأنّه هي بين أحضانه... قرأ حروفها... تيبّست أعضاء وجهه... كادت عيناه تنفجران من كثرة الجحوظ من هول ما رأى... أعاد قراءة الحروف مرة وألفا... لعله لم يفهم جيّدا معناها... كانت تلك الكلمات القصيرة كطعنات خنجر مسموم غرست في قلبه... كانت رسالة سوداء أظلمت عيونه... فجّرت تفكيره... أدمت قلبه... كادت تُوقف تنفّسه... أعادها بصوت مرتفع ليدركها جيّدا... لأنّها من المستحيل أن تصدر من قلب سلوى... بدأ بإخراج حروفها الأولى مبتلة بالدموع... نطقها بأشلائه وقلبه الممزق بالضربات الغائرة...

اندلعت دموعه المخيفة... دموعه التي أحرقت جفونه... يبكي بحرقة لم يعهدها طول زمانه... بكى وبكى وبكى وبكى... لم يحتمل أشلاءه فوق سريره... قطّع قميصه يتقلّب فوقه... لم يحتمل حرارة صدره التي أحرقت قلبه... ألقى بصدره فوق البلاط يتأوه في بكاء مخيف... أخافه حريق قلبه... يحاول المسكين تبريد قلبه بسرعة... لم يُجرّب قبلها ذبحة كهذه... لم يستفق من البكاء الهستيري الجهنمي... إلّا بعد نيف من السّاعة... أوصله تقلّبه المستمر على البلاط ليستقر تحت السّرير من دون وعي... عسى أن يستطيع فعل شيء

لفؤاده الملتهب ببرودة ذلك البلاط...

فتح عينا وجهه الغريق في دموعه بعد أن امتص جسمه الصدمة شيئا فشيئا... ورجع للقلب نبضه... حرّك وجهه من تلك البركة التي بلّلته كاملا... متأملا بذهول ذلك اليم الملقى على البلاط من العبرات... وبدموع لا تزال تسقي العيون شهق شهقة طويلة أرجعت خلاياه إلى الوعي قليلا... وساهمت في تخفيف معدّل نبضه... وتلطيف جوّ أحشائه... تتابعت بعدها الشّهقات مساهمة في اجتفاف عبراته... واجتثاث شلل تفكيره... فبدأ عقله في استحياء يسأل أوّل أسئلته... لا يجد جرأة ليسأل... كان سائر الجسد منهمكا في البكاء والصراخ المكبوت... اكتظت وتسابقت الأفكار في السّبب يصرخ بلا صوت... لماذا ؟... لماذا؟... ما الذي جرى لها ؟.

لم يستوعب رغم مضي ساعة الموضوع... ما الذي غيّر حالها... تولّد الشّك في قلبه... أصبح لا يجول في خاطره إلّا فهم واحد... أنّه كان طوال هذه المدة غارقا في فهم خاطئ لمشاعر سلوى... وإحساساتها من تلك الرّسائل وتلك القصة... يبدو أن قلبه أخطأ فهم ردّ فعلها... أخطأ قلبه بعد أن أغرقه في بحر أوهام عشقها... قتله قلبه بعد أن زاد درجة حبّه إلى الطبقات القصوى المحرّمة... عظّم حبّه لها بعد أن أخذه الأمل بأن تكون في نفس الطبقة معه فيها.

احتقر قلبه بعد أن تأثر لحاله... يرثي حبّه العظيم الضائع في غير محله... أو تُراها استغبته واستحمقته حتى وضع بين يديها قلبه عاريا من أقفاصه... فغرزت المسمار دون رحمة للأحمق المُضحّي بنفسه على أسوارها دون حماية... أو تُراها ظنّت أنّها ملكت بمنحه قلبه إياها حاله واستعبدته... أو إلى خاتم تلهو به بإصبعها أحالته... أو ظنّت أنّها كيان يمكن لها إهانته... وكيف تهينه وهي من هي في قلبه... وأبسط عبارات الإهانة منها قاتلة... لم

يع بعد طول إعادة للذي مضى شيئا كان يمكن أن يومئ له أنّها لم تحبّ ما جرى... فقد أيقن بتتابع الأحداث بقلبه أنّها عشقت حبّه ورسائله... أو حتى من باب الاستلطاف... فكيف يمكن لقلبه أن يخطئ... وأين يذهب بهذا الحبّ الأعظم... الحبّ الذي ملك تفكيره في كلّ ثانية رغم كلّ الخطوب... وفيمن يفكّر بعدها وهي موضوع حياته... وكل ما سواها ثانوي الدّرجة في اهتماماته... وهو من أوصل حبّها واضعا كلّ ثقته فيها إلى درجة الحبّ الأقوى من حبّه لنفسه... كيف أمكنها أن تخون الثقة... وخيانتها تقتل مباشرة... أو تُراها تريد مقتله... أو تُراه كان يزيد بكثرة اهتمامه بها خيلاءها... ويزيد معه احتقارها لمشاعره... نعم... نعم... خلص وتأكّد عند نهاية التّفكير... بأن السّبب الذي نحره هو استمراره في القصة رغم عدم ردّها... كان يُغذّي بصبره ذاك اعتزازها بنفسها... وغرورها... ذاك أسوأ الخصال الذي بان لحظة الاختبار... ما كان يعلم أنّه يسكن خصالها... فهو الذي يعمي بصر العاشق عن أن جزاء الحبّ هو الحبّ وحده... لا أن يحسب أن الأخذ بلا عطاء هو قانون المحبّة... تِلكم بئس الشّيم ظهرت ولسوء الحظ فيمن بجّلها على نفسه... أحاط بأذرعه نفسه يرثيها باحتضانها... ويرثي كونه أعطاها الحق بكلّ تلك الرّسائل... أوصل حبّه بلا تأكّد من حبّها... وصبر صبرا في غير محله... وهام في أحلامه منفردا... وبلغ الصبابة وهي لحبّه كارهة... ولسعادة أيّامه القادمة حلم ألف حلم ضاع... فخجل لأنّه أعطاها كلّ مشاعره... من غير نقص عبّر لها عن كلّ ما يُكنّه لها من تقدير واحترام... احترام فاق تبجيل الملوك... قابلته ينتقصا عنيف لمروءته... ومرّغت برجولته التّراب... وذبحت كرامته من الوريد إلى الوريد... وهو ذاك الأسد في شموخه... تأخذ من عزّته حين وقوفها معه فقط... فهو ذاك الرّجل بمعناه... لم يتذكّر لها يوما أن أخذت منه إهانة... فهو العاشق للمرأة المحترم لأدق مشاعرها... البالغ لدرجة متقدمة من الاحترام من

أنواعه من الذكور.

بلغ ببكائه وقت العمل... أمسك بربع ذاته الهاتف الذي أزعج عبراته... اعتذر مهزوما لتامر عن هذه العشيّة... اتخذ من مرض مفاجئ كعذر له... اضطر العم محمود عندها الاستعانة بغاسل أطباقٍ كبديل... مضت تلك الأمسيّة بسلام... بينما لبس هو نظّارته ليخبّئ بها عينيه اللتان لم تشفيا بعد من البكاء اللاإرادي تحسبا لدخول أيّ أحد الغرفة... لم يحتمل صدره صافيا... وجب عليه أن يغُمّه كلّ دقيقة بسيجارة... أشعل الكثيرات... هذه من ذنب تلك... يُغمى عليه فيرجع إلى سريره ليُجمّده النّوم العميق ساعة بلا تحرك... يثِب على السّجائر حين استفاقته كالمجنون... أكمل ليلته بحالات إغماء عديدة... يتقلّب فيها بين النّوم والقضاء على السّجائر في الفناء حتى الصباح.

حين أشرقت الشّمس ذهب به النّعاس إلى سريره ليستفيق بعد الضحى... كره حاله وكره ذاك المكان الذي قرأ فيه الرّسالة القاتلة... أراد الابتعاد عنه بأيّة طريقة... سحب الحقيبة... وألقى فيها ملابسه وعُدّة استحمامه وفرشاة أسنانه... وحملها يائسا في أقصى درجات الانهزام... وقصد عمي محمود ليخبره أنّه يريد إنهاء استخدامه لظروف مرض الوالدة... ساعده مظهر عيونه الحزينة المتغيّر حالها في إقناعه... قصد مكتب المستخدمين برفقة العم... واعتذر هناك عن الإكمال لنهايّة الشّهر... حمل مُرتّبه كاملا... لا يعلم مقصده... وكارها لمقصده الحقيقي... بيته الذي سيحس بالتّأكيد فيه بقرب تلك النّذلة من قلبه أكثر فأكثر... تلك المدينة التي توجد فيها بنت الكلبة التي غدرته في أضعف أماكنه... التي طعنته في القلب العاري الممنوح لها دون شروط... توجّه إلى آلجي Alger العاصمة فاقدا لروح الحياة... ترجّل في شاطئ كيتاني في منطقة باب الواد الشّهيرة... أراد أن يتمشى قليلا... لم يدرِ بالوقت حوله... حملته أرجله خطوة وراء خطوة إلى منطقة البريد المركزي... قصد فندقا عاديا

ذو نجمة واحدة في ساحة أودان يجرّ في يده أذيال الخمر... الخمر التي اشتراها ليأسه الخانق... أخذ لوازمه وعشاءه لا ينوي النّزول... دخل وألقى بنفسه على الكرسي بنصف وعيه... أطفأ استقبال شبكة هاتفه... واستعمله ليسمع منه الأغاني فقط... وضعه ليغني باقة أغاني الشّاب خالد الطويلة... لعلها تفرحه كما تفعل في انتعاشه دوما أغانيه... لكنّ أغانيه مليئة بذكريات عشقه الذي تحوّل حقدا... بدأت بعض الكلمات تزيد وهج غضبه للذكريات التي أحيتها... كعادته لا يطفئ حزنه الممزوج بالغضب إلّا امتلاء مطفئة السّجائر بأعقابها... زادت القهوة من هيجانه... رجعت بين الجدران حالته المتأزمة... نظر في قارورة الخمر العتيق... وأقبل عليه... سكب الخمر في السّاقيّة... خاف من هول حاله الكئيب... وإن هو شرب الخمر أن يؤذي نفسه حين اشتداد سكره واشتداد مشاعره... فالخمر لا تزيد الكآبة إلّا كآبة... بعدها أقبل منتقما من عجزه اتجاه الخمر بعشرات من حبيباته السّجائر... أغمي عليه عدة مرات... يستأنف بعدها أكل الدّخان مع تلك القهوة الباردة الباقيّة... نجح النّيكوتين والكافيين في إغمائه النّهائي بعد أن اشتدا في جسمه... لم يتحرك بعدها إلّا عند امتلاء الجوّ بفوضى الشّارع الدّاخلة من الشّباك الذي بات مفتوحا... أشارت السّاعة عندها للعاشرة صباحا... نهض بعسر متثاقلا يبغي العودة للمنزل... بعد أن أيقن أن حاله لن يتركه ليغادر الفراش كثيرا... ففراش بيته أولى به... وحضن الوالدة العزيزة أرحم لحاله...

قصد محطة المسافرين الخروبة... وأخذ ساعة وصوله تذكرة حافلة الحاديّة عشرة إلى مدينة عنابة لينزل قبل الوصول إليها بأربعين كيلومتر كالعادة... ساهمت الكآبة في تنويمه طول الطريق... راكب يأبى الوصول... فتح صفحته في الفايسبوك وكتب..

++ الشّخص الدّنيء مكانه تحت رجليك... لأنّه ذاك الشّخص الذي إذا

وضعته على أكتافك... يطمع مثل الرّضيع أن يصعد فوق رأسك... ++.

ماذا عساه المجروح يفعل ليداوي كرامته... اتخذ من هذه الكلمات كخلفيّة في جميع صفحاته في مواقع التّواصل الاجتماعيّ...

كانت قد حظرته في كلّ تلك المواقع.

فتح باب المنزل عند صلاة العشاء... لم يكن ينتظره أحد... لأنّه لم يُخبر أحد... لأنّ كآبة العالم نزلت عليه... دخل بفم يخون القلب بضحكة... استقبل به الوالدة التي كانت في المطبخ...

فرحت صارخة... إيهاب! واش حوالك؟ واحتضنته بعد التّقبيل بحرارة...

بعدها تفرّغ للقاء بقية العائلة الذين أتوا للمطبخ بعد أن سمعوا صوته... جرى حديث التّرحيب بحرارة... الكل يريد أن يرى تقاسيم وجهه بغزارة... مركزين في حديثهم عن أحداث عمله... لم يطل الجلوس... قربوا إليه الطعام... لم يُشبع بطنه... ملأ الحزن معدته... أراد أن يَلقى سريره... لكنّه أحسّ بالخوف منه... فهو من ذكريات عشقه... من ذكريات أوّل رسالة... تلك الرّسالة المشؤومة التي بدأت مشوار ضياع كرامته... في دروب استهزائها...

لملم بعضه وقصد المقهى... فاجأ أصدقاءه الذين لم يتوقعوا مجيئه... لم يتركوه لسريره... أدركوا ما بعد منتصف الليل معه... لم يفرّقهم إلّا النّوم الذي أطبق على أجفان إيهاب الواصل حديثا بعد سفر متعب... احتضن الوسادة ونام متعبا بعد أن أبعد بصعوبةٍ وكبرياءٍ وحش حبّه... أنقذه كبرياؤه الذي قضى على فكرة التّفكير فيها نهائيا... أو معاودة الكرّة بإرسال حروف لها... منعه كبرياؤه حتى من الانتقام الطفوليّ لقلبه برسالة إهانة... رسالة الإهانة التي لم يفكّر فيها من قبل أبدا... لقد فكّر أوّل الحال أنّه هو المخطئ بكلّ ما جرى... هو المخطئ بعدم كبت مشاعره حتى يتبين صدق إحساساتها نحوه... وعنفوانه كرجل يمنعانه على فرض نفسه على أحد... فكيف بفرض حبّه على

من يرفضه... وفي دستوره... الحبّ من طرف واحد محرّم وجريمة في حق القلب... وهو لا يؤمن حتى بوجود هذا النّوع من الحبّ... فكبرياؤه سيمنع بالتأكيد تطوّر الإعجاب في أوّل الأمر إن لم يكن متبادل...

كان نومه ثقيلا ممتعا... كالذي بات يحمل الصخور في المحاجر... ترك أحلامه وفتح عينيه... تأمل في السّقف قليلا والوقت ضحى... رنّ في قلبه وقت التّفكير فيها كعادة فؤاده... نجح الكبرياء في لعن وإيقاف ذاك التّفكير... لكنّه لم ينجح في خلق البديل... ولم ينجح أيضا في وضع الأهميّة في شيء آخر... برد قلبه فقد أخطأ مسبقا عندما وضع الأولويّة القصوى في حبّها دونا عن سائر شؤونه... ندم لذلك... فقد أتى هذا الوقت اللعين ورفضها جسمه كالعضو المزروع الذي يُنبذ بعد فترة معلنا فشل عمليّة الزرع... فأحرق أفلامها وصورها من الذاكرة الحيّة... ومنع نسخها ونسخ المشاعر الماضية الدّفينة من أعماق أعماق العقل اللاواعي... ذلك المكان الذي ينجح في بعث جزء من تلك المشاعر في أيّ لحظة يريدها ليزعج ويغضب بها القلب الحاقد... بعد ذلك بدأ كأنّه يفهم أن الخلو بنفسه هو الخلو بها... فما عليه إلّا محاربة الوحدة... وقتل معظم يومه في المقهى الذي زال منه الرّقيب من العِلّيّة وترك مكانه منذ وصول خبر السّفر إليه... ولن يرجع في ظل هذه الأجواء المحتدمة... فقد أصبحت شرفة جدتها كالمكان المحرّم عليها... لأنّها تجلب القهر لقلبها... بعد تغيّر حالها المفاجئ.

مع الأيّام أصبح يحارب بوجوده مع أصحابه انفراد الغرفة الموحشة... التي ينتظره دائما بداخلها شيطان مرعب يدعى... الانشغال بسلوى.

ويحارب مع الأيّام كلّ أسئلته الجريحة التي تبدأ بلماذا؟ .

ويحارب أيضا الانتظار... نعم الانتظار... ذاك الشّيء الدّفين في أعماق نجوى قلبه... فقلبه المذبوح غُلب على أمره وأصبح ينتظر رسالة اعتذارها

المثقف

جهرا بعد أن كان يُكابر... لكي يغفر لها بسرعة... لأنّه أدمن حبّها... لأنّه أراد ذلك الحبّ... أراد منحها فرصة أخرى... فكبرياؤه بحاجة لتلك الرّسالة... لكي يرضخ بسهولة لأمر القلب... القلب الذي يُسرّ النّجوى إليها لتُعجّل بطلب السّماح... ليعاود تقبيل قلبها كلّ ثانية... أراد اعتذارها لأنّه على قناعة شديدة بأنه لم يخطئ بحقها أبدا... وهل في وهبها كلّ اهتمامه وتفكيره خطأ يعاتب عليه بتلك الطريقة القبيحة كأنّه فعل جرما.

لكن انتظاره طال وأصبح مشكلة أخرى... جالبة للنجوى كلّ ليلة والبكاء... أصبح يترجاها سرا أن تعتذر لكي يبكي ويغفر... ينتظر الرّسالة ليجلب لها كعذر من ذاكرته كلّ اللحظات المشرقة التي جمعتهم سويا في كنف الحبّ الذي كان لحظتها موقنا أنّها تبادله إياه... ويقبل لها العذر ويصفح... ومن عساها أحق بذلك الصفح منها... وهي الأولى على سُلّم المفضلين لقلبه قبل حبّه لنفسه دون تعظيم... لكن أيّام الانتظار زادته أسى... فليس هذا العاشق من يستحق كلّ هذا الانتظار لطلب السّماح بعد تلك الإهانة... أمست الإهانة إهانات كثيرة... لعدم إسراعها في تضميد الجرح... لأنّه أصبح يحاسبها من موقعها ذاك في قلبه... فهو لن يقبل بموقع في قلبها إلّا كالذي أعطاها... فعزّتها على قلبه تفرض أن يكون عزيزا عليها... وأين العزّة في تركه يتجرع أكواب المذلة والمهانة دون صون للكرامة...

* * *

الدرجة الثامنة

رجـــوع الموجوع

إلى حلبات الدراسة

المثقف

رجـــوع الموجـــوع إلى حلبات الدّراسة

المثقف

يـأس تلـك الأيّـام زاد إيهـاب كِبَـرا... وأتلـف وسـامته... وذهـب بوزنـه... كأنّهـا السّـنون الكثيـرة لعبـت بـه... زادت لعيونـه غـورا مـن كثـرة السّـهر... ودرءِ كآبـة الوسـادة بعشـرات السّـجائر كلّ ليلـة...

نسـي مـع الأيّـام طريقـة الضحـك وخفـة الظـل... أصبـح ينشـدها فـي سـجائر القنـب الهنـديّ... رجـع لسـاحة المخـدرات بقـوة... لكنّهـا تزيـد الحزيـن حزنـا...

رنـت سـاعة الرّجـوع لمقاعـد الدّراسـة... عـدم وصـول اعتذارهـا زاد إرباكـه بشـدّة... صعّـب عليـه رؤيـة المسـتقبل... ركـب مـع الرّفقـة الحافلـة بعقـل جديـد... عقـل لا يريـد مـن الدّنيـا شـيء إلّا تحاشـيها... تحاشـي رؤيتهـا... فقـد أصبحـت جرحـا غائـرا فـي جسـده... فـكان لـه ذلـك... فـأوّل هـروب مـن رؤيتهـا تحقّـق لـه... هـو عـدم رؤيـة اسـمها فـي قائمـة قسـمه... فـرح لذلـك وحمـد اللـه واسـتغرب لتَبـدّل حالـه... فمثـل هـذا الخبـر كان سـيقلقه بشـدّة لـو كان علـى حالـه القديـم... وكان سيسـعى لوجودهـا معـه فـي القسـم مهمـا كلّـف الأمـر.

هذا الأمر الذي طبّقته شيرين... فعندما وقع بصرها على استبعادها من قسم إيهاب جُنّ جنونها... وصعدت للإدارة لا تفقه شيئا واستمرت في المحاولة حتى نجحت ببعض معارفها في التّحويل على قسمه... لم تسأل حتى سلوى التي أسقطها الحظ معها في قسمها الأوّل... ولم تسألها التغيير لأنّها تعرف إجابتها من قبل... فمناها ألا يجمع الحظ بينها وبين إيهاب في مكان واحد... فقد صارحتها في الصائفة بحكاية إيهاب معها والحقد الذي أصبح يعُمّها... ويحرق قلبها... أرادت أن تشاركها شيرين حقدها... فراحت تنعت إيهاب بأقبح الأوصاف... لكنّ شيرين أنثى والأنثى تفهم الأنثى... ففي نبرتها أنّها غائرة الجرح من إيهاب وكل شيء سيصبح على ما يرام... بل أحسن ممّا كان عليه قبل الآن... فقد أصبح هناك حبّ مصرّح به رغم المشاكل التي عثرت بسير القصة فأوقفتها... ومن نبرتها أيضا فهمت غيرتها الشّديدة على حبيبها... فهي رغم حقدها عليه لا تريد أن ترى أخرى معه... وشيرين هي أعدى أعدائها... لأنّها تعلم أنّها أقرب إنسانة بعدها إلى قلبه ويُكنّ لها حبًّا خاصا كانت تخاف منه في سرها وتحترمه في نفس الوقت... وتعلم أنّها لا تزال مغرمة بإيهاب غراما عذريا غير مشروط رغم احترامها لخيار قلبه...

كانت شيرين في جُبّ قلبها ترى في الأمر فرصة لحبّها لكي يسترجع مكانه... فلا تزال رغم إرضاء إيهاب الدّائم لها لكي تحترم حبّه لسلوى ولا تضرّه بمشاعر غيرتها... فرغم ما كانت تراه من حبّ زائد في عينيه لسلوى... كان يطمئنها دائما وبالقول إنّهما أعزّ إنسانتين على قلبه ويتم ذلك في حضور سلوى... وكانت عيونه أثناء قوله صادقة... لهذا كان الإحساس اتجاه إيهاب فوق مستوى الحبيب... لكن ما جرى في الصيف بدّل المعادلة... فإن كانت سلوى قد ظفرت بصراحته تلك... فلن ترضى هي إلّا بالمثل منه... لن ترضى إلّا بإعلانه لحبّه لها مهما كلفها الأمر... فقد جن كيانها... فحبّها الدّفين العظيم

يرى أنّها الأولى بحبّه... فعندما كانت هي الأقرب لقلبه... لم تكن سلوى إلّا جليسا خجولا يرافقهما... لم تبلغ مكانها في قلب إيهاب إلّا بعد استغلالها للمشكلة التي طرأت بينها - شيرين -وبينه.

لكن كلّ هذا الإحساس يبقى دفينا... حتى معرفة نهاية قصته مع سلوى... فرغم كلّ قوة مشاعرها يبقى إحساس إيهاب والاتجاه الذي يسلكه قلبه هو السّيّد.

على العموم هي لن ترضى بغير رفقة إيهاب في حياتها الجامعيّة... لأنّه أصبح من عادتها ذلك... حتى أن أيّام الصيف فعلت فعلتها بها وزادت شوقها للُقيا إيهاب الصديق قبل الحبيب...

أما إيهاب فلا يشغل باله شيء إلّا كيف يتجنّب رؤية سلوى... فالأيّام تمضي... وهذا ما يزعجه... لأنّ رسالة اعتذارها لم تفاجئه بعد... لأنّ ما سيلاقيهما لم يدخل هاتفه بعد... فالمعادلة بسيطة عنده... فإن كانت نادمة فستعتذر... وإن كانت غير نادمة فلا تلزمه... هذه المعادلة كتبها كبرياؤه... أمّا ما يقول قلبه فشيء آخر قريب لهذا القول... فمعادلة القلب تنصّ على أنّ اعتذارها لازم لراحته... ولازم لكي يأمن الاقتراب منها ثانية... فالجرح الأوّل كاد يقتله... لم يندمل بعد ولا يزال يؤلم ساعاته... فكيف يقترب لينعم بجرح أكبر... سوف يودي بحياته بالتأكيد... فجرح رسالة مبعوثة من بعد... أخذه إلى هاوية الألم... فكيف سيفعل به الجرح الذي سيعيشه بكلّ مشاعره إن هو اقترب منها ورفضته وأهانته مباشرة وهذا إن استطاع الاقتراب... فهذا لا يفعله إلّا العبيط... والانتحار حرّمه من فوق السّحاب ربّ الأرباب.

* * *

فوجئت سلوى عند صدور القائمة النّهائية للأقسام بغياب اسم شيرين... اتصلت بها على الفور... فعجزت شيرين على البوح بالحقيقة... وأنكرت أنّها

من سعت وراء إيهاب... بل قالت أنّه هو من ألحّ عليها للتواجد معه.

اغتاظت سلوى للخبر جدا... ولكنها لم تُبد غيضها وكتمت شراراته... بينما اختلطت مشاعر إيهاب بين فرح بشيرين ووفائها... وبين شرود تفكيره في راحة سلوى التي يعلم جيّدا أنّها تجدها في جانب شيرين... وأنها سوف لن يعجبها الأمر... وعلى حسب معلومات قلبه الأولى سوف تلتهب غيرتها... ولن يستطيع أن يطفئ ذلك اللهب إلّا بإبعاد شيرين إليها... فتكون أمام عينيها... على الأقل حتى تعتدل الأجواء بينهما... لأنّ إشعال نار الغيرة في قلبها في هذه الفترة ليس من صالحه... وقلب سلوى الصغير لن يحتمل ذلك...

لكنه لم يستطع أن يبوح بسره لشيرين... واكتفى بقوله دون تلميح أنّه أحب لو بقت بجوار سلوى لتؤنسها... فهي أقرب النّاس إليها... لكن شيرين دافعت عن قرارها باستهزاء من سلوى ومشاعرها... وأجابت أنّها هي من أرادت الوحدة... فقد حثّتها أن تغيّر المجموعة ليجتمع ثلاثتهم من جديد... لكنّها رفضت وقالت أنّها أعجبتها مجموعتها...

بدأت بذرة إيثار سلوى على نفسه تنمو بسرعة... فهو يرى خلافا لها أنّه الكيان الأقوى... وأنه من يستطيع مكابدة الصبر أكثر... كلّ هذه المشاعر تخنق تفكيره وهو لم يحظ بملاقاة خيالها بعد... اللقاء الذي يخافه ولكنه ضروري لقياس مدى صعوبة الأمر ولو من بعد... فهي رفيقة له في نفس المعهد... معهد الهندسة المدنيّة... ولابد لهما أن يجتمعان في أيّ لحظة في أروقة ذلك المعهد الضيقة... لم يلبث بعدها إلّا دقائق في الرّواق حتى زُرعت ابتسامة في وجه شيرين... التي كانت واقفة معه وجها لوجه... لقد لمحت من وراء ظهره في أفق الرّواق شبح سلوى آتيّة باتجاههم... دبّت في عروقه المخدر... فجمدت فرائصه حين قالت شيرين... هاهي سلوى آتية... مرّت عليه لحظات رعب حقيقي شارف قلبه على الخروج من قفصه... بل خطرت على

باله فكرة ترك مكانه بسرعة ليتخلّص من ذلك الإرباك الشّديد... كان انتظار وصولها طويلا... كأنّه ينتظر نتيجة قماره بمبلغ ضخم من المال... أو كأنّه انتظار قرار إعدامه... كان القاضي آتيا بخطوات من ورائه كطعنات في وسط ظهره... وصلت أخيرا إليهما... كان يرى مكانها في عيني شيرين... طأطأ برأسه خجلا... وفاتحا لكلّ مجسّاته... كانت تخطو على قلبه... وصلت لكنّه أدرك أنّها لم تغيّر اتجاه مشيتها نحوهما... بل فهم بسمعه أنّها مواصلة طريقها وتأبى الاقتراب... خرج خيالها من وراء ظهره إلى نطاق رؤيته... رفع بصره إليها خلسة حين بادرتها شيرين.

صباح النّور... واش حوالك؟

الحمد لله... قالتها كالذي يخبئ حشرجة بكاء في حلقه... وحين ضغطوا عليه ليتكلم... بان بكاؤه في كلامه...

وتابعت القول بعد أن زادت سرعة مشيها: أحتاج أحدهن في قاعة الدّراسة... فوق في الطابق العلوي... وتركتهما... بينما خطف إيهاب كلّ تعابير وجهها في لمحة... كان الدّمع المحبوس في عينيها... والحزن المطبق على صوتها وسائر وجهها... وانحطاط أكتافها... وضياع وزنها... كأن فاجعة ألمّت بها وخطفت أعزّ النّاس إليها... كلّ هذه التّعابير تنم عن حزن شديد مطبق عليها بالتأكيد.

رحلت من أمامه... أبت عيونه المشتاقة لها أن تتركها وشأنها... لعلّ قلبه يسقط على حركة أخرى منها... تساعده في فهم شعورها... الذي بدا قاسما للظهر... تابعتها عيناه إلى أن غاب خيالها... وصعدت الدّرج... حينها أحسّ أنّه فرّق بين الصديقتين لأوّل مرة... تلك الحادثة ضاعفت كآبته... كأنّه اقتسم معها حزنها... غابت خفة ظله المعهودة... وحَلّ مكانها بؤسه على مبسمه... لم تترك شيرين المجال لذلك البؤس أن يغزو كيانه... فبرغم أن الأمر ليس حله بيدها... لكنّها لن تعدم طريقة للتوفيق بينهما والترفيه عليهما... فعيون سلوى

باحت بكلّ حزن تأبى الشّفاه أن تنطق بحروفه.

مات ذاك اليوم بساعاته الطوال... فقد زالت البهجة من الوجوه... وزال ذاك التّأثير السّحري للسرور الذي يجعل الوقت يمضي بسرعة خاطفة بتنويم مغناطيسي... الذي يكون أساسه الاسترخاء والمضي إلى إقفال إدراك الشّق الأيسر من المخ... واستبدل مكانه الإرباك المتواصل الذي يحثّ الجسم على زيادة إفراز الأدرينالين فتتقلد المسؤوليّة أجهزتنا العصبيّة الوديّة... مسرعة نبضات قلوبنا... مضيّقة أوعيتنا الدّمويّة... موسّعة صدفات عيوننا... فتصعد نسبة إدراك عقولنا إلى الإدراك الكامل... لهذا يتمّ إحساسنا بالحزن كاملا وفي كلّ ثانية... وتطول الدّقيقة في أعيننا كأنّها ساعة.

من أجل هذا كله انخرط العاشقان في إدراك تام للحزن... فراح إيهاب يأكل ساعاته بالتفكير المستمر في كلمة واحدة... ألا وهي الحل... فكيف عساه يفعل ليحثّها على الجمع بينهما... ليحثّها على بعث رسالة سريّة قصيرة تكون سببا لمجيئه نحوها... فقلبه سامحها بكلّ ما يحمل من قوة... وأصبح لا يريد اعتذارها... فهي أعلى قيمة من أن تعتذر... فقد منحها قلبه العذر وكانت فاجعته أليمة حين لمح حالها بكلّ ذاك البؤس... فصار وجعه مضاعفا... فهي آخر من يتمنّى أن يراها حزينة... ورؤيتها حزينة فقط تحزنه... فكيف بأن يكون هو المسؤول الأوّل عن حزنها... فتحوّل قلبه من المطالبة بغير رضوخ باعتذارها إلى تنصيب نفسه مسؤولا عن الرّجوع بسكة العشق إلى طريقها... وإرجاع البسمة لشفاهها... فقد أبكاه التّفكير المستمر في بكائها المخفي... وصار كأنّ فؤاده يهذي... كيف تسببت في بكاء من أحببت... كيف حرمتها سعادتها... كيف زرعتها في الوحدة وأنا عن ذلك راضي... كيف أرضى أن تكون وحيدة دائما... بل حتى أعزّ صديقاتها حرمتها منها...

استمر انهيار حاله إلى ما بعد منتصف الليل... زادت القهوة والسجائر

المثقف

سهاده... وأضاف هدوء الليل ونغمة الشّاب حسني الرّومنسيّة لجو قلبه بعضا من الهدوء... سرح بباله بعيدا مع القمر الذي كان بدرا يجلب الأنظار... بدأ إحساس غريب قديم يداعب قلبه... جلبت فكرة مداعبة سلوى برسالة خلويّة معها السّعادة القديمة... رسالة تكون عربون بداية... لعلّه يزيل بعض حزنها عنها... ويزيل بإرسالها الغمة عن صدره أيضا...

اسمحي لي إن أزعجتك قبل الآن

لكن أقسم لك أنّ عشرتك لم ولن تهون

كيف أعبّر لك

لم أجد إلّا كلمة أحتاجك

أحتاجك كلمة أقولها

لكيلا أقول لك أحبّك

فيبدو أن حبّي أزعجك جدا

لكني أحببتك فعلا ووهبتك قلبي عند علمي أنك تستحقينه

فمن ماذا كان قلقك

أرجو منك توضيحا

لأني لا أحتمل البعد عنك أكثر

خصوصا بعدما رأيتك فقد زادت حاجتي إليك أكثر

أحبّك

وأحترمك أكثر

الغريق في بحر عيونك.

بعث بها وكأنّه بعث بحزنه مع الأثير فانتشر في الهواء... أزالت بعض غمته قليلا... لكنّه لم يعرف أنّه قد عاود خلق ذلك الوحش الذي يزرع فيه التوتّر ويخيفه منها... إلّا عندما أفاق في الصباح... وبدأ عندها العد العكسي لانفجار

المثقف

توتّره... فقد حل الصباح وبالتأكيد تكون قد قرأت الرّسالة.

إذا فأين ردّها... أين رسالتها... لماذا تهزأ بي... أنّها تعلم جيّدا ومن كلّ رسائلي الماضية... أنّني لن أستطيع صبرا... ولا أستطيع الوقوف عندها بعد الذي جرى... فلماذا تريد منّي أن أكون بعيدا وقلبي عندها... تستمر أسئلة لماذا في عصر فؤاده حتى ينقلب حاله انفصاما... فجزء منه اغتاظ لعدم وصول رسالتها... والجزء الآخر منه متوتّر جدًّا ويرى أنّه ببعث الرّسالة زاد حاله تعقيدا فقط... فكيف يواجهها.

مضى في طريقه كعادته... يبغي الكليّة صباحا... مترنحا بخطوة للأمام وخطوتين للخلف... ازدادت رغبته الشّديدة في عدم التّعثر فيها... ولكن حظه كان عاثرا... فما إن صعد درج الطابق العلوي في قسم الهندسة المدنيّة... حتى عثر فيها نازلة... فطأطأت رأسها بشدّة... وبحزن وغضب شديدين هرولت أمامه حتى كادت تسقط في الدّرج... احتار عندها إيهاب بشدّة... وإحتار في الجرم الذي يمكن أن يكون قد فعله... لكن تلك الحيرة لم تأخذ من وقت قلبه إلّا بضعا من الثانية... فقد هاج كبريائه للدفاع عن قلبه الحنون الذي خان العقل والجسد وتجرأ أن أعطاها جزءا من تفكيره... وتنازل لها وألغى من حساباته أن تطلب الاعتذار وهو الأحق به... فتكافئه بعد كلّ هذا الاهتمام والتنازل بأن تستصغر من مشاعره وتصفعه بها على وجه قلبه الجريح... مُحيِية بذلك جرحه الذي لا يزال ينزف ألما وحيرة وكبرياء.

لكنّه الآن على الأقل حصل على إجابة... وفض حالة توتّره من كثرة انتظار ردّها.

أعطى غضبها لقلبه راحة لا يفهمها إلّا هو... فقد أغناه عن دوامة التّفكير في إيجاد مخرج لمأزقهما... بالإضافة إلى أنّه أحيا صديقه الكبرياء... فأصبح لا يعنيه شأنها... بل أحيت غضبه منها فثار يرفض كلّ ذكرى لها قد تردِه من

عقله أو من أعزّ أصدقائه... فهذه شيرين أخطأت وجلبت على شفاهها اسم سلوى... فأبكمها تكدّر حال وجهه... فقد هاجت تفاصيله كالبحر الهائج... ففهمت بنباهتها وفطنتها وغيّرت الموضوع بسرعة... ممتصة غضبه بهدوء... كانت متمرّسة وقادرة على علاجه...

لكنّه كان يضمر في قلب قلبه طلبا خفيا... كان المسكين كأنّه بإعلان غضبه منها أمامها يشكوها لها... قلبه في مكنوناته يريد أن يُدخل شيرين كقاضي بينهما... ومن غيرها أقرب لقلبهما... ومن غيرها يمكن أن يفهمهما... كما يقول القروابي (نكمي قصيتي عند النّاس ألي تبيع غالي)... فلا تحدّث بحبّك ولا تستشر به أحدا إلّا المتمرس فيه الفاهم لضروبه وجنونه... ولم يبتدأ الخيانة فيه يوما... ويبذل في سبيل حبّه نفسه الغالية... فلا يغدر ولو كان الثمن مبهرا... لذلك كانت شيرين هي الأقدر على تحمل هذا العبء...

وفي الحقيقة هو ليس بعبء فقد استلهم لبّها عند معاينتها لانشطار قلبه... فقد عاينت فصلا جديدا في دروب شخصيته... لم تكن تعلم بحاله حين الهجر قبل الآن... فأخذت تدرس بنهم كلّ تفصيل فيها... فازدادت مع الأيّام احتراما لحبّه وطريقته... بل وأخذتها مذهبا وعقيدة في عشقها... لأنّها لم تكن تمعن بمظهره أو ما يبدي على محياه ولا تعطيه قيمة... بل كانت تبحر في العيون لتبلغ قرار شعوره... فقد لمست بأنه كتوم لحبّه حريص... وعشقه عفيف طاهر منزّه حتى من كلمات حقد أصلها لحظة الفراق وأسبابه القاتلة للشعور... فاحترامه دائم لحبيبته... مهما عصفت الظروف... ولمست أيضا أنّه يحمل لذلك الاسم ألما وكبرياءً دفينين في العينين... رغم حالة عدم الاهتمام بسيرتها التي يبديها للعيان... فاحترمت عدم حبّه لاسم سلوى أن يكون منطوقا أمامه... واحترمت تجنّبه للبوح بأسرار المشكلة... فبرعت في نسيان ذكر سلوى أثناء معاشرته ورفقته... وبرعت في خلق المواضيع لتزيين

جلستهما... لتعويض نقص لياقة شفتيه في الكلام بسبب بؤسه المكتوم... بيد أنّه لم يفقد أناقته... وزادت لكآبتهِ لباقتهُ في الحديث... فلا يزال يزيد في استمتاعه بكلام محدّثه ولا يقاطعه أبدا حتى يُتم كلماته... وبعدها يُزيّن الجلسة برأيه المثقف المحبّب لكلّ الأطراف.

إذا كان قلبه ضعف ويريد النّجدة... فإن عقيدة عقله وسائر خلاياه لا تؤمن بتدخل أيّ كائن حي بينهما... ويتخذ من العبارة الرّياضيّة المشهورة ** أقرب مسافة بين نقطتين هي الخط المستقيم ** قاعدة لحبّه ولتعامله مع مشاكل حبّه.

فهمت شيرين بعضا من قصد قلبه... وسارت في طلبه لأنّه الطريق الأصوب بالنسبة لطرف محايد... فرغم مكابرة كلّ خلايا جسمه... إلّا أنّ هالة جسمه خاضعة لذكراها...

المثقف

لكنها متحيرة جدًّا فحالة الجريحة الأخرى جد متقدّمة من نكران ذكراه وذكر سيرته أمامها... وما زاد صعوبة التّدخّل بينهما أنّها لمست مشاعر غيرة مبطنة من سلوى... غيرة بدأت تتحوّل لحقد شيئا فشيئا من قرب شيرين الدّائم لغريمها... غيرة كانت شيرين تضحك عليها في صميم قلبها كلّما تلمحها...

فقد حدث مرة أن استفردت بها وبعد طول لف ودوران... قلّبت الحديث عن الحبّ... فركزت في عينيها ناصحة كأنّها تريد أن تزيح من تفكيرها شيئا وقالت...

نصيحتي لك... صعبة بالتأكيد ولكنها ستحافظ عليك... لا تغرمي أبدا... الحبّ سم... ما إن تغرمي... حتى تفقدي السّيطرة على حياتك... سيصبح قلبك وعقلك ملكا لشخص آخر... وسيهدّد وجودك واهتماماتك... ستبدئين بفعل كلّ شيء للتمسك بمن تحبّين... وستفقدين كلّ استشعار للخطر...

الحبّ هذا الشّيء الخطير الذي يتعذر تفسيره... سيمحو عن وجه الأرض كلّ ما أنت عليه... ومحلّه... سيحل كلّ ما يريد حبيبك أن تكونيه.

طأطأت حينها شيرين رأسها ساعية إلى مواساة سلوى... من دون أن تفصح أنّها عرفت أنّها تقصد نفسها في النّصيحة التي أسدتها إليها... فحاولت أخذها بعيدا في الحديث عن فكرتها... ولكنها تراجعت وقرّرت اغتنام الفرصة لإزاحة وسوسة الغيرة قليلا من قلبها... فقالت لها:

أنا لا أنكر أن الحبّ سائس عظيم لبني البشر... يطوّعهم ويرضّخهم... فلا يستطيعون معه شيء... ولا يحيدون عن أوامره وقواعده من كلّ قلبهم... منهم من ينجو بعد سنين ومنهم من يأخذ بيده إلى هلاكه... قد يبدأ عسلا ويمسي علقما.

المثقف

صحيح أن الحبّ صعب جدا... ولكن الأصعب منه أن يغتنم أحدهم فرصة حدوث مشكلة بين العاشقين ويحاول زرع النّميمة بينهما... أظنّ أنّ مثل هذا الشّخص دنيء فعلا... فلا يدخل بين الظفر واللحم إلّا الوسخ...

فتوسعت حدقتا عيني سلوى من حسن ما سمعت... عيناها اللتان كانتا تتجنّبان عيني شيرين لكيلا يكشفان بعضا من أسرارها الدّفينة...

فهمت المقصود من الكلام وابتسمت واطمأنت سريرتها لتلك الكلمات.

حاولت شيرين إرضاء غيرة سلوى بزيادة وجودها معها أكثر فأكثر... لأنّها تعلم أن ذلك يطمئنها على الأقل قليلا... مغتنمة الفرصة مرة على مرة فتتغابى وتذكر لها أن إيهاب استمتع ضاحكا عندما روت له إحدى الطرائف اللتان عاشاها معا... فتتمرّد على قانونها الصارم في عدم ذكر المحظور... فتقصف عدة عصافير بحجر واحد... فتُليّن قلبها على إيهاب قليلا... وتُبيّن لها حسن نيتها لتُبرد قلبها من حر غيرة الشّك وتثبت لها وفاءها لهما الاثنين من جهة وحيادها في مشكلتهما من جهة أخرى... وتدفئ فؤادها بذكر يومياته وطرائفه

رغما عنها وهذا الأهم.

أمّا إيهاب فمع الأيّام أصبح محظوره هو سؤاله مباشرة فقط عن ماذا جرى بينه وبين سلوى... أمّا ذكرها وذكر أحوالها فهو أمر يضعه شوقه في درجة أحبّ ما يريد أن يسمع غصبا عن أنف كبريائه.

تواصلت الأيّام التي لا تنتظر أحد... وساهمت تلك التّطمينات التي يستقرئها قلب إيهاب من كلام شيرين عن استلطاف سلوى لذكر نوادره المضحكة أمامها... كأنّ شيئا لم يكن... فيحدّثه قلبه أنّها من طينته تأبى إدخال أحد بينهما مستمتعة بكبت المشكلة العسليّة حتى تحل بإذن القدير... أحبّ فيها هذا كما أحبّه في نفسه... فتواصلت تنازلات كبرياءه يوما بعد يوم... فابتلع الطعم وبدأ قلبه الذي يتحيّن الفرصة للنطق برأيه الخانع من حر لهيب عذاب الفرقة عن أحبّ الأحباب... فقد كان رأيه الرّجوع دائما للجلاد... لكنّ العقل فيما مضى كان يؤلب عليه كلّ الأعضاء حين صدمة الجرح... فيتم إخراصه تماما... فلا يفلح الشّوق في إمالة كفة رأيه أبدا... رغم بكائه اليوميّ على الوسادة من ألم ضياع حلمه وألم ضياع الأيّام بلا فائدة... فكل يوم لا تتراجع فيه عن رأيها يمرّ عليه كأنّه شهر من العذاب... فالسعادة والأمل معها بكلّ معنى الكلمة... فكل يوم تغرب فيه الشّمس هو فرصة للفرح ضائعة... أمّا الآن فقد أفلحت كثرة الآلام واستقراؤه التّطميني للوضع في الضفة الأخرى في إعادة إرجاعه للمحاولة من جديد لعله يقضي على هذه اللعنة التي أقصت أيّاما غالية من فرصة السّعادة... فخان كبرياءه وانطلق يمارس العسّة عليها... فربط لها في مخدع عند باب قسمها لن تفلح في رؤيته فيه... فخارت قواه عند لمح عيونها وثقبت الرّموش ما تبقى من كبريائه وأفاضت الكأس... فتحسّر القلب على ما يضيع من جلسات في تأمل تلك الفتنة عن قرب... فسواد جفونها دواؤه... ومالكة الدّواء تأبى الوصل... لكنّه

كالعادة انتبه لحزن دفين في تعابيرها وضياع تألق محياها رغم ابتسام شفتيها مع صديقاتها... وهذا ليس بجديد عليه.

أطفأ بتلك النّظرة المسروقة شيئا من هيجان شوقه... لكنّ رؤية عيونها سلاح ذو حدين... فقد أصبح يؤنبه ضميره... وأصبح لا يرى نفسه إلّا قرب تلك العيون دائما... حتى أنّه حسد كثيرا صديقاتها على قربهن منها... فبدأ الحثّ المستمر لمعاودة المغامرة... فقرّر أن يفعل أقصى ما يستطيعه... أن يبعث رسالة... فلم تنجلِ تلك الليلة إلّا ورسالة مغامرة منه سكنت ذاكرة هاتفها... رسالة أيقظت إحساسه بالتوتّر... وأيقظت جبنه من مواجهتها في مرحلة الانتظار... الذي يضاف لجبنه العظيم وعجزه الأعظم من التّفكير فقط في الذهاب إليها مباشرة...

نص رسالته من شوقه نبع... فكانت حروفها باكية قليلة... كتبها بعد أن أمعن في صورتها التي يحتفظ بها لتلطيف شوق الليالي..

سلام

اشتقت لك كثيرا كثيرا

اشتقت لعيونك أكثر

لماذا على قلبي لا تردين

ولماذا كلّ هذا الغضب

أنت أحبّ إنسانة لقلبي

وستبقين أنت سيدته

لكني لا أفهمك جيّدا

فما الذي يرضيك يا ساحرة العينين

لا أريد من الدّنيا شيئا

إلا الوقوف الدّائم بين يديك

ارحمي حالنا ولمُيّ شملنا

كفاك قسوة

فالقلب الضعيف أصبح لا يتحمل

ودموع جفني جفّت في رثاء حبّي الضائع

ارحمي حالي

وارحمي ضعفي

فلو كنت قادر على المواجهة

أقسمت لك وسأداوم

القسم

أنّ ما أفعله معك هو أقصى ما أستطيعه

لواجهتك

لكن كما تعرفين

يقول النّاس الشّجاعة في القلب

وقلبي جريح عندك مأسور

فمن أين آتي بالشجاعة

يا ظالمتي

حرف مناسب منك يأتي بي عندك

في أيّ وقت وأي مكان

فتجاوزي المشكلة

ولا تطيلي عندها الوقوف

فارق موقعه في غرفته وقصد مركز حراسته الذي بدأ يحن إليه... لكنّ انتظاره كان بلا فائدة... فقد اتضح أنّها قد غابت عن الحصة الصباحيّة... فحمل نفسه نازلا تملؤه الحيرة وجزء من الشّك أن تكون رسالته هي السّبب... لكنّ

الأقدار لم تشأ إلّا أن تجمع بينهما مصادفة... فبينما حاول تجنّب كلّ الطرق التي احتمل أنّها قد تسلكها في اتجاه الكليّة... حتى تقاطعت في منتصف درب من دروبها العيون فجحظت عيناه فيها من هول المفاجأة... بينما أدارت هي عيونها عنه كأنّه صورة سيئة لا تريد رؤيتها... لفت برأسها لفة تومئ بكره شديد له... ومضت في سرعة قصوى تريد الخروج من ذلك المحيط الذي يجمعهما... غاب خيالها بينما جمد هو في مكانه يراقبها في يأس بعينين بدأتا تغرورقان بالدموع... أشعل سيجارة بينما استل نظارته من حقيبته لأنّ مقلتيه غرقتا في العبرات ولا يبدو أنهما ستشفيان من الدّمع...

نزعت من قلبه الشّهيّة في الدّراسة فرجع يجرّ خيبة لو وزعت على أهل الأرض لأحزنتهم... دخل الإقامة الجامعيّة فلم يخرج منها ليومه التالي... ادعى على شيرين الصداع الشّديد لكيلا تخبره على الخروج لها... كان يومه صعبا لكنّ العبرات أخرجت نصف الهم... فكل يومه ذهب في إعادة تكرار الموقف في ذهنه مرات ومرات حتى أخذه النّوم... حاول أن يفهم شعورها من طريقتها آلاف المرات لكنّه لم يقتنع بتفسير...

حمل الفجر الجديد معه حقنة مضاعفة من الكبرياء ملأت شرايينه... وكعادته تجعله دقات قلبه المتسارعة حين يبلغ نطاقا يحتمل فيه مجابهتها يسترسل في الدّعاء من صميم قلبه كي لا يلمح خيالها...

تحقّقت أمانيه في معظم الأوقات... أمّا فيما تبقى من المصادفات السّيئة فقد أصبح يعاملها بطريقتها التي أصبحت دستورا حين تقاطعهما... يدير وجهه بسرعة خاطفة كي لا يلمح أيّ جزء منها ويمضي متسارع الخطى وبغضب يتم مشيه...

توالت الأيّام... تحاشاها بشدّة... رغم عذابه... أصبح يُغيّر طريقه بمرونة إن هو لمحها من بعيد... ولا يهمه أبدا إن انتبهت له أو لم تنتبه... فرؤيتها

أصبحت بالنسبة إليه جرح مجانيّ آخر... وتناسى أيضا ذلك الموقع الذي ينتشي فيه بعيونها... فمن ذا الذي يذهب للمكان الذي يُطعن فيه برجليه.

تواصلت النّكسات ورحلات حروفه الفاشلة... رسائل أيّام ضعفه أصبحت جروحا غائرة... فقد بلغ بها التّطاول الذي لا يعلم سببه أنّها تتفاخر عليه برجوعه كلّ مرة عند بابها برسالة رجاء... فقد كان يلمح غرورا زائدا تضيفه إلى عنادها وعدم احترامها لظله إن هما تقابلا صدفة... فيزيد بإرساله دموع ضعفه استهزاءها به... فأجبرته على عادة جديدة تُخرجه منتصرا عند كلّ مرة من المكيدة... فأصبح لا يصبر على عدم ردّها إلّا نصف يوم... بعد ذلك يرميها في رسالة بأبشع الصفات ويستهزئ بحمقها أنّها صدّقته ويمعن في الوصف حتى تصدق كلّ كلمة... كلّ هذا لكي يقضي على حالة انتظاره التي تلي ضعفه... لأنّه ألف أنّها إن أطالت المدة بلا ردّ فلا توجد فائدة في الانتظار... ويقضي على حالة غرورها واستهزائها الجارح بحبّه... ولكي يلقاها بعد ذلك مرتاح البال مقلّبا على حبّها الطاولة... ممسكا بيده هو حبل الاستهزاء.

أما شيرين فبدأت شيئا فشيئا تحس بالراحة... فيبدو أن السّاحة شاغرة ولا تنافسها فيها أخرى... فبدأت في الرّضا الحقيقي عنه بإبعادها عن حياته... فلم تعد سلوى بالنسبة للمسكين إلّا حرقة وعذابا ورسائلا عند الضعف... لا يُردّ عليها فتزيد الأمر سوءا... عذاب عظيم يتمنّى الموت خلاله ولا يجده... واكتئاب حاد جلبت معه لعنة المخدرات كلّ ليلة... لكنّ الأمل في قلبه لم يمت... إن كان له قلب... فحلاوة حبّها السّابقة أقفلت باب قلبه أمام أيّ مغامرة عشق أخرى... لعلّ قلبها يحن ويرجع لعاشقه... فلا يريد بكلّ إصرار ومقت خلق فتاة تكون مشكلة أخرى بينه وبين حبّه الذي يرجاه بكلّ آماله... برغم الواقع المؤلم الذي يبثّ اليأس في القلوب الحائرة...

فيستهزئ بعيون دائمة الحزن من رغبة شيرين فيه... فما تراها تفعل بجثة

هامدة... وفاقد الشّيء لا يعطيه... فَقدَ الحبّ فكيف بكلّ جرأة تطلبه منه... وهو يعلم وهي تعلم جيّدا أن قلبه ممزّق ملقى تحت جدران سلوى... سلوى التي وبحسب يومياته الكئيبة يرى أنّ قلبه لن يفقد الأمل فيها... فالأمل فيها كأمله في السّعادة... فبكاؤه على أيّامه التي تمضي بسرعة البرق هو ما يحثّه على الأمل بالظفر بما تبقى منها... أيّامه التي كان من الممكن أن تكون بسعادة غامرة... ولكنها تدور مسرعة... وما يفتك بقلبه أنّه لا يملك الحل... والحل كله بين يديها... ما زاد حقده عليها...

أصبح حزنه عادة وكيف ينتقل منه ومربط فرحه عندها... ولا تريد أن تفهمه... كما يحبّ أن يصرخ وحده كلّ ليلة... فخلاصة تعبيره عن وضعها كله... أنّها شديدة العناد وتأبى أن تفهم... يموت عند بابها كلّ ليلة دون أن ترحم... فأمسك رسائله استرحاما لحاله لأنّها لا تزيده إلّا بؤسا... فكانت كلّ نكسة تقوّي قلبه أكثر وتحثّه على إطالة مدة الصبر أكثر لكيلا ترجع حروفه إليه خائبة ذليلة... فزادت مدة جزره على حساب مدة مده... فجزر عشقه أخف الضررين وأيسر العذابين.

فتباعدت كثيرا فترات ضعفه... فقضت على كامل أيّام العام دون فلاح... لم يفلح صبره... ولم تفلح كلّ كلماته الرّاجية... ولم تفلح كلّ عبراته الحارقة لجفونه... لم يَخبَر في حياته أن احتاج لشخص مثل احتياجه لها... ولم يلقَ في حياته شخصا وضع فيه كلّ أمله ورجائه فخيّب الرّجاء مثلما خيّبت... رغم قناطير الألم والدموع والتوسلات الجريحة...

بات يرى المكان جحيما... فتراءت لذهنه أنّه من المستحيل أن يُكمل عاما آخر في مثل هذا الاضطراب والتوتّر اليوميّ الذي كاد يذهب بحياته من ضيق صدره وشقاء قصته... قصته التي بذل فيها كلّ مجهوداته ليظفر بنهاية سعيدة... لكنّها اتضحت أنّها لن تُحلّ إلّا من الطرف الآخر... الطرف الذي لن

يرحم على ما يبدو.

أكمل ذاك العام الحزين مع ابتسامات قليلة مع أصدقائه... اكتشف فيه الوفاء الكامل لشيرين رغم علمها بذبول مشاعره وجرح قلبه... حاول قلبه المحبّ بطبعه منحها حبّا يماثل حبّها... لكنّ عدم انقطاع الأمل من حبّ سلوى حال دون إرضائها بشكل كامل... لأنّ كلّ مشاعره على محياه بادية... .

حتى سوزان لم تغفل عنه... فكثيرا ما كانت تؤنس وحدته في ليله وتواسي حزنه حين يفتح صفحته السّرية على الفايسبوك التي أعدّها خصيصا لها...

تحصّل من حسن حظه على درجات تنجحه... فتحصّل بنجاحه على شهادة الليسانس... فكانت فرحته بها عظيمة... فقد ضمنت له الخروج من أبواب المأزق... كالناجي من النّار فرح بذلك... فخلاصة مسيرة العام البائس كان كالفأر الذي تمخّض فولد جبلا... ذاك الدّبلوم الذي طال انتظاره... فأخيرا حاز القلب على فرحة تداعبه وتنتشي بها فرائصه.

لم يكن الدّبلوم مجرد ورقة نجاح طال انتظارها... بل حلا لمشكلة أصبح يَعترف أنّه لا يوجد لها حل... مشكلة عشقه... فقد أصبح المكان لا يسعهما الاثنين... فيجب على أحد منهما أن يتنازل ويترك المكان آمنا للآخر... وبما أنّه يرى حين تعقله أنّه في النّهاية هو الذي ابتدأ الإزعاج... وبما أنّه تمرّس التّضحية أثناء فراقهما... فليس بشيء عظيم تركها تكمل دراستها بهناء... فقد قدّم الغالي والنفيس تضحية لهناها... ولن يبخل بآخر تضحية في سبيلها... لأنّ الأمر اتضح أنّ لا سبيل للعودة... فعلى الأقل يترك لها نهاية جميلة لحبّه المقدّس الذي لم تثق في حسن نيته وصفاء سريرته وصِدقه الكامل وبذله اللامحدود الذي وصل به في بعض من الأيّام إلى حالة من اليأس الحاد لدرجة أن ترجّاها أن تقبل فقط بوصول حروف قلبه ولا يرجو منها شيئا البتة... فكل هذه الأيّام صقلت حبّه وأذكت سريرته... فباتت مهمته كرجل قويّ أن

المثقف

يبحث عن حل مناسب للطرفين... فلا يعقل أن يفرض حبّه عليها وهي له كارهة... كما يقول المثل الجزائريّ... كلّ شيء بالسيف إلّا المحبّة... حتى أنّه لن يحتمل جرحها لقلبه كلّ مرة... فغرامه كامل لا يحتمل الإهانة ولو كانت بسيطة... لذا فإن ابتعاده عن المكان هو الحل كما يقول المثل المصري... الباب ألي يجيك منو الرّيح سدو واستريح.

* * *

المثقف

الدرجة التاسعة
ابتعاد جسد بلا قلب

المثقف

ابتعاد جسد بلا قلب

إذًا فقد أعلن قراره وبدأ من لحظة حصوله على الدّبلوم رحلة البحث عن عمل... خصوصا أن فكرته كان يشاطره فيها الرّأي صديقه حازم الذي قرّر أيضا إنهاء مشواره الجامعي وعدم خوض مغمار الحصول على شهادة الماستر... فلقد أعيتهما كثيرا أعوام الميزيريّة والشقاء في تلك الإقامة... أمّا فادي فلم يفلح في العبور... كان شريكا لحازم في قسم الكيمياء العضويّة... فعاود السّنة لإتمام إخراج بعض المواد الأساسيّة...

لكن إيهاب لم يكن يظنّ أنّ فادي أقرب أصدقائه وشريك غرفته سيصبح في المستقبل القريب شوكة في حلقه.

فاتت لحظات حبّه العسيرة... التي عانى فيها الأمرّين ليستطيع أن يُفهمها أن أقصى ما يستطيع فعله قد فعله... فحبّها تركه كالمشلول... كلّ شيء فيه يرغب أن يكون معها ولكنه لا يستطيع أن يحقّق حلم كله... ولم تستطع هي أن ترحم حاله وترسل بكلمات حنونة تأتي به مهرولا... ليطفئ نار شوقه... أمّا الآن فهو ينظر إليها كالحلم البعيد... فقد نجحت في إدخاله في حالة يأس تام منها ومن رسالتها... فلم يعد له ما ينتظره في حقيقة أمره... فرغم إحساسه الدّائم القويّ أن مشاعرها القديمة لم ولن تتحوّل ومازال حبّها على ما هو عليه... بل قد صقلته المآسي... حين أصبحت أصغر الأشياء واللقاءات التي كانت ميسورة حلما عزيزا... إلّا أنّ الواقع هو الواقع... ولن يتغيّر منه شيء... وسيظل مركبهما الشّراعي مركونا في مكانه في المرفأ... لأنّ الرّكود سيد الجو... الكل في عينيه نظرة حزن... فما من ريح قويّة بما يكفي لجعل المركب يغيّر اتجاهه... سيبقى الكل في المرفأ... يغامر في المياه الرّاكدة فقط... الكل يعاني... لكن على ما يبدو لا يسع أحد فعل أيّ شيء.

مضت أيّامهما بسرعة... وعاودت الجامعة فتح أبوابها... وبدأ هو يعمل كمساعد في مكتب دراسات للهندسة المدنيّة غير بعيد عن مدينته.

أما هي فاختارت لنفسها شعبة Matériaux... وشاركتها فيها شيرين... كان اجتماعهما هو أجمل خبر وصل لسمع إيهاب... فهو رغم كلّ شيء يحمل أكبر قلب يمكن أن يتمنّى لها الخير... وهو أصلا لا يكرهها... بل يحقد عليها لأنّها لم ترحمه بحروف كان في أمسّ الحاجة إليها.

قلبه لا ينفك حين وحدته يحدّثه عن نصفه البعيد...

يستلقي أحيانا على سريره... ساهدا... مرتبكا حائرا... سائلا نفسه إن كان

قد اتخذ القرار الخطأ...

وأحيانا أخرى يكون واثقا بأنّ واجبه كان يملي عليه الانصياع لكبريائه وحماية نفسه من القتل المحقّق على يد تلك العنيدة المجنونة... غيّر أنّ الوقت ليس في صالحه... فكلما بعدت لحظة الفراق... تطهرت الذكريات من اللحظات الصعاب... وتحولت اشتياقا إلى ذلك الفردوس المفقود.

لا يعود بإمكان الآخر المقاومة... فقد أصبح بعيدا... يبدو منشغلا مثل الأسبوع.

يسأل نفسه ببعد نظر دائما... هل من الممكن أن يتحقّق تهديده لها وقسمه لها في بعض الأحيان حين غضبه أنّه لن يتنازل مرة أخرى ويتواصل بها... وأنه سينساها إلى الأبد... فهل سيتحقّق في يوم ما هذا القسم الفاشل دوما...

بدأ في ذهنه يتكون لها ملف أسود... كلّ جروحاتها... كلّ المآسي التي تسببت فيها... هذا الفراق القاضي على الأحلام التي تسببت فيه... بالرغم من أنّها كانت قادرة على حله بحرفين منها... كلّ الدّموع والآهات التي ذرفت... كلّ السّعادة التي قتلت في مهدها...

أمسى لا يتذكر لها بؤسا إلّا وتسابقت لذهنه كلّ مزعجات هذا الملف... هذا الملف تعظم وتضاعف حتى صار ينافس ملف حسناتها وحسنات حبّها في قلبه...

فأيقن فلسفة الحبّ... أيقن فلسفة السّماح... فهم أنّه كان في كلّ مرة يحرق لها من حسناتها حتى يستطيع أن يغفر لها زلاتها ويدفئ البرود الذي طغى على كيان حبّهما... لكنّ كثرة حسناتها ليست تدل على أنّها لن تنتهي في يوم من الأخطاء... فقد يأتي يوم تخطئ فيه فلا تلقى مغفرة أبدا... وتكون هي الزلة القاضية... الزلة التي أفاضت كأس العبرات... العبرات التي سكبت ألما ولم تسكب لحد الآن ندما... فهو من كلّ قلبه لا يريد لهذا الحبّ أن يكون خطأ.

أبصر أمام طريق حبّه فوجد أن فتاة أحلامه أمعنت في إغلاق كلّ الأبواب أمامه حين أيقنت عجزه... لم يبقَ إلّا هاتفها البوابة الوحيدة وغير المفيدة...

في الضفة الأخرى كانت شيرين تتوجع ألما لغيابه فجأة... ويبدو أنّه لن يعلن الزيارة مادامت وجه الهم سلوى بجانبها... فهي تفهم أنّه يتجنّب الجرح لقلبه بتجنّبها... لذلك لم يكن في وسعها عمل أيّ شيء لإحضاره...

حتى أنّه أصبح يتجنّبها في مواقع التواصل الاجتماعيّ... لأنّه لا يملك إجابات على تلهفها لرؤيته... فهو يرى الجامعة كجهنم لقلبه... فكيف يلج لمنطقة فيها سلوى... لمنطقة محرمة عليه... لنطاق يغم قلبه إن هو فكّر في الاقتراب منه... فبلوغ حدود منطقتها يجلب سحاب الهم ويسكنه الصدر حتى أنّه يكاد أن يغمى عليه من فرط الانزعاج... ولكأنه سحر الكره والإبعاد مُورس عليه أو عليهما...

المثقف

كيف بوسعه الذهاب وهو لازال يحارب في جولات نسيانها الفاشلة في كلّ مرة... فراح يتفنن في توفير أسباب النّسيان... وعدم رؤية ظلها أهم تلك الأسباب... كما يقول المثل الجزائريّ ** البعيد عن العين بعيد عن القلب **... المثل الذي يَكفُر به دوما في أحاديثه مع رفقته فيقول فيه أنّه خطأ... فبعض النّاس بُعدهم كقربهم أو أكثر...

لعله لم يفهم المثل جيّدا... أو لعله استبق الحكم... فبُعد العشر سنين ليس كهجر سنة... قد يقتل أعمق المشاعر ويستّل الحبّ من جذوره...

سارت الأيّام... وتابعت الأرض دورانها لا يهمّها إن كان على ظهرها حزن أو فرح... وتوالت خرجات القمر تزين الليالي السّرمديّة... وكما كان له تأثير على حركات المحيطات والبحار... كان له تأثير على مد وجزر عشق الصغار...

لكن لم تبقى جحافل عشق سلوى بنفس القوة التي كانت عليها في السّابق... فلن تستطيع الآن إجباره على معاودة المغامرة معها... لأنّ مواجهة

صمتها القاتل هو أكبر احتمالاته...

لم تحمل الأيّام أيّ جديد ينبئ بشيء مفاجئ قد يحمل فصلا جديدا من القصة البائسة... إلى أن أتى اليوم المشؤوم الذي أخل بتوازنه وتوازن حبّه.

كان يوما باردا من أوائل الشّتاء... كان يجلس على كرسيه المستدير المريح في ساعة عمله كعادته في المكتب يرتشف قهوة بعد الظهر الممتعة... فتح المسنجر فإذا برقم شيرين يطلبه في الهاتف...

تواصله ذاك مع شيرين حمل ريحا غزيرة باغتت هدوءه... فقد داهمت حصنه بكلمات عفويّة... أو ربما كانت غير عفويّة لحاجة في نفسها... فقد جاء في سياق حديثها خبر أوقد ناره... فبعد أن سألها عن أحوالها.

أجابت ممتعضة حزينة الصوت: لا بأس... لم أعد أكثر البقاء في الجامعة.

أردف إيهاب القول سائلا متحيرا: وأين ذهبت سلوى؟ ناطقا اسمها بحزن وحشرجة في صوته كادت تنزل من فرطه العبرات.

أجابته قاصدة أو ربما غير قاصدة: لقد صرت أترك سلوى مع نجوى وفادي... يبدو أنّها صارت تفضل مجلسهما عن مجلسي... حتى أنّها أصبحت ترافقهما سرا للتنزه على شاطئ القصر الأخضر Le château vert...

كان يبدو من كلماتها ورنتها أنّها تشكوها له... لكنّها لم تعلم ماذا صنعت بتلك الكلمات... لم تعلم مقدار الزلزال الذي ضرب قلبه وهزّ كلّ أرجاء كيانه...

حاول أن يخرج بالموضوع لكنّ قلبه يعيده في كلّ مرة فيتحايل على حديثها ويعيدها لتحكي موضوع سلوى بالتفصيل... حتى ملت من تدقيقه المتلعثم في تفاصيل ما قالت...

حاول بائس الصوت متلعثم الحروف أن يلمّ مشاعره ويجمع منها كلّ المعلومات.

قائلا: إذا هم في كلّ يوم مع بعضهم البعض؟

أجابت مسرعة غاضبة من إعادته الموضوع وغاضبة منها: نعم... وأرجوك غيّر لنا الموضوع.

تاه قلبه حائرا في سؤالها وردّ عليها في سره (كيف أغيّر الموضوع وأنتِ حملت لي مصيبة ستجنني)...

بعدها أجابها متحايلا ضعيف الصوت لكنّه حاول الإسراع في كلماته لكيلا تنتبه لنيته: وحدهما أو تكون معهما نجوى في كلّ الأوقات؟

حاولت أن تمسك الضحكة بعد أن أبعدت الهاتف عن فمها وأجابته بفم نصف مبتسم متذكرة في مخيلتها حال نعم إن فادي يقضي معها كلّ أوقات الفراغ تحت الأشجار المجاورة لقسم الهندسة المدنيّة... وفي كلّ مرة أمرّ عليهما أجدهما يضحكان بشدّة.

سكتت عن القول... وسكت دماغه مع نهاية قولها... وأُعلنت في كلّ أعضائه حالة من الطوارئ هي أقرب إلى حالة الجنون.

قطع اتصاله معها ولا يدري بما كانت كلماته الأخيرة... فقد فقَد الوعي بما يحيط به... حاول الوقوف لكنّه لم يستطع... أمسكته عنه رعشة في ركبتيه شديدة... أمسك علبة سجائره مرتعش اليدين... أخرج منها واحدة بصعوبة... وبصعوبة أوصلها لفمه وأشعلها... لم تكمل الدّقيقة حيّة بين يديه... أكلها أكلا لعلها تطفئ توتّر أعصابه المشتعلة... ولعلها كانت دواءه هي والثلاثة الأخرى التي أشعلت من أعقاب بعضها البعض بلا توقف.

كانت السّاعة تشير إلى الثانية بعد الظهر... لكن في قلبه وعيونه كان غاسق الظلام قد وقب فقرّر إغلاق باب المكتب والمضي للبيت بلا عودة... أراد مكانا أكثر حنانا يلفّ به نفسه المقهورة...

كانت الصدمة صدمتين... هي... ومع من!... مع صديقه المقرب.

هذا ما كان يخاف منه... فقد كان يحسّ بحبّ فادي الكبير لسلوى... حتى أنّه كان يزعجه كثيرا بنظراته اتجاهها... لكنّه لم يكن يُعره أدنى اهتمام... لأنّ ثقته كانت عمياء بقلب سلوى وحبّها... حتى في لحظات فراقهما... لم تبد له يوما حركة قد يعدها قلبه جرم خيانة ولو بنظرات من عينيها... كانت عيونها تبدو دائما أنّها مشغولة محتارة... وظاهر بلا كلام أن الحيرة فيه وفي مشكلته.

لذا لم يكن يخاف من أيّ حبّ أن يزعزع حبّه من عرينه في صدرها... بل كان يحسّ في بعض الأحيان بالكمال حين يرى نظرات الحبّ تلف محبوبته من دون أن تعطي لهم بالا... بل وتمقتهم في بعض الأحيان إرضاءً لغيرته... غيرته التي تعرفها جيّدا أنّها لا ترحم المخطئ... فقد خَبِرَتها قبل ذلك في مشروعه مع شيرين في أوائل أيّام التعرّف الجِدّي بينهما... وفادي كان ممن انتبهت له وأظهرت مقتها لمشاعره تجاهها التي ستجلب لها المشاكل مع حبيبها.

عدم وضع الغيرة في طريق حبّهما هو بنده المفضل في عهدهما... ولفرط اعتنائها بصحة هذا البند كان يحسد نفسه عليها وعلى انغماسهما في بعضهما دون توقف... ولم يكن يرى نفسه مستحقا لعذاب الغيرة الشّديد... لذلك كان موضوع كلّ رسائله الحقيقي هو تطمين قلبها أنّ لا وجود لحبّ آخر ولو بعد أمد طويل لأنّ قلبه عندها بكلّ معنى الكلمة.

كان يجهد نفسه دائما لكيلا يوقظ غيرتها وترضى عنه أيّام فراقهما... لأنّه يعلم جيّدا أن الغيرة هادمة للحبّ... ومحرقة للأحشاء... ويعلم أيضا أن الغيرة قد تجعل من شيرين عدوتها اللدودة في حادثة مشبوهة واحدة... لذلك قام بواجبه على أكمل وجه وبأقصى ما أمكنه من قوة... لعلمه أنّها تشك دائما أن شيرين تود الرّجوع لتأسر قلبه من جديد...

أما الآن فما الذي حدث لها؟

ألم يكفها كلّ ذاك الظلم الذي عانيته معها؟

ماذا أفعل؟ ماذا أفعل الآن؟

أتريد قتلي العاهرة؟

أتكافئني بالخيانة بعد كلّ ذاك الصبر !؟... ومع من !؟

أقسم أنّها تريد موتي الفعلي؟!

كرّر هذه الأسئلة مرات عديدة والإغماء يداعب رأسه... بينما راحت ذاكرته تبث له مقاطعا كان يحسبها عفويّة... فلمرات عديدة وقع بصره صدفة على فادي ينزل من نفس سيارة الأجرة التي أتت فيها سلوى... كان يشتاط غيضا ويحسده لأنّه استطاع الاقتراب منها كلّ ذلك الاقتراب... لم يكن يعلم أنّه أصبح نديمها...

والآن أيضا فهم كلّ مشاعر الإرباك والخجل التي كان يحملها فادي منه منذ بداية الدّراسة... وبالأخص في المرات التي أمسكه متلبسا نازلا معها من رحلة الرّجوع... كان توتّره المفاجئ ينبئ أنّه يخفي شيئا.

لم يهدأ له بال إلّا عندما أمسك هاتفه مغموم الصدر وكتب والغضب يتطاير شرارا من مخارج وجهه:

كثر خيرك (زاد الله خيرك) أو بمعنى (شكرا جزيلا)

كثر خيرك

أعطيتك قلبي وخدعتني

كثر خيرك

وهبتك روحي وخنتني

كثر خيرك

صبرت من أجلك صبرا لا يصبر

كثر خيرك

قتلتي ماضي أيّامي ومستقبلي

كثر خيرك

رأيتك بعيني التي أحبّتك

تخونين عشقي وإخلاصي

معه تحت أشجاري

كثر خيرك

أسلتي دمعي وشربتي دمي وبعدها بالرخيص (الخسيس) بعتني

كثر خيرك

أنا أتقلب كلّ ليلة... أنتظر أن تفرغي من عنادك... وتردّي على رسائلي... وأنت على بحر الخيانة تنامين وتصبحين.

(كتب هذه الكلمات بينما انفجرت مقلتاه بدموع حارة)

كنت على الأقل أخبرتني قبل ذلك أنك فرغت من حبّي وأعلنت انسحابك...

كنت على الأقل حسبت حسابي جيّدا... وعودت قلبي ألا ينتظرك... لا أن تفاجئيني بعملك الدّنيء... يا خائنة.

يا عاهرة

كثر خيرك

وشكرا وألف شكر

يبدو أنني أسأت الاختيار فعلا

فخائنة مثلك

ظفر رجلي أعزّ منها

اليوم أغلقت الباب فعلا

الوداع

ومبارك

عشرتك الجديدة

بعث بها واستفرد بالبكاء حتى جفّت عبراته من مقلتيه اللتان كرهتا من الدّمع... وصارتا لا تستجيبان كثيرا... أو لعلّ خللا أصابهما من كثر النّحيب على حظه وحظ حبّه وحظ رسائله الوحيدة... التي انضمت لصفهم الأخيرة ووضعوا في درج غير المردود عنه.

حرقت قلبه مشاعر غيظ من الجبهتين... وإن كان قد ألف حقدها وعدم اكتراثها ونزع الحيرة من أفعالها حين أتبعها بصف العواهر... فإنه لم يألف بعد نذالة صديقه أو قل حبيبه... فقد تألم لجرحه أكثر... فهو العالم بلا كلام لحاله... والدارس لمعاناته مع حبّه جيّدا.

أقسم إيهاب أن لن يغفر جرمه... لأنّه فعل لا تغفره قوانين الرّجولة أو على الأقل قوانين الصداقة... لأنّه قاس ذلك بنفسه فوجد من الاستحالة أن تقع عينيه على عشق صاحبه ولو كانت ملكة الجمال.

لكنه رجع ليفكّر في المستقبل، فتصوّره كالوحش سيدمر حياته بالتأكيد... ويبدو أن الواقع الآتي سيثبت ذلك في الحقيقة...

فألمه الدّائم أبعد فادي من قلبه وصحبته... حتى صار لا يحتمل رؤية وجهه أو سماع اسمه... كان ذلك عسيرا في البداية لأنّ الرّفقة مشتركة... ومكان الجلوس في المقهى واحد لكلّ الجماعة... غيّر أنّ دراسة فادي وعيشه في الإقامة أبعده معظم الأسبوع عن عينه... وسهل الأمر على قلب إيهاب قليلا...

غيّر أنّ مظاهر الافتخار التي يبديها فادي عليه حين يلحظه كانت تمزق قلبه... كان يعلم معناها وما ترمي إليه... كان يتبختر بفوزه بقلبها ويرقص متباهيا مستمتعا بآلام غريمه على أوتار هجر الأيّام وفرِحا بمجالسة سلوى اليوميّة... مجالستها التي أصبحت حلما بعيد المنال له.

* * *

الدرجة العاشرة

القطرة التي أفاضت كأس صبره

المثقف

القطرة التي أفاضت كأس صبره

المثقف

كان طلبة بلدية بن عزوز يسلكون طريقا طوله سبعون كيلومتر للوصول لمدينة سكيكدة... وفي طريقهم يمرون وسط مدينة عزابة المجاورة لبن عزوز ليعاودوا التنقل منها لسكيكدة...

كانت مدينة عزّابة هي الملاذ الشّعبي لسكان بن عزوز إلى جانب مدينة برّحال في جهة ولاية عنابة... يقصدهما السّكان للوصول لولايتي سكيكدة وعنابة على التّوالي وللترويح أيضا عن النّفس وتوسيع مجال تسوقهم في معظم الأيّام...

كان ظهر يوم خميس في آخر شهر فيفري... عندما قرّر إيهاب قطع تسوقه في السّوق الأسبوعيّة لمدينة عزابة متوجها إلى محطتها لنقل المسافرين... لكن لم يكن يظنّ أنّ ذلك الظهر سيجلب لجرحه طعنة أخرى... فبينما هو

يهم بالدخول إلى المحطة حتى لمح وجوه أعدائه ضاحكة أمامه... كانت سلوى وفادي ومعهما نجوى... الكل خارج من المحطة بعد وصولهم من سكيكدة ومتوجهون للشق الآخر من المدينة... أين تقبع سيارات الأجرة التي سيكملون فيها الرّحلة للبيت...

كانت نهاية الأسبوع وقد ألِف إيهاب من قبلُ سلوكَ طريقٍ آخر للبيت لكيلا يتقاطع معها في الطريق... لكن المثل يقول * معظم ما تخافه في حياتك مجرد وهم ولن تقابله * لكن المعظم ليس الكل... ففي بعض الأحيان ما تخافه تجده أمامك... فآخر جرح كان يتمنّى رؤيته بأم عينيه هو اجتماع فادي وسلوى أمام مقلتيه... هي صورة تبقى في ذهنه عالقة تجلب لياليه العذاب... وتحرمه من النّوم شهرا.

رجع لا يرى شيئا إلّا ضحكهما مع بعض... ظلت ذاكرته تعيد الفيلم النّكد مرات ومرات... مركزا أكثر على الابتسامة السّافرة التي أبدتها سلوى حين لمحته... كانت مستمتعة بغيرته ببساطة بعدما لمحت انزعاجه ورميه فادي بنظرات مقت شديدة حين تقاطعهما.

احتقر نظرتها وبعد نظرها وطريقتها واحتقر ذله أمامها وأمامه... فلم يكن هذا اللؤم فيها ظاهر... ولم يكن القتل بندا في حبّهما المعهود... فكيف صارت دماء قلبه شرابها المفضل كخمر معتق منذ عقود...

أحسّ بالخطر فعلا على قلبه... حتى أنّه لم يخرج للمقهى تلك الليلة مخافة نظرة الانهزام أمام فادي... وهذا بالضبط ما ينقصه.

أحسّ أنّها ترى في الأمر لعبة... وكيف لا تستمتع ومشاعره تصلها في حينها دون استطاعة إيقافها... بينما هي لا تشغل نفسها أبدا بالردّ... واعتادت ذلك... نقِم على هذا الوضع الذي ورّط نفسه فيه دون وعي...

عدم سهره مع الشّلة اضطرّه إلى السّهر بجنب مسكنه في بقعة ظلماء بعد

أن نادى حازم بالهاتف ليكون نديمه... لكن المكان استهواهما فكان ذلك بلسما على جرح إيهاب... وكعادته كانت السّجائر القاتلة ببطء دواء توتّره الحارق للأعصاب... فلقد كانت تلك الحادثة هي السّبب وراء إنهائه لعلبة كاملة في ليلته تلك بلا وعي... حتى احتار في انفتاح شهيته صديقه حازم... لقد اجتمعت كلّ غيرة العالم تلك الليلة في صدره فألهبته... حتى أنّه فكّر بقنبلتها برسالة شتم وسبٍّ للخيانة... رسالة لو فعلها ربما كانت تخفّف من ضغطه... لكنّه أمسك ضغطه في أرجاء جسمه ونام بعد أن ناصف الليل...

لم يأفل توتّره حين فتح عينيه بعد صلاة الجمعة... لم يخبو ارتباكه لأنّ السّبب لا يزال قائما... لمعت في عينيه حينها فكرة الهروب... نعم الهروب من شبحها وشبح غرامها وتغيير الجوّ كاملا...

لم يطل بحثه عن مخرج... فقد استعاد فكرة كانت سوزان قد طرحتها عليه منذ شهرين... فكرة أن يعمل في شركة مقاولات أبيها بالعاصمة... يعمل ويتكون تطبيقيا في نفس الوقت... ولكون ديبلومه مطلوب في مجال البناء... سيكون من دواعي سرور أبيها أن يوظّفه، فهو يشجّع الكوادر الشّابة ويستفيد من معلوماتهم وحماسهم الذي لا ينضب.

ازداد بريق هذه الفكرة في ذهنه... فصارح بها سوزان عن طريق الفايسبوك... فرحت سوزان كثيرا به وبقراره المفاجئ... لأنّه سبق أن اعتذر كثيرا لها وفضّل عمله كمساعد في مكتب الدّراسات... معلّلا ذلك بقربه فقط من مقر سكناه لا لشيء آخر... أمّا الآن فقد أعلن لها أنّه مستعد للمغامرة... لكن في حقيقة قلبه كان مضطرا للمغادرة.

كان السّبب الرّئيسي لنزع فكرتها من قلبه هو معرفته جيّدا لضُعفه أمام براثنها... فلن تكون لنفسه سلطة على تصرفاته... وستذهب به بعيدا في بحر الشّهوات... ولن تترك له الفرصة لولوج باب التّوبة أبدا... التّوبة التي بدأت

تجد طريقا إلى قلبه... خصوصا عند ابتعاده عن محيط الإقامة الذي يشجّعه دائما على سلك درب المدمنين ليمرّر وقته بشيء من السّعادة... فتغيّر حاله قليلا وبدأ يحسّ لكلّ موطنٍ رذيلةٍ بالمّقت ولو كان ضعيفا.

بَيد أنّه الآن يريد السّقوط في فخّ الشّقراء... لا يهمه مصيره معها... فقد تكون المعوّض والمُنسي لِهَمّ عدوّة قلبه...

وهذا كله فصل من فصول الحبّ البائسة... حين تجبرنا ضربات الحبيب الغادرة على الإسراع في إلقاء أنفسنا في جب أعمق... فنداوي الخيانة بالانغماس في أتون الشّهوات المحرمة انتقاما لقلبنا... وانتقاما من حبيبنا وحبّه الذي كان مالكا لنا يسري في عروقنا... فنُبينُ له أمامه -لأنه فينا-أنه لم يعد بتلك الهيبة وسنثأر من أيّامه... لا تهمّنا من الآن فصاعدا أطنان دموعه.

طلبت منه سوزان مهلة أسبوع فقط لتدبّر له الموضوع... وبالفعل كان له ذلك... فلم يختم الأسبوع أيّامه إلّا وهَلّ هلال قبوله بمنصب بديل لمسير الأشغال في ورشة من الورشات العديدة التي ابتدأت فيها الأعمال... كان المسير السّابق قد طُرد بسبب الإهمال، وشغور منصبه هو ما ساعد على تلبيّة طلب إيهاب بسرعة وفي المنصب الذي يُعنى به أمثال من يحملون ديبلومه... لذا فقد وقع هذا الخبر على حسب إيقاع ما يريد قلبه.

كان يوم وصول البشرى هو يوم الأربعاء... بشرى قبوله وبشرى قرب الابتعاد عن العذاب.

وما زاد من شدّة رغبته في ترك المكان هو ازدياد تواتر الأحداث السّيئة على قلبه في الأيّام السّابقة... فقد عاودت الصدف المشؤومة جمعه مع ما يخشى... فبالرغم من أنّه لم ينسى الحادثة السّابقة بعد ولم تُمحَ صورتهما من خياله... إلّا أنّه التقى بهما مجدّدا المسكين في وسط مدينة عزابة صبيحة السّبت الأخير يقصدان الجامعة...

لكن الضربة كانت موجعة أكثر... فقد زادت من جنونها وأخذت تصطنع الضحك بصوت عالي عندما لمحته... ذلك الضحك الذي جعله المسكين ينكمش في نفسه بشدّة بعد أن اختلت مشيته وشارف نبضه على بلوغ الأرقام القياسيّة... فترك المكان مرعوبا مسرعا قاطب الجبين مُطأطأ رأسه حتى بلغ بين ثدييه... أحسّ نفسه كأنّه فأر مجاري لا قيمة له... بينما واصلا طريقهما وزهوهما يملأ المكان صخبا... زهوهما البادي للعيان أنّه كان مصطنعا لإغاظته وإفقاده عقله... وما زاد من جنونه هو شكّه في أن فادي يعلم حتى كلمات رسائله وما كان فيها... علم ذلك بفراسته من لمح تعابيره أثناء الفاجعة.

يبدو أنهما نجحا في إرباكه أيّما نجاح... فقد طال ارتعاش ركبتيه واستمر ضرب الدّف في صدره حتى بعد ابتعاده عنهما... حتى اضطر للجلوس على حافة الطريق عندما داعبه الإغماء أو جنون الغضب... واصل جلوسه وسط استغراب المارة حتى ظنّه بعضهم مريضا لكونه أطال وضع رأسه على ركبتيه المضمومتين كالذي ينام جالسا... فاقترب منه أحدهم يطمئن عليه... لكنّ إيهاب طمأنه بقوله بشفتين مغلقتين حزنا: لا بأس لا بأس... أنا بخير بارك الله فيك.

لعنها بعدها ولعن اليوم الذي تعرف فيه عليها... وأقسم بأن لا رجعة عن هجرته... ورفع صوته بكلام لم ولن يفهمه المارة... صرخ رافعا رأسه كالذي يكلّم السّماء قائلا: أسرعي يا سوزان... لأنني سأموت... ستقتلني هذه العاهرة.

أتمّ وراءها الأيّام التي سبقت خبر سوزان المفرح بفرط من الجنون... لا يعلم ما يفعل... فكّر كثيرا في شيء ينسيه ضربتها القاضيّة... لم تعد المخدرات مجديّة... فقد زادت بؤسه أيّام الإقامة... فتركها فيها في آخر أيّامها من غير رجعة... فكّر في الخمر... لكن خشي غمرته... فلقد رأى أنّه لو سكر سيتعظم إحساسه بجرحها أيما تعظم... وسيفقد التّحكم بنفسه ويستطيع حتى قتل نفسه في غمرة الاندماج مع التّعصب.

لم يجد إلّا الخيانة القصوى ردّا على طريقتها... فتوعدّها سرا بسوزان في الأيّام القادمة... توعّدها بقلبه يمنحه مع جسده على طبق من ذهب لتلك البريئة التي وهبته نفسها بعد رؤية آثار العشق فقط في محياه وتفاصيله... وأحبّته وهي تعلم أنّه يحبّ غيرها بجدارة... وأيقن صفاء عودها ونقاء سريرتها حين عاشرها عارية من قشور الرّياء... كما استلهب لبّه تعلّقها الكبير به وبكائها له عديد الليالي تترجاه فيها معاودة المثول أمام عدالة غرفتها... لم تعد غرفتها تعني السّرير فقط... بل تعني انفرادهما ببعضها عن سكان الأرض بكلّ حميميّة... فقد لمس الحبّ الحقيقي فيها وفي نبرتها منذ مدة ليست بالقصيرة... وهي الكاملة من جميع النّواحي... كاملة لدرجة يستطيع بها منافسة مكان سلوى في كيانه بكلّ ثقة... فمن غيرها يستطيع أن يقلب حكمها في قلبه... كان يبحث عن قلب حنون محبّ يرمي ثقل عشقه عليها... كالطفل اليتيم الذي يرمي محبّته على أوّل امرأة تعطف عليه لحاجته الماسة لصدر أم...

تفكيره بهذه الطريقة بعث في نفسه الرّاحة... وابتدأت ثقته في نفسه معاودة الرّجوع إلى مكانها... يبدو أنّه وجد الحل لعجرفة سلوى... ويبدو أنّه وجد الانتقام المناسب لمشاعره الأخيرة... الانتقام الذي سيعيد له السّيادة والغلبة في هذا العشق المجنون... الغلبة التي ألف الحصول عليها فيما سبق... فقد كان كما ذكرنا لا يترك لها الفرصة بالهناء بكلماته الحنونة كثيرا... إلّا ويسدّد بعدها على مقتلها كلماته الجارحة عندما يشك في عدم ردّها واستهزائها بدموع حروفه...

لكنه هذه المرة أراد من كلّ قلبه أن يهدّم الجسر الذي يضمن له العودة كلّ مرة... وكيف يعود والجرف بينهما أضحى سحيقا... وكيف يعود والخيانة أصبحت عن سبق إصرار وترصد...

لكن انتقامه لم يكمل إلّا بعد أن وجه رصاص حروفه إلى هاتفها يبغي هزمها وسرقة النّصر الأخير في حربهما منها...

فطعنها بهذه الرّسالة:

تعلمين جيّدا أنني كنت أتمناك زوجة

لكن الآن أنت لا تصلحين لذلك

لأن قوانين الرّجال تجرّم الزواج من العواهر

العواهر السّاذجة التي يلهو بها الرّجل

ويلقي بها بعد الملل لصديقه

بعث بها ليتركها تضرب أخماسا في أسداس.

* * *

عدل من هيئته عند الحلاق جيّدا... وابتاع لنفسه هيئة جديدة زيّنها بعدّة ألبسة حديثة... وجهّز حقيبته وأوراقه الشّخصيّة ومستنداته يقصد السّفر...

صبيحة السّبت... كانت الذكرى الأسبوعيّة الأولى لجرحه الأخير... لم تبلغ السّاعة العاشرة صباحا عندما وصل للمكان الذي اتفق فيه مع رب العمل على الالتقاء... كان المكتب المركزي للشركة... استقبله رب العمل أبو سوزان السّيد رشيد أيوب... كان فيه من سوزان القليل... أنفها الجميل واستدارة وجهها وشعرها الأشقر...

تمت المقابلة باستحسان جيّد... فقد راق للمقاول حسن إجابة إيهاب على بعض الإحاطات في مجال عملهم... فارتاح له مبدئيا... وتمنّى له التّوفيق في الميدان التّطبيقي... وأن يجد راحته في كنفهم.

بعدها سلّمه للمسؤول عن إدارة الموارد البشريّة في الشّركة ليتسلم ملفه الشّخصي ويُعِدّ له ملفا خاصا في الشّركة كمجرّب لمدة خمسة عشر يوما...

بعدها ركب مع المقاول السّيارة ومضى به يعرّفه مكان العمل... كانت

ورشة بناء أربع عمارات في بلديّة المكان الجميل Beau Lieu في دائرة الحراش شرق العاصمة...

دخل بتوتّر طفيف يستكشف المكان... كانت عمارة من الأربع قد بلغت الطابق الثالث... أمّا الثانية فلم تتجاوز فيها الأشغال إلّا إتمام الحُفر... أمّا الثالثة والرابعة فلم تبدأ فيها الأشغال نهائيا إذا تجاوزنا أشغال تعيين مكان إقامتها من طرف المهندس الطوبوغرافي... فهو عمل ابتدائي يتبع اختيار المكان الشّامل...

اقتاده السّيد رشيد ليُعرّفه على فريق العمل... وسلّمه داخل مكتب مسير الأشغال الذي سيصبح مكتبه التّصميمات الهندسيّة للمشروع بأكمله والتي كانت مقسّمة إلى تخصصات منفصلة... ألقى عليها نظرة فاحصة ابتدائية... وحملها معه لأنّها ستكون أساس عمله.

بعدها سلمه للعم بومدين العين السّاهرة على ذلك المشروع... كان رجل جاوز السّتين من العمر أبيض الرّأس ذو وقار... يعمل كراعي للمشتريات الدّائمة للمشروع من أتفهها -وهي الدّائمة-إلى أعظمها... فهم فيما بعد أن كونه من أقرباء السّيد رشيد فإن مهمته كانت أعظم من ذلك... فمنذ بداية مشوار السّيد رشيد في المقاولاتيّة والسيد بومدين يعمل معه كراعي لشؤونه في غيابه بلا رياء... فوجوده كان لازما فهو ينقل له كلّ أخبار عمله وعمّاله ويحرسُ ماله وأشغاله في غيابه... حتى أنّ وجوده يجعل الكلّ يُحسن العمل والتصرف.

أخذه العم بومدين في جولة في المشروع قصيرة... تعرّف فيها ابتدائيا على معظم العمّال من بنائين ومساعديهم... كان لا يحفل المكان إلّا بهم... لكون الأشغال لاتزال في البداية.

بعدها أتى مهندس الشّركة المسؤول عن المشروع... كان شابا اسمه رؤوف من ولاية البليدة... بمجيئه أصبح الكلام علميا أكثر... أخذ منه إيهاب نظرة أوليّة على المخطط الواقعي للمشروع... والجدول العمليّ وطريقة الشّركة في

التّدرج في الأعمال...

بعدها أخذه العم بومدين للمقر الذي ستكون فيه إقامته... كانت فيلا من ثلاثة طوابق يملكها صاحب العمل... مخصصة للعمّال السّامون... أمّا البناؤون ومساعديهم فكانت شاليهات الورشة مقرا لهم...

أدخله غرفته الخاصة وتركه مودعا إياه للغد... بعدما وعده أنّه سيمر عليه كلّ يوم على السّابعة صباحا ليأخذه لمقر العمل لبُعده قليلا.

نزل بعدها لأقرب مطعم من مقر الإقامة واقتنى لنفسه سندوتشا ضخما من الشّويرما والطماطم وصعد به ليسد جوعه ويرتاح قليلا ويستعد لشغل الغد المباشر.

اتصل حين راحته بسوزان وطمأنها بمضي كلّ شيء على أحسن ما يرام... اعتذرت منه حينها أنّها لن تستطيع ملاقاته في عطلة نهاية الأسبوع... وفضّلت صبرهما لحين ترسّم حاله واندماجه بالشغل جيّدا... حتى لا يؤثّر ذلك على عمله الدّقيق نوعا ما والشاق أكثر... لأنّها أدرى النّاس به... لأنّه شغل العائلة الشّاغل...

استقبل كلامها بالترحيب وشكرها على كلّ شيء... وأنّه سعيد بقربه منها ولو من دون لقاء.

* * *

المثقف

لقاء الحديقة

مضى الأسبوع الأوّل من العمل على أكمل وجه... انخرط فيه بكله... يبغي جديد أيّامه وما تحمله من معرفة... تناسى ماضيه بزخم حاضره بجدارة... هبت منذ يومه الأوّل ريح على قلبه أزالت كدره وقلقه الذي كان يُضمره... فانسكبت روحه في إناء مكانه الذي يشغله... وفي معارفه ومعرفته الجديدة وعمله كيف يدبّره...

بدأت رجلاه تتوغلان في أرض الورشة وبدأت روحه المرحة تكسبه بعض العمّال في صفه... وبدأت خفة ظله تبحث عن مثيلاتها لتتلاءم معها.

كان يمضي يومه بالتجول على رؤوس البنائين... للاطمئنان على حسن سير الأعمال وجودتها... لأنّ جودتها ما يضمن له الاستمرار هو والبنائين... وللوقوف أيضا على انشغالاتهم وما ينقصهم من عُدّة وعتاد ومواد البناء...

فنقص المسمار فقط مثلا قد يعطّل أعمال الشّدات لمدة نصف يوم أو أكثر... كذلك نقص الرّمل أو الإسمنت أو حتى الماء... لذلك كان كلّ بنّاء لا يغفل عن مطالب يومه أبدا... وفي المساء يصّر على تواجد كلّ ما يلزمه من مواد بناء في موقعه الذي يباشر فيه الأشغال... كلّ هذا لكي يبتدأ يومه في الغد بسرعة ودون انتظار...

كان يكمل يومه على الخامسة مساءً فيتجه بعدها منهك البدن إلى منزله... أصبح يضمن له الوصول إليه أحد البنائين العاصميين بسيارته كلّ عشيّة... لأنّه في طريقه.

كانت ساعة التّوقف عن العمل كلّ عشيّة تُورد في القلب فرحة وراحة... يُتمها في منزله كلّ مساء بالاسترخاء في حوض الاستحمام لمدة نصف ساعة تُرجع لبدنه نشاطه وحيويته ونظارته وتضمن له النّوم بسرعة إن هو أراده.

المثقف

كانت رفقته في الفيلا من مختلف المناصب... فيهم المهندسين وفيهم مسيري الورش وفيهم بناؤون مسؤولون... اتخذ منهم أصدقاء ليله... وشركاء المطبخ والسهرة... السّهرة التي كانت تُعقد في فناء المنزل الدّاخلي كلّ ليلة بعد وجبة العشاء الجماعيّة أمام شاشة التلفاز... يكون فيلم السّهرة هو موضوع الليلة... وتعلن بانتهائه نهاية السّهرة مباشرة... فيلجأ كلّ فرد بعدها لغرفته لينام لفجر يوم جديد...

استمرت تلك الأيّام بنشاطها وراحتها حاملة معها حياة جديدة بأتم معنى الكلمة... تذكر فيها أحيانا حياته هناك بعيدا فحمد ربه أنّه ابتعد عن هم تلك المعقدة المجنونة التي كادت تقتله بصمتها... وحمد الله أن سهّل له هروبه بقلبه ليبعد تفكيره عن كلّ ما يذكره بها... وسهّل هروبه من كلّ المدينة التي أصبحت أيضا تذكره بها دوما.

لم تكن أيّامه غزيرة الأشغال فسوء الأحوال الجويّة الشّتويّة عطّل كلّ

الأشغال الخارجيّة ولم تستمر الأشغال إلّا في مجال بناء الحوائط المجوفة داخل الطوابق الثلاثة للعمارة الأولى... التي كان يحرص فيها بأن يتم بناء الجدران المتقابلين بالتناوب بحيث يرتفع الجدارين معا ويحرص على المحافظة على نظافة الفراغ بين الجدران المجوفة من كسر الطوب ساقط المونة وغيرهما... كما يحرص على استعمال نوع من الأربطة مناسبة...

وفي الحالات التي يملأ فيها الفراغ بمادة عازلة يحثهم أن يتم تركيبها أولا بأوّل بحيث تكون مستمرة بالكامل وخالية من الفراغات كما ينبههم على المحافظة عليها من التّلف والتمزّق.

مع التأكّد في مواقع أخرى في البناية من استلام أعمال الطرطشة بالإسمنت على أحسن حال... والتأكّد بعدها من تنفيذ طبقة البياض بالإسمنت على طبقتين لا تزيد الأولى عن 2 سم... ومراجعة السّطح النّهائي من حيث درجة النّعومة والخشونة طبقا للعينة المعتمدة... مع التأكّد أخيرا من رش أسطح البياض بالمياه لمدة ثلاثة أيّام.

أمّا عمّال حديد التّسليح فقد كانوا يستغلون فرصة انقلاب الجوّ في تحضير الأعمدة وأعمدة الأساسات وحديد الميدات للأسقف... ينفذ كلّ ذلك حسب التّصاميم.

* * *

اقتربت ساعة اللقاء بتسارع السّاعات نحو الخميس وعطلة نهاية الأسبوع... كان شغل يوم الخميس ينتهي عند منتصف النّهار... أسرع عند صافرة النّهاية إلى الاستحمام وتحضير نفسه جيّدا للقاء الغزالة الصهباء... كانت الفيلا تفرغ من ساكنيها حينها لكون معظمهم من سكان الولايات المجاورة فقط... يقصدون منازلهم مسرعين لكي يصلوا قبل العصر... لينعموا بأكبر عدد من السّاعات بين عائلاتهم وأولادهم... لأنّ معظمهم من أرباب الأسر...

اتصلت به لتحثّه على الإسراع قليلا... اتفق حينها معها على الالتقاء داخل حديقة الحامة الضخمة... التي قام بتصميم مشاهدها الطبيعيّة مهندسون خبراء في فن البستنة في القرن التاسع عشر... كانت مكانه المفضل... لا يمل الجلوس فيها...

بعد خمسة دقائق وصل إلى مدينة الحراش فنزل إلى المترو واتجه به إلى الحديقة... كانت مسافة دقيقتين فقط لسرعة قطار الأنفاق الكبيرة... لم يلبث بعد وصوله كثيرا... فقد أشرقت أخيرا الأيقونة على ممر التّنين الذي كان يستهويه دائما الجلوس فيه... كانت في أروع حلة... زادها رونقا ذلك المعطف الورديّ الطويل التي يستمر لغاية أسفل ركبتيها... ليكمل بعده حذائها الجلدي الأبيض الطويل ذو الكعب مهمة تغطية جسدها العاجي... الحذاء الذي يسلب الأنظار من بعيد متناسقا مع الرّيش الحريري الكثيف الذي زيّن رقبة معطفها... لم يصبرا طويلا بعد اللقاء الحميميّ الحار الذي لم يكن كما أحبّت القلوب لازدحام الحديقة بالعائلات العاصميّة... اغتنما خلو الممر قليلا والتصقت الشّفاه بقبلة طويلة كادت الأرواح تنزلق فيها لحلاوتها الآسرة... لم يصدق طعم تلك الشّفاه المعتق فانكب يغرف منهما بنهم حتى كاد يقتلعها من مرابضها... حينها فقط حل الرّضا على النّفوس.

كانت أشجار ممر التّنين المتداخلة جدًّا أو ممر طارزان - نسبة للفيلم العالمي الذي مثّلت مشاهد منه داخل هذه الحديقة في السّتينات من القرن الماضي - متداخلة لدرجة تجعلك تحس أنك داخل أحد الأنفاق الطويلة... أشعة الشّمس القليلة التي نجحت في اختراق أغصانها أضفت خيالا مرمريا على منظر المشهد... ازدان ذلك كلّه بترانيم عصافير الكروان والدوري والكناري والحسّون التي استوطنت الحديقة بالآلاف...

صعد معها إيهاب لسحابة الأحلام في ذلك الجوّ الرّومنسي المعطر بشداها الذي قضى على شذى عطره... محاولا إبعاد تفكيره عن التّحريض السّري التي تمارسه ذكورته التي هاجت في حضور المحضيّة... فشهوة الذكر عجيبة فعلا فهي تتضاعف عشرات المرات عند الوطء منها عند غياب العشيقة الحميميّة... أو حتى عند تخيل اللقاء في أرهق وأشق فصول الوصل فوق أحن الحلبات.

داعب بأصابعه خصلات شعرها الشّقراء الحريريّة ونظر باستمتاع مطولا في داخل مقلتيها... اشرأبّت لحظتها فرائصه في سحر العيون العسليّة... وارتعدت أعضائه لتقاسيم وجهها وتفاصيلها المتناسقة...

بعدها انسلت كلمة من تحت شفاهه... كانت حارة وهادئة... نطق بها بينما أبت أن ترتد أطراف عيناه عن مشاهدتها الممتعة... قال لها في حنان آسر كأنّها تنهيدة من جوف الصدر... كأنّه يتحسر عن ضياع فرص الكثير من الأيّام الماضية: اشتقت لك.

ذابت فيه وأقبلت بفاهها تبغي المزيد منه... فاحتضنها بشدّة ورشف كأس نبيذها مُحييا بذلك عظامه... فعدل بحرارة فمها حرارة جسمه في ذلك الجوّ المسائي البارد قليلا.

بعدها قاما يتجولان في أرجاء الشّطر الإنكليزي من الحديقة السّاحر

بتصميمه العشوائي... كانت مناظره محركة لمشاعر السّعادة... تفهمك حين التّجول فيها لما كان يختص الأباطرة من أراضيهم الكثير ليزينوا بها قصورهم الفارهة بمثل هذه الحدائق الغناء.

غير بعيد عن التّنسيق الإنكليزي ودون أن يشعروا ولجوا الشّطر الفرنسي المبهر للعيون بتنسيقه المنظم المشهور...

كانت حديقة وضعت فيها أدق تفاصيل أشهر مدرستين للبستنة الرّاقية في الوجود... جعلت منها أحد أشهر الحدائق في العالم.

سحبها وسط أجيج الزائرين محتضنا خصرها بخطوات كأنّها خطوات رقصات...

بهدوء تركوا المكان ليسكنوا صالة سيارتها سيارة الأودي المعتمة الزجاج... ركبا فيها... كانت أدفأ من الخارج... زادت من حنانها حين أطلقت الموسيقى الصاخبة من حنجرتها الألمانيّة الرّاقية...

أخذته في جوّ أغاني ملاهي الرّاي فسبح فوق نشوة الاستمتاع... مضت به بهدوء لتزيد في متعته... كانت محطة وصولهم بعيدة نوعا ما... كان فندقا راقي من أربعة نجوم على شاطئ برج الكيفان شرق العاصمة... برجا عالٍ زجاجي كانت قد رَتّبت الحصول على غرفة مميّزة فيه صباحا قبل الموعد...

صعدا بعد الوصول مباشرة حين إتمام الإجراءات... كانت الغرفة بحد ذاتها مفاجئة... رقيها الخالص ورحب سعتها وإطلالتها الشّفافة أضفيا على قلبه شعورا بالكمال... وما زاد من كمالها موقعها المختار بدقة... كانت أعلى غرف البرج مقبلة على البحر... فمجرد دخوله سلبه المنظر من النّافذة الزجاجيّة العملاقة المنخفضة... سلبه ترادف الأمواج من قريب في البحر الأزرق المتكدر اللامتناهي... كانت نافذة زرقاء طبيعيّة منعشة...

أمضوا مساءً مقترنا بليلة صاخبة دون التّحرك من غرفة نوم الأميرات... فهذا

أبسط تشبيه يُكرِم موقعها... لم يقطعا سهرهما... خدمة الزبائن أغنتهما عن النّزول... حضر لفراشهما كلّ ما لذ وطاب من الطعام البحري... كانت سمكة بوني / بنك عملاقة بلغت الخمسين سنتيمتر مع سمكتين بجنبها من الرّوجي الممتازة الطعم... زين الطعام السّهرة المتميّزة على أنغام الرّاي... تفننوا فيه بالرقص والسكر بألذ أنواع الويسكي حتى اكتظت الغرفة بحركاتهم...

لم تغفل سوزان عن غدر حبيبها بقُرصها الموقظ لأقصى الشّهوات... لكي تضمن لِلّيلة أن تمضي على أفضل ما يرام...

وبالفعل كان لها ذلك وأكثر... فرغبة إيهاب فيها أصبحت جامحة... فقد أقبل عليها بشكل لم تعهده من قبل... لقد أظهر لها وهجا آخر أكثر إشراقا... لم تره يحمل بريقا كهذا من قبل... لم يكن في نظراته نقص كالذي عهدته فيها في الصيف الماضي... فلقد كانت عيونه فيما مضى تكشف سر قلبه بأنّه في احتياج قصري لأحدهم... بينما عادت له السّيطرة التّامة على مشاعره هذه الليلة... فكله موجود هنا معها على ما يبدو...

في الصباح:

كانت استفاقتهما من غياهب النّوم على أحلى الأنغام الشّرقيّة التي فضّلت دسها في القارئ الصغير حين أرادا النّوم بعد بزوغ الفجر... كان نومهما ثقيلا جدا... جاوزا العاشرة صباحا فوق تخت المعركة الضروس التي كانت فصلا من فصول الحرب التي تتجدّد بينهما كلّما التقيا بين جدران الرّغبة الجموح...

توجه كلّ وجه من عملة السّرير المتوهجة إلى وجهته... افترقا على أمل معاودة المتعة الخارقة مرة كلّ أسبوعين...

رجع لمكانه لا يصدق ليلته الماضية... عَوّض الطلب الزائد لأنثى فاتنة في دمه... عوض طلب الانتقام الذي ندّد به قلبه... عوض رغبة الجسد في الخيانة...

عند المساء بدأت آلام خفيفة تزور رأسه... نظرا لإفراطه في الشّرب ليلته الجميلة... فعوّض الإدمان الخفيف بالإكثار من سجائر المارلبورو والقهوة حتى زالت تلك الرّغبة الزائدة لمعاودة الشّرب.

حين دقت ساعات المساء بدأت طلائع نزلاء الفيلا من أصدقائه العمّال في الوصول... فلم تغرب الشّمس إلّا وضجيج الكل يملأ غرف المنزل...

كان صديقه المميّز داخل الفيلا عمّي النّاصر... كان رئيس ورشة مثله في بئر مراد رايس... هي واحدة من ورشات الشّركة العديدة... لم يبخل عليه وهو الأقدم في ميدان عمله بأيّ استفسار... كانت صحبته ثروة لا تنضب... ينهل منها إيهاب بلا توقف... كالطفل الصغير لا تخبو أسئلته... فضغط العمل ولزوم أن يكون ملما بتفاصيله دفعه للاستفسار الدّائم لكيلا يحرج أثناء عمله...

أمّا المهندس منير ممثل مكتب الدّراسات الذي كلّفته الجهة المالكة للمشروع - الدّولة - بمراقبة تنفيذه... فقد كان أقرب أصدقائه في الورشة... كان في مثل حماسه وظروفه...

كان يمكن أن يكون في ظروف أخرى ممثّل المكتب هو أعدى أعداء الشّركة المقاولة... فوقوفه الدّائم ساهرا على تنفيذ جميع بنود المشروع يجعل منه حجر عثرة في طريق الشّركة في كثير من المرات... لأنّه يتعارض مع سياسة الشّركة في معظم أحيانه... والعداء بينهما معروف... ولكن في حالة إيهاب ومنير فالوضع متغيّر... فتوافقهما جعل كلّ منهما يعين الآخر على فهم ما يعجز عنه... ترادفا في تناسق رائع... انعكس بالإيجاب على سير الأشغال بسرعة... فكان نتيجة ذلك أن عمّ الرّضا من الجميع...

تسارعت الأيّام وتسارعت ساعاتها... لفرط انغماسه في العمل وتعبه فيه الذي يرجع منه كلّ يوم لا يبغي إلّا فراشه... لا يكاد يبتدأ الأسبوع أيّامه حتى ينقضي بأعجوبة... مضت على هذه السّيرة المتسارعة أشهر من حياته لم

ينتبه لها...

لعل رغبته الجامحة في سوزان وفي الحبّ الذي بات يفتش عن طريقه كلّ لقاء معها هو ما دفع الوقت للمضي كأنّه خيال...

الحبّ الذي ألفه منذ قدمه ولا يبغي زواله وزوال نعمة أحاسيسه من قلبه وروحه... لأنّه ألف حنان الاحتياج وفرحة اللقاء الآسرة.

مضت ثلاثة أشهر... عن البيت كان غائبا... لم تَكْفِ اتصالاته السّمعيّة والمرئيّة بالسكايب آنذاك... فلم يأفل انشغال أهله عليه... لذا كانوا السّباقين دائما للسؤال عن ميعاد نزوله للمنزل... حتى هو بدأ الحنين يدبّ أخيرا في أرجائه لأهله وأجواء مدينته الصغيرة الجميلة المليئة بالذكريات.

حتى أصدقاؤه بدأوا يحنون إليه ويترجونه النّزول لاشتياقهم أشدّ الاشتياق له ولجلساته العزيزة على القلب.

حتى شيرين بدأت تطلب حقها في رؤيته... حقها الذي أصبحت تخجل في طلبه منه لفرط إهماله لها ولوعوده الكاذبة كلّ مرة في المجيء... فأصبحت عزّة نفسها تمنعها أن تبيّن فرط احتياجها لمنادمته العزيزة على قلبها...

لكنّ فطنته وخوفه الدّائم على أحاسيسها ما منع تلك المشاعر السّيئة من أن تتطوّر... فكان يرضيها كلّ مرة حتى يترك المياه تجري في مجاريها...

ولكنّه لم يهجرها من غير سبب... لا يهمه إن كانت تدركه أو لا تدركه... المهم عنده ألا يتسبب في جرح آخر لقلبه... فمهما كانت مجروحة من إهماله لن تبلغ معشار جرح واحد قد يفلح في المرور إلى قلبه عن طريقها.

فقد كان يتجنّب بتجنّبه إياها كلّ ذكرى لتلك المعقّدة والموسوسة كما يحبّ أن يدعوها... فشيرين لن تتوانى حين تواصلهما أن تذكرها في سياق حديثها...

وهذه كانت ضريبة التواصل المزعجة مع شيرين العزيزة على مشاعره...

الذي يحتملها كلّ مرة على مضض.

لأنّه يعرف قلبه الخائن جيّدا... فلن تلبث أخبارها أن ترنّ في أذنه حتى يبدأ في حثّه على الوصول إلى غير تلك الأخبار بعد... وبعدها أكثر فأكثر... حتى يوقعه في تلك الشّباك المؤلمة الماضية... فيحير عندها ليله مع من يمضيه... فالشوق إليها يزرع الوحشة في القلب ولو وسط ألف صاحب...

وهذا ما كاد يحدث مؤخرا... فقد نجحت في ملء تفكيره ساعة بفكرة كادت تستدرج لقلبه ذلك الحبّ التعيس المطرود... فقد جاء في حديثها خبر عرضي أنّها عادت وبلوى - كما يحبّ أيضا أن يسميها-خير الأصدقاء لا يكادان الافتراق إلّا لحظة الدّراسة أو نهايتها... والخبر الأهم أنهما أصبحا يرفضان أيّة مصاحبة أخرى... والأهم من الأهم أنّها قالتها صراحة في سياق رسالتها أنهما انقلبا على صحبة تلك الثّكنة التي كان هو السّبب في معرفتهم بهم... وذكرت فادي في أولهم... فادي التي أوعزت أنّهما وليست هي فقط من كرهت مجلسه لبيان بعض مآربه المشينة مع سلوى... ما دفعهما للاتفاق على نحر علاقتهما به.

كان إيهاب يصغي فقط لكلامها... لأنّه يعلم وفاء الفتيات لبعضهن البعض... يعلم أن كلّ حركة منه أو نفس أو كلمة قد تُنقل لِبَلوى... وليتها تكون نافعة... فتجربته المريرة السّابقة هي ما دفعه لمقت التفكير في الحبّ الذي أصبح في كيان جسمه مرفوضا... مرفوضا لعِلّة في الحبيبة... عِلّة تجعلها لا تُقدّر مقدار ما تُسبّب من آلام لقلبه وتدميرٍ لتفكيره ومستقبل أيّامه... لذا كان كلامه مع شيرين مدروس الخطى جيّدا لكيلا يُبِينَ لِينَا أو ضعفا أبدا لذكراها... ضعفا كان يشك أنّه ما إن يصل خبره إليها حتى تفرح لاحتياجه لها فترضي بذلك غرورها فقط لا غير.

نجحت في زرع شيء في دماغه أبى أن يتركه وشأنه... شيء كان يخجل

أمام جروحه أن يسمّيه أملا...

فانكبّ على صفحته في الفايسبوك السّريّة التي يراسل بها سوزان... انكبّ يبحث عن صفحة بلواه... لعلّها تطفئ بعض الشّوق الذي أيقظته شيرين بكلامها عن بطلة ماضيه...

لم يجد في صفحتها أيّ جديد يذكر... غير خزعبلات لا تُغْنَى بعشقه شيئا... لكن ما جلب اهتمامه كانت مجموعة من الأرقام اتخذتها خلفيّة لصفحتها... كانت صورة سوداء... الأرقام فيها كبيرة بلون أحمر جذابة... كانت مكتوبة من اليمين إلى اليسار بهذه الطريقة: (1 8 2 20).

حار فيها عقله... وحار في تفسيرها... افترضها عدة أشياء لكنّها لم تصلح حلا... فمرة عدها تاريخا أو موعدا أو لغزا أو... .

لم يفلح تفكيره الذي لم يطل كثيرا... فما لبث أن اضمحل في اهتمامات أخرى كان مسرحها موقعه الجديد... لقد قاطعت سوزان بحثه في هاتفه باتصالها المفاجئ... فأنسته الدّنيا بموسيقى كلماتها الحنونة... لم تتركه حتى ذهب خيال بلواه من أمامه وحل مكانه خيال يوم سوزانة القادم... اليوم الذي أصبح ينتظره بشغف... فمن بعد يوم فقط من قضائه له يحنّ لأحضانها من جديد...

* * *

قرّر أخيرا زيارة الأهل... كان يوم خميس... اشتغل فيه كعادته ولمّا انقضت ساعات العمل ذهب للاستحمام في الفيلا وأخذ قيلولة بعد وجبة غذائه... لم يستفق منها إلّا بعد عصره كان محتاجا للنوم بشدّة.

توجه عند السّادسة مساءً لمحطة الخروبة المركزيّة... فأخذ تذكرة للساعة الثامنة مساءً...

كانت في يديه ساعتين لم يعلم ماذا يفعل بهما... كان منتجع الصابلات

الشّاطئي لا يفصله عن محطة المسافرين إلّا سياجه والطرق السّريعة... فتمنّى لو كان هناك ممشى جميل بُنِيَ فوق هذه الطرق لتربط المحطة بالمنتجع العملاق... لكي يطفئ كلّ الرّكاب آلام انتظارهم على أمواج البحر في أيّ وقت من اليوم...

تاه حينها في وجوه الخلق وتعابيرهم... وما أكثرهم في تلك المحطة العملاقة الأشبه بالمركز التجاريّ... رؤوس كثيرة تمشي من كلّ ولايات الوطن الثمانية والأربعون... ومن خارج الوطن أيضا نفوس كثيرة... اختلفت شؤونهم وتعدّدت... لا يمكن حصرها... فيهم الغادي للبيت وفيهم الآتي بعد عطلة لمزاولة العمل من جديد... كان الفرق بينهما واضح للعيان... كان الآتي من الدّيار منشرح الصدر وجهه يكاد يشع بالنور... بينما الغادي رغم سعادته لكنّه يبدو مكفهر المحيا كأنما على رأسه الطير... يعرف شعوره جيّدا إيهاب... أنّه إجهاد الأيّام اجتمع على المحيا فلوّنَه.

* * *

لم تطل أحلام يقظة إيهاب... فما هي إلّا أربعة أيّام وتغيّرت الأدوار من غادي لآتي... وزرع الانشراح في صدره وهو يهم بالرجوع لثكنته المعتادة... مثقلا بعدة خبزات من خبز الدّار وحلويات الرّبيع المشهورة التي تدعى الطمينة والبراج والتي يُعدّ فيها معجون الدّقلة والتمر مكوّنا أساسيًّا.

رجع من المضارب لا يحمل من الذكريات الكثير... فقد محى التفكير في نظرتين التركيز في تلك الأيّام القصيرة... نظرتان أطالتا المكوث في عقله...

أولاهما أن صار فادي يبادله المقت والكره... بل وبشدّة أعظم... حتى أنّه صار يتجنّبه ويتجنّب رؤية مجلسه... ولا تسقط عيناه عليه إلّا والشرر يتطاير من عينيه.

فراسة إيهاب أوحت له أن في الأمر لغزا محيّرا... أو كأنّه استجد في الحكاية

شيء.

والثانية أن جمع المولى القدير بينه وبين بلواه في أقدار الصدف... يوم هم بالرجوع صباحا... فلقد اشرأبت عيناها فيه بنظرة حزن وشوق عظيمين في استكانة ورجاء دفين.

لكن الموقف كالعادة لم يحمل لإيهاب أيّ دفع للأمام... بل على العكس فقد يدخله إن هو أطال الإمعان في الحل... في المشكلة القديمة... فأوّل الأمر وآخره عنده هو ما يرى في مذكرة رسائل هاتفه... فعدم وصول حروفها لا يُغيّر من الوضع شيئا... وهذا هو أشدّ ما يحزنه لأنّ مشكلته نادرة الحدوث للرجال... ولن يعذره فيها أيّ أحد منهم...

بالإضافة إلى أن شعورها أصبح لا يعنيه مذ طعنت حبّه غدرا بخيانتها وأمام عينيه مغتنمة عجزه...

المثقف

لذا فقد حمل نظرتها الجميلة ومضى في حال سبيله يبغي الوصول لوجهته... بل إن ذاكرته جعلت تستهزئ من نظرتها تلك مذكرة إياها بأيّام شقائه وبكائه وسهره في انتظار عطف هواها... أمّا كبرياؤه فقد انتفض لجروح الجسد الغائرة وأعلن رفضه للرحمة... بل والأخطر منه أنّه فرض الإعلان لها بأن تذهب وتبكي على جدران حبيبها الذي خانته معه.

فجعل القلب من تلك النّظرة برهانا لنصره... والشوق الواضح في عينيها انتقاما لدموع لياليه... تذكّر أيّام عذابه حين وعدها باكيا في ليلة ظلماء قائلا لخيالها المتجبّر:

تذكري يوما ستقفين فيه أمامي تبغي الرّجوع.

حينها فقط سوف أدوس عليك بأقدامي.

زاد زهوه حينها.

أصبحت الرّحمة بعيدة جدًّا عن قرار القاضي... لأنّ جرائمها فظيعة وكثيرة جدا.

تأثرت مشاعره بتلك الأفكار فهب إلى صفحته على الفايسبوك الذي يعلم بفراسة العاشق أنّها تتبع يومياتها في بعض أوقات حنينها... وكتب على صفحته كمؤخرة:

المثل الجزائريّ القديم: ** نفسي عزيزة عليّ... لن آكل في الصحن الذي كثرت فيه الملاعق... ولو متت جوعا **.

حازت كتابته من النّقد الكثير... لكنّه لم يلبث أن نزعها بعد أقل من شهر... حين تناسى عقله حكايتها من جديد... فرفض من أمامه أيّ شيء يربطه بها... أو قد يوحي لها أنّه لا زال يفكّر فيها...

المثقف

نهاية الرّبيع وبداية فصل الصيف واعتدال الطقس ساهم في نهضة الأعمال وتضاعفها... فبدأت أشغال صبّ الخرسانة على قدم وساق... فلم ينقضِ شهر ماي إلّا وقد تغيّرت خريطة الموقع بكامله وتطوّرت صورته الشّاملة... فقد سارع العمّال يوما بعد يوم منذ بداية مارس في تثبيت الأعمدة والأساسات في مكانها... وتثبيت حديد الأسقف الذي كان جاهزا من قبل بسرعة...

فقد استجد مظهر الموقع في نهاية شهر مايو بزيادة طابقين وميلاد طابق أرضي لعمارة أخرى... وابتداء أشغال الحفر ووضع الأساسات في العمارتين المتبقيتين...

سرعة العمل وإتقانه جلب عليه عين الرّضا من المسؤول الأكبر... فوثق فيه وأحبّه وأحبّ عمله...

لكن سرعة الأعمال أذهبت أيضا معها الإحساس بالوقت... فلا ينقضي يوم إلّا وتنعقد جلسة طارئة مساءً لكلّ العمّال لتحديد خطة أعمال الغد... وتبيت

الأذهان مشغولة في كيفيّة جعل اليوم منتجا أكثر فأكثر... لذا كان الشّهر يمر عليهم مرور الأسبوع.

لم يصدق ذهاب الصيف وإقبال الخريف وبعده الشّتاء بسرعة... وكثرت أحداث الأيّام وتحولت سهراته مع سوزان إلى فيلا تملكها صديقتها تدعى ياسمين... استعانوا بها لزيادة راحتهم وانعزالهم ولإنقاص التكاليف الباهظة...

أما سلوى فقد ازدادت أعداد ألغازها الرّقميّة...

إيهاب لم يترك استراق النّظر على صفحتها وما استجد فيها أبدا... وذلك لا يخالف دساتير قلبه... فهي تجرّم فقط كلّ فعل قد يوحي لها أن ذكراها لا زالت على قيد الحياة في قلبه...

شغلته تلك الأرقام التي أخذت في الازدياد شهريا... ازداد حيرة فيها لدرجة تجريب كلّ الرّياضيات التي تعلّمها عليها... لكن لم يقع على حل شيفراتها... وما زاد حيرته أنّها كتبت لبعض صديقاتها التي استرحمتها لتوضيح ألغازها ما يلي:

لن أجيبك لكن سأعينك على الحل بهذه الكلمات:

** كلامي عربي... لن يفهمه إلّا من عرف للجمل حسابها **.

حرضته كلماتها على حمل ألغازها ومفتاحها معه في كناشة عمله... وهو المحبّ للألغاز والكلمات المتقاطعة بشدّة... فكيف بأن يكون اللغز لغز بلواه...

من حروفها استنتج أن أرقامها كلمات أو ربما حروف خبيئة... لكن استنتاجه زاد الطين بلة... فقد تعقّد البحث عليه أكثر... فترك التفكير فيه نهائيا لأنّه لم يجد له مدخلا.

قضت الأيّام على أمله السّري في سلوى شيئا فشيئا... بدأ الخوف يدب فعلا في أركانه.

أيعقل أنني خسرت كلّ ذلك الحبّ فعلا!

لماذا تعثر حبّي رغم أنني لم أُؤثر عليه بمعظم مشاعري وتفكيري؟...

كل تلك الرّسائل! كلّ تلك الآهات !... آلاف من الحروف كان منبتها القلب ذهبت هباءً منثورا !... واحسرتاه.

وا ندم أيّامي وقلبي.

تواصلت لهذه التراتيل صداها في داخل أسوار حصنه المنهكة من حربه الطاحنة الأخيرة... فلقد هلّ شهر فيفري أمامه كالعيد التعيس... معلنا مرور عام على ذكرى فراره بقلبه من حربها، لا ينوي بعدها الكر أبدا.

هرب لأنّه علم أن هزيمته النّكراء أمام جحودها قاتلة... لكنّه هرب غارسا لها شجرة ورد في قلبه... كانت شجرة أمله العزيز فيها... استمرت الأيّام تسقيها لتعطيها الحياة... تسقيها بماء الصبر لعلّ الحبيب مع الأيّام يأتي ليجلب معه الترياق الحقيقي ليعالج سم هجرها.

لكنّ الحبيب أطال الغروب... فلم تفلح مياه الصبر بإطالة عمر الشّجرة... ومضى عليها الخريف فاقتلع جذورها وأوراقها... فلم يُبْقِ لها أثرا غيرُ بِذرةٍ صغيرة... وحيدة... سكنت تربة القلب الجافة.

فهل يا ترى سيحقّق المستقبل حلم تلك البذرة البريء؟... أم سيتركها في صحراءها تنعم... لتصبح ذكرى تصير بعد عقد من الزمن جميلة... كذكرى حبّ الصبا.

الدرجة الحادية عشر
بعد عام آخر

المثقف

بعد عام آخر المثقف

لماذا الأيّام التي يخجل الحبّ فيها على الخروج للواجهة... تستحيي معه أيضا الذاكرة في اعتدادها أيّاما...

لماذا لا تحسب تلك الأيّام ولا تكون إلّا أثقالا في ميزان الفراق يوضع... فلا يصير الفرد منا يحسها إلّا أطلالا... أو هي فعلا كانت زمن البكاء على الأطلال.

لماذا هي خالية من أيّ زبرجد قد يضعها في مصاف الذكريات الجميلة... خالية فارغة من الشّعور نحسها كأنّها أيّام وشهور تمضي فحسب... أيّام نخجل من كبريائنا أن نضعها في مصاف الكئيبة...

أو قد ندعي فيها الرّتابة فنصير للروتين نلعن... ونُحمّله سبب الكآبة... أو ترانا صرنا في تلك الشّهور آلة نشتغل بلا إحساس وبلا شعور...

لماذا تلك الأيّام خاوية من الأحداث... أو ترانا صرنا فيها مطعّمين ضد الشّعور... فصرنا كصورة نمشي... تُكمِّل الدّنيا وهي من الإحساس ناقصة...

ما الذي أخذه معه ذلك الحبّ!!؟

ما الذي أخذت معها تلك اللعنة !!؟

أو ترانا ظلمنا الحبّ... ولم يكن سبب بؤسنا إلّا لمقارنة أيّامنا في عقولنا بشهد أيّام الحبّ العسليّة فصار يراها علقما!...

بؤسا له من جسد...

فمن أين نأتي له بحبّ؟ .

أَوَلَا يرى وراءه كلّ تلك الأحلام التي قُتلت ظلما وجورا... رغم صرختنا أنّها بريئة.

وأي حبّ هذا قد يتجرأ على عيون جريحة... أكلت من الصبر الكثير... فحتى لو جمع هذا المقبل إخلاص العالم في مشاعره... سيعجز أن يخلق فينا ذرة ثقة جديدة.

أو تراها أسئلتنا الدّائمة وتأثرنا الدّفين هم سبب يأسنا...

ولكن السّؤال يفرض نفسه...

فما الذي جرى حتى فرض الفراق نفسه وانفضّ جمعنا؟... وأين ذاك الحبّ الذي كان يعمرنا فهجرنا فصرنا خرابا؟...

أين ذاك الحبّ الذي كنا نصدّقه تماما ونراه يسري فينا وفي جلادينا !؟... حتى آمنا به وبذلنا فيه الرّمق كله... حتى أننا مازلنا نود البذل بكلّ ما فينا...

فترانا نترجى الحبيب ألا يقطع الوصل لعطائنا...

أوفياء نحن حتى بعد أمد من الفراق... حتى بعد ويلات الهجر... لا نكف عن الوفاء حتى بعد أن صارت قلوبنا من اللوعة فرنا حاميا وتنورا مسجورا.

أو تراها أيّام العِدَّة!...

فكم يا ترى عِدَّتك يا حبّ؟...

* * *

في الكوكب الآخر لم يحمل العام الجديد لسلوى أيّ جديد... فمنذ تخرجها ونيلها شهادة الماستر لم تحرك الأيّام أيّ جزء من شراعها الحزين مدة صيف كامل... بل زادها الجلوس مجبرة في المنزل بؤسا بعد بؤس... فاضطرت لمحاولة الحصول على وظيفة تكسر قوقعة أسرها ووحدتها بعد أن ألفت الانطلاق بحريّة أيّام الدّراسة...

لم تتعب لحسن حظها في البحث كثيرا... فلم ينوي الشّتاء الرّحيل بعد إلّا وهي جالسة بفخر على كرسي الوظيفة... فبعد نجاحها في المسابقة تحصلت على منصب مهندس دولة للإدارة الإقليميّة في التسيير التقني... بمديريّة الأشغال العموميّة بسكيكدة عاصمة الولاية.

سرت أيّامها في أولها بصعوبة... لكنّها ألفت الموضوع بعد أسبوعين من التنقل كلّ فجر... بل وأحبّته...

لم يكن شيء يضفي على تلك الأيّام ظرافة إلّا بعض الصحبة الوهميّة... فلقد أنعم الله عليها بصديقة متفهمة لها كأنّها توأمها الرّوحي... كانت تتقاسم معها فراغ السّاعات نهارا وليلا عبر المسنجر... كانت صفحتها على الفايسبوك تدعى *زهرة النّرجس* من جنسيّة مغربيّة... مثيلتها في العمر... قالت أنّها مطلقة... كما ادعت أن اسمها الحقيقي «حليمة».

أما إيهاب فلم تكن أيّامه مميّزة كثيرا... فبعد الذكرى السّنويّة الثانية لابتعاده... لا تراه إلّا في حالتين... فتارة يحن للديار عند ذهاب رفقته لمنازلهم... ويرجع في الأخرى لينغمس في الشّغل بمجرد قدومهم... ولكن طرأ على مسار الأحداث شيء جعل الشّمس تشرق قليلا وتدفء القلب...

ففي الصيف الماضي وأثناء الأيّام التي تخرّجت فيها في سلوى وأنهت

مشوارها الجامعي... كان على غير عادته يبحث في صفحتها على الفايسبوك عن أيّ خبر منها وعن كلامها في تعليقاتها يستأنس بها...

كان يوم عطلة... كان وحيدا... فبينما هو كذلك جالس على أريكته الجلديّة التي اشتراها حديثا ليستمتع بجو الفرجة على التلفزيون ساعات فراغه... من مللـه من هاتفه أخذ يغيّر القنوات التلفزيونيّة... فقد ترسو سفينته على شيء شيق... وبالفعل جلبت قناة عربيّة اهتمامه حين صادف كلام مذيعتها الجميلة عن موضوع التشفير... لمع عنوانها في ذهنه فهو من عشاق الرّياضيات وأسرار الأرقام... فانتبه بشوق لما لديها من معلومات...

كان يمكن أن يكون يوما عاديا ليس مميّزا عن إخوانه من الأيّام... لكنّ المذيعة سدّدت على رأسه سهما جعله مثبتا في مكانه...

صرخ مكانه... كيف يعقل هذا... الله أكبر... سبحان الله... شكرا لك يا رب...

بعد أن أصغى لها بكلّ إنصات الجوارح... أقبل بعدها بسرعة جنونيّة لكناشته وقلمه...

لم تأفل الرّعشة من قلبه... فقد وهبه رب المعجزات حلا لشيء فقد الأمل منذ أمد في أن يجد له حلا...

فلقد رأى على الشّاشة أرقاما تماثل أرقام سلوى الغامضة... سَمّتها المذيعة بأرقام حساب الجمل...

لم يطل وقت إظهار الأرقام في الشّاشة طويلا... ما اضطره ذلك للبحث عنها في الأنترنت بسرعة...

ما إن وضع اسمها في محرك البحث حتى خرج للعيان الموضوع المنتظر... الموضوع الذي سيصبح أحبّ موضوع بحث عنه في حياته...

كانت نتيجة البحث المبينة لكلّ شيء كما يلي...

حسَابُ الجُمَّل طريقةٌ حسابيّة عربيّة قديمة تُوضَع فيها أحرف الهجاء

العربيّة مقابل الأرقام، بمعنى أن يأخذ الحرف الهجائي القيمة الحسابيّة للعدد الذي يقابله وفق جدول معلوم.

ويقوم حساب الجُمَّل، الذي يسمّى أيضًا حساب الأبجديّة، على حروف أبْجَدْ أو الحروف الأبجديّة، وهي: أبْجَدْ، هوز، حطّي، كَلَمُنْ، سَعْفَص، قَرَشَتْ، ثَخَذْ، ضَظَغْ. ومجموعها ثمانية وعشرون حرفًا؛ تسعة منها للآحاد، وتسعة للعشرات، وتسعة للمئات، وحرف للألْف. والجدول التالي يبيّن طريقة المقابلة بين الحروف والأرقام في حساب الجمّل إلى جانب أرقام الترميز العشري التي تستعمل في التشفير.

الحرف	أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي
الترميز العشري	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10
حساب الجمل	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10
الحرف	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر
الترميز العشري	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20
حساب الجمل	20	30	40	50	60	70	80	90	100	200
الحرف	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ		
الترميز العشري	21	22	23	24	25	26	27	28		
حساب الجمل	300	400	500	600	700	800	900	1000		

وقد استخدم العرب منذ الجاهليّة إلى صدر العصر العباسي طريقتين للعدّ الحسابي، فكانوا إذا أرادوا أن يسجلوا عددًا في البيع والشراء مثل: (950 دينارًا) دوّنوه كتابة بالحروف هكذا: تسعمائة وخمسون دينارًا، أو سجّلوه بحساب الجمّل هكذا: ظنّ؛ لأنّ قيمة الظاء (900) وقيمة النّون (50).

لكن إيهاب لم يكن يعلم بوجودها قبل هذا اليوم... حينها تذكر مفتاح سلوى للمساعدة على الحل.

** كلامي عربي... لن يفهمه إلّا من عرف للجمل حسابها **

فأعجب لذكائها... فقد أوضحته فعلا في مفتاحها ولكنه لم يكن يحمل

في باله أيّة فكرة عن التشفير...

كانت صدمته كبيرة حين اكتشف حل أرقامها... كانت كلها طعنات حبّ مشفرة... كانت رسائل هو المقصود بها... فمن تراه كان موضوع حياتها غيره... فتوقيتها الذي درسه من صفحتها يثبت ذلك...

(1 8 2 20) كانت تخفي كلمة أحبّك.

(1 200 3 6 20) (1 200 3 70) تعبيرها: أرجوك ارجع.

(60 1 40 6 400) (1 200 3 70) (1 200 3 6 20) تعبيرها قصم ظهره: سأموت ارجع أرجوك.

(1 8 2 20) (3 4 1) (1 10 5 1) (1 30 5 1 200 2) كان تعبيرها مفاجئ: أحبّك جدًّا أيّها الهارب.

سلبت هذه الرّسائل لبّ تفكيره لحظتها.. لم تغب عن باله لحظة... أعاد من أجلها كلّ شريط عشقه معها ومراحله.

صرخ قلبه مقتا لواقعه قائلا: لقد ردّت على حروفي الجواب... لقد أحبّتني حبيبتي... لقد أرادتني بشدّة وكنت غائبا.

تحسّر لذلك لأنّ الرّسائل كانت منذ سنتين كاملتين... أيّ في أيّامها الأولى لدراسة الماستر.

كان من الممكن أن يجتمع بها كلّ تلك الأيّام... كان هذا حلمه...

لقد أرادت لحلمه أن يتحقّق.

بثت السّم في عروقه من جديد... فأمسى لا يهمه شيء إلّا التواصل معها من جديد...

أراد وضع شيفرة في حسابه مثيلة لشيفراتها لكي تفهم أنّه قد فهم المقصود... لكنّه فضل كتمان ذلك وجعله سر بينهما... سيريه لها في وقته وبطريقته.

* * *

في الكفة الأخرى من الميزان... في كوكب سلوى... كانت قد ألفت تلك الملاك الوهمي *زهرة النّرجس*... كانت حزينة كأجوائها... معلنة انهزامها أمام الأيّام دون كِبْر... توسطت أحشائها حين التجأت إليها من وراء الحدود تبغي جعلها حائط مبكاها... أو قِسّها الذي تعترف له... أرادت منها أن تكون معزيتها التي تتكلم معها دون قيود...

أرادت المسكينة جعلها الدّلو الذي تلقي فيه كلّ جروحاتها وآهاتها... تشكو لها ظلم أيّامها... وما فعل الطلاق بها... وهي في عمر الزهور...

طرقت بطريقتها أبواب سرها... حين صارحتها قائلة:

أتعلمين يا سلوى... إن الحياة صعبة جدا... والمزعجات كثيرة في دروبها... امتلأ القلب بها حتى قارب الانفجار... ونحن نعدم إلى جانب ذلك، الصديق الوفي الذي نفرغ دلونا عنده كالطبيب النّفسي... فالكثيرات منهن من تشتكي لها همومك فلا تبقي لك سر... فيتفرق كلامك القهري على من هب ودب... ومنهم الضاحك على همك ومنهم الشّامت...

حتى أنّه يوجد من المكبوتات في صدورنا مالا نستطيع به البوح مهما جرى... مهما كان طبيبنا النّفسي قريبا إلى قلبنا... مكبوتات عزيزة أو خطيرة... لها من العلاقة الكثير بحشاشة قلوبنا... ورهف إحساسنا... وأسرار طريقتنا في الحبّ وفصول حبّنا الممنوعة من البوح...

وقلبي يا سلوى... إن تبغين الصراحة... ارتاح لك كثيرا... فأنت من أطيب من صادفت...

وبما أن صفحتي وصفحتك وهميتان وغير رسميتان... ولا تعرفينني ولا أعرفك البتة... فإن كلماتي كلها وبمجرد حظر حسابي تصبح كأنّها كلمات كتبت على المياه... فهل تقبلين أن تكونين المقربة لقلبي وطبيبي النّفسي... لعلك تنصحينني بشيء يفيدني... وإن عدمتُ الفائدة فإني للتنفيس عن قلبي

رابحة... وهو الأهم عندي.

ابتسمت عندها سلوى وكتبت لها: صدري لك مفتوح... ستجدين فِيَّ إن شاء الله خير أخت وخير صديقة صدوقة...

أردفت حليمة تشكرها: شكرا جزيلا لعطفك وحنانك... هذا ما انتظرته منك عزيزتي.

سألتها عندها ولكن بما أنك فتحت الموضوع فأنا أريد أن أفهم قصتك... ما موضوع طلاقك عزيزتي.

طال انتظار إجابة حليمة... يبدو أنّها ستطيل الكتابة... بعد قليل وصلت إجابتها:

آه... يا سلوى... جرحي لم يندمل بعد... وكيف يندمل وولدي شامل بدأ يكبر بجانبي... يريد أباه...

المثقف

أباه الذي رمانا رمية الكلاب... وذهب وتزوج بنت خالته العزيزة...

أخذتُ حق ولدي بالنفقة من المحكمة... ولكن جرحي أعظم وأكبر من موضوع نفقة...

بدأت حكاية بؤسي بعد أيّام من زواجي... كانت أيّام قليلة عسليّة عشتها في فراش زوجي بلا مشاكل...

بعدها بدأت العفاريت تسكن حماتي كلّما تراني... وقفت لي ناقدا لكلّ حركاتي... لا يعجبها شيء ممّا أقوم به ولو غسلت رجليها... أزعجها حتى بتنفسي أمامها... لا أدري من أين أتت بكلّ ذلك الحقد الذي أغرقت أيّامي فيه... ولم يأفل حقدها إلّا بعد أن نجحت في طردي من فراش زوجي بلا رجعة...

وأطبقت عليّ عندما سارعت على تعويضي بسرعة ببنت أختها التي كانت تريدها له من البداية لولا رفضه واختياره لعشقه...

إن ضحكتُ... قالت هذا عيب!... وأشارت لياسر زوجي بأن يعلمني الأصول... وإن تكلمتُ... سمعتها تنعتني أنني ثرثارة لا أصلح إلّا للكلام وشغل الفم... وإن أظهرتُ سكوتي تصفني أنني حمارة حمقاء... كلّ بلهاء تستطيع أن تأخذ حقي من أمامي وأنا ضاحكة... وإن رفعتُ صوتي كنت عديمة التربيّة ولا أستحي... لا يسلم عندها أهلي من اللعن على عدم تربيتهم لي... وإن خفتُ صوتي وصفتني بأني أفعى ونار من تحت تبن... ولا يعلم الشّيطان ما الذي أخطط له... وإن قصرتُ ثوبي جرحتني بأنني آتية من منزل مومسات عواهر... وإن رأتني بجلبابي أصلي ضحكت علي وقالت: يا فرحتي إبليس تاب... لم ترحمني حتى في طعامي... فإن رأتني مفتوحة شهيتي نعتتني أنني متربيّة في الفقر والشر والاحتياج الدّائم لهذا أصبحت نهمة بغيضة في المأكل... حتى سرحاني في همي التي هي سببه منعتني فتُفزعني عن غفلة صارخة: أين شاردة؟ أفي حبيب غائب؟ .

المثقف

قهرتني كثيرا حتى صرت أدعو الله كثيرا عليها بالموت... لكي أرتاح من ضغطها...

ضحكت سلوى كثيرا على تعبيراتها... فهي تعلم أن الحموات هي أمهاتنا قبل كلّ شيء... أرجح عقلا منا وبحورا للتجربة... قد يحدث سوء تفاهم بينها وبين الوافدة الجديدة... لكن يجب على الكنّة المسايسة والنظر فعلا إليها كالوالدة حتى يمضي الحال ككل مرة... فهناك ملايين الزيجات الصالحة قبلها وبعدها مرّت كلها بالصبر... هذا إذا كانت الحماة في الخمسينات أو السّتينات... أمّا إن كانت في مرتبة متقدمة من العمر... فالخطأ كلّ الخطأ على الفتاة لأنّ مثلهن أصبحن كالبركة في الحياة... ومزاجهن كمزاج الأطفال... تستطيع أشياء صغيرة جدًّا أن تغضبهن... لذا فإن إرضائهن بركة وخير نافع في الدّارين... لكنّها استجمعت رأيها السّديد وأجابتها:

مسكينة أنت فقد غرقت في النّزاع الأبدي بين الكنَّة وحماتها... هو مثيل من مثيلات صراعات القديم والجديد في الحياة...

لم توجد في الأمة العربيّة عروسة لم تعانِ منه... إلّا من رحم ربك... ولكن ماذا عساك تفعلين الآن؟... اصبري وصابري وحاولي أن تنسيه وابدئي صفحة جديدة في الحياة... لعلّ في الأمر خير... فما أدرانا نحن في تدبير الله وشؤونه... أجابتها بعد طول كتابة قائلة: أشكرك جدا... فعلا بارك الله فيك...

لكن ما أعانيه لا تنفع معه جحافل الصبر... أقسم أنني أتقطع مئات المرات حين أضع رأسي على الوسادة وأتصور أن غيري بين أحضانه تلك السّاعة... أحبّه يا سلوى أحبّه... لقد شارفت فيما مضى لولا مخافة الكفر على عبادته...

لا أعلم ما الذي جرى... لكنّ واقعي الآن أصعب من أن يُصْبَر عليه بسهولة... أنّها جمرة دائمة الاشتعال في صدري يا سلوى حبيبتي.

المثقف

قدمت له كلّي فيما مضى... لهذا لا أجد الآن ما استرجع به نفسي من براثنه... وما يحزنني أن قلبي ورغم كلّ الذي جرى لا يزال لا يفرّق نيته جيّدا... فمرة أراه خائنا للعهد ومرة أراه مجبرا مسكينا فارقني والدموع على خده اجتنابا للمشاكل الدّائمة مع الوالدة الكريمة... المجرمة...

عذرا... حبيبتي... فقد أدخلتك في باب لن يفهمه إلّا من خَبِرَهُ وخَبِرَ جروحاته... بل لن تعطيني الحق أبدا هنا إن لم تكوني سهرت فرحانة شوقا لمعاودة الوصل في قريب مدة... وسهرت بعدها تبكين لوعات الهجر دما بعد نفاذ العبرات.

فأزعجت القلب بكلماتها فسكتت سلوى تمسك عبراتها... وكتبت لها بغضب: عن أيّ حبّ تتكلمين!... لو عانيتِ ما عانيتُ أنا لقتلت نفسك.

صبر على عدم القدرة على الحروف.

صبر على عام من القتل اليومي وأمام عيوني... خيانة مع أعزّ صديقاتي...

صبر على تغيّر مفاجئ ودناوة خلق...

وبعد كلّ هذا لا يَقبل منّي حتى الانزعاج... لولا أن في هلاكه هلاكي لتمنيت تدميره وسعيت لذلك... المشكل أن قلبي عنده!

ومسك الختام هجر مستديم مع أقبح الكلام... قتل أعزّ الأيّام بيننا... ولم يرحمني لحظات ضعفي رغم علمه بحالي...

جاء ردّ حليمة مستفسرا: مهلا... مهلا... لا أفهم عنك شيئا... أتستطيعين الشّرح بالتدقيق... أُقسم أن عشقي الأوّل هي قصص الحبّ الحقيقي... وأظنّ كما تعلمين أنني من موقعي الوهمي هنا من وراء الحدود أفضل قلب يمكن أن تفرغي دلوك فيه دون أدنى تردّد يا أختي.

تنهدت سلوى... لكنّ التوتّر كان قد شمل صدرها... فراحت الكلمات تخرج منها كأنّها السّيل الجارف... أو كان يطرد حممه... أو كأنّها حبات السّبْحَة التي انقطع خيطها فانسدلت وراء بعضها في هجوم شرس لن يفلح أحد في إيقافه... وكتبت:

المثقف

من أين أبدأ لك حكايتي... سبب عذابي شخص اسمه إيهاب... كنت أتمنّى أن يهبني الله إياه.

ليتني ما عرفته يوما... سقاني السّم الزعاف...

بدأت الحكاية عند أسوار الرّموش... أسقطتني شهيدة بين يديه في عامنا الأول... بادلني الحبّ وليته ما فعل... سقطتُ أيّامي تلك في يم من العسل... أصبح لا يهمني شيء إلّا الغرق في مقلتيه... كانت سبب هلاكي... لم أرَ إنسانا مثله... كامل من معظم النّواحي... فتنته وسحر عيونه وطريقة حبّه زلزلت شغفي... فصرت لا أريد إلّا الدّنو منه... أحسست كأن قلبي داخله... كأن روحي فيه... أحسّه ويحسني كأنّنا واحد.

لم أكن أعرف كيف سينتهي طريق عشقنا الأفلاطوني... إلى أن أتى الصيف

المبارك... فهجمت عليّ حروفه من كلّ حدب وصوب... كان أوّل غيثه الذي أحيى قلبي كلمة «أحبّك»...

صعد بي إلى أعلى قمم العشق في تلك الصائفة... لم أكن أتصور الصبابة بتلك الصعوبة... عجزت لصدمتي الأولى أن أجيب عن رسالاته... كانت توسلاته اليوميّة تقتلني عدد حروفها... لم أستطع أن أُفهمه أنّني ببساطة لا أقدر... أقسم أنّني لم أستطع... كان يتملكني شيء من الرّعب المسيطر على الحواس حين أُمسك هاتفي وأنوي إرسال حروفي البسيطة... كانت ضربات قلبي تتصاعد وتيرتها وتزيد معها رعشة أطرافي بشكل مخيف... كنت أعلم أنّه أقصى الخوف... كلّ ما استطعت فعله هو الاطمئنان عليه بمكالمة من مجهول... كانت عزائي الوحيد... أطمئن بها عليه وأطفئ بها نار شوقي لصوته الحنون...

المثقف

تواصلت الأيّام هكذا... وتواصلت كلماته في الوصول... فتطوّر في داخلي شيء لا أستطيع وصفه جعل من احتمال وقوفي أمامه تلك الأيّام ضرب من المستحيل... عجز تام... وهبته روحي وكل ما ينبض فِيّ... أطبِّق كلّ حروفه بلا نقاش... صرت أَمَة له... تركت أمري له... لأني أعلنت عجزي عن فعل أيّ شيء يذهب بي إليه... فصرت أنتظر المستقبل وما يحمله لي من مفاجآت... وأنتظر حالمة كلّ دقيقة كيف سيُقْبِل عَلَيَّ حبيبي بعد طول سهر على نوتات حروفه المقدسة...

بالرغم من أنني كنت غير مطمئنة البال كثيرا... فمن كلام حبيبي اتضح لي أن العجز مُعْدي... أو ربما أكثر تدهورا من حالتي... فعلى الأقل كنت أستطيع بل ومستعدة دائما لاستقبال مكالمته... بيد أنّه كان يتصور هذا الأمر من الغيلان يخاف الاقتراب منه... صَبِرتُ على آلام البعد عن صوته حتى فُطِرَ كبدي... حتى دَبَّ فِيَّ اليأس من وصول اتصاله الذي يَجُبُّ ما قبله من عذابٍ

واشتياق شديد...

لكن لبؤس حالي لم يطل فرحي طويلا فقد انقلب عرسي لجنازة... وهَبَّ خريف حبّي قبل ربيعه... ففي إحدى ليالي بُعْدِهِ عني... عندما كان جسده في العمل بالجزائر العاصمة... بعث لي فجأة بكلماته المقدسة فصرت هائمة فيها... أحتضنها لتُبْرِدَ شغفي... أحفظ حروفها كعادتي وأُقبِّلها من فرط شوقي لها...

لكن لم يدم شبقي برسالته طويلا... فقد حَلَّت بقصتنا بعدها فاجعة... أيقظتني من حلمي الورديّ...

لقد تمادى قليلا... أظنّ أنّ شهوته جعلته ينزلق معي... لقد بعث لي بصورة له عديمة الحياء قليلا... كانت بلباسه الدّاخلي.

فُجِعْتُ بصورته تلك... تغيَّر حالي وخجلت كثيرا... فعلاقتنا كانت محترمة وملتزمة بعض الشّيء...

المثقف

بدأ غضبي يزداد... لم أتداركه إلّا وقد بلغ حده... فقد أيقظ شكي في انحراف حبّه... فخفت بغريزتي الأنثويّة التي تدركينها أن يراني بعيونه عاهرة... فَشَبَّتْ نيران غيرتي على نفسي... فقذفتُ جدار علاقتنا بحجر غليظ... لم أكن أعلم أن جدارنا زجاجي... فقد أشعلت رسالتي المشؤومة فيه غضبا عارما... فرغم رغبتي الطاغية بإرجاع قطار حبّنا إلى سكته... إلّا أنّه أبى إلّا أن يقضي على آمالنا الصغيرة وأحلامنا البريئة...

يرميني كلّما قصدته ضعيفة من حر لهيب عشقه بأتفه الرّسائل... صبرت كثيرا على كلماته النّابية التي تشق الصدر وتؤلم القلب... كان عزائي دائما أنني كنت سبب غضبه...

قتلني شر قتلة... أدام وجوده مع صديقتي... وحرَّم علاقتنا... عصف بكياني وأيقظ وحوش غيرتي عليه... تبدّل حالي واضمحل جسمي واسودّت جفوني من سيل العبرات...

استحالت غيرتي اليوميّة جحيما في صدري... فاشتعل حقدي على صديقتي لقربها الدّائم منه فأصبحت عدوتي... أرمقهم عند حقدي من بعيد فتبكيني ضحكاتهم...

ندمت عامي ذاك على صعودي للجامعة... فقد أربكني جدًّا احتمال تصادف لقائنا... لأنّ رؤيتهما أصبحت ومنذ الأيّام الأولى تبكيني... لذا كان رجائي اليومي ألا يسقط نظري عليهما... حتى أنني فَكَّرتُ في كثير من أيّامي أن أوقف دراستي... للقضاء على آلامي...

استمر عذابي... لكنّ يأسي من حبّه لم يطرق بابي أبدا... رغم إصراره الدّائم على نحر حبّنا برسائل مسمومة... لا أدري من أين أتى بحروفها... فلقد تبدلت سريرته كثيرا.

لم أصدق عبور أيّام تلك السّنة دون إعلان نهاية بؤسنا... كانت الأسابيع تمضي بسرعة البرق قاضية على حلمي بالوقوف أمامه...

كان كلّ يوم يمضي في بعده وبعد أمله يزيدني غيظا على غيظ... حتى اشتعل مع نهاية السّنة حقدي عليه وعلى أسلوبه... فلست استحق كلّ تلك الكلمات الحاقدة منه... أو السّب والشتم من اتصال مجهول حتى أجبرني على حضر المكالمات المجهولة.

اتخذ لحقده الدّفين طريقة سيئة للانتقام مني... لا تطول مدة وصول رسالة صلحه كثيرا... حتى تفاجئني رسالته المسمومة... يستهزئ فيها من إيماني بحبّه وانزلاق قلبي المجروح وراء حروفه اللطيفة السّابقة... كنت أرجو مثل تلك الحروف بالرغم من أن الحل ليس فيها... لأنّ الحل في يوم شجاعته المنتظرة المرجوة... حين يفارقه ذلك الرّعب الذي يتملكه من الوقوف أمامي... الرّعب الذي أُصدّقه لأنني أعيش فيه...

عشت أرى مشكلتنا شيئا سخيفا... فبمجرد وقوفه أمامي سيهبه قلبي

السّماح عن كلّ أخطائه والأحزان... وسيمنحه التاج والأحضان... وستُمحى مظاهر البؤس في لحظة... وسيحِلُّ فصل البشاشة والسعادة التي طال انتظارها... وسأخبره عن قصتي التي يجهل فصولها... لكي يعذر إبطائي عن كلماته وتوسلاته...

عند انتهاء تلك السّنة انفجر غضبي لذهاب أحلى الأيّام سدى... قتل أيّامي العزيزة بجانب غريمتي... وما زاد غضبي فيما بعد... قراره بإنهاء مشواره الجامعي وعدم رغبته في المواصلة حتى الحصول على الماستر... قضى بهروبه على أمل لقائنا... هروبه الذي لا أخفيك أمرا أن قلبي استحسنه لأنني ذقت مرارة العيش عامي ذاك ولا أريد أن يُعيّشني حبيبي في نفس الظروف المربكة جدا.

عند ابتداء ذاك العام الدّراسي... انفردنا أنا وشيرين غريمتي الأولى بالمكان... فارتاحت كثيرا فرائصي من فصول الغيرة القاتلة الماضية...

بعدها استجدت ظروف أخرى... فقد كانت لي صديقة أخرى تقاسمني الغرفة تدعى نجوى... كانت من أشدّ الحاسدين والحاقدين على علاقتي بإيهاب... كانت مغرمة به... لكنّه لم يكن يلقي لها بالا... فرِحَتْ كثيرا لحزني وفراقي معه عامي ذاك... لكن دهاءها لم يأفل حتى بعد هروب إيهاب من السّاحة...

كان هناك من قريب من يستلطفني... كان صديق إيهاب واسمه فادي... سعى كثيرا للتقرب منّي لكنّني كنت أمقت اقتراب من يفسد علاقتي بإيهاب... كانت نجوى هي وسيلته للوصول إلي... وهو وسيلة نجوى لإزاحتي من الطريق إلى إيهاب...

لكن دهاءه وخبثه الذي لم أكتشفه إلّا بعد النّدم هو من جعلني أتساهل في مجالسته... فقد كان يسلب لبّي بالكلام الدّائم عن سيرة إيهاب وعفويته...

انجرفَتْ وراء كلماته عاطفتي... فصرت أراه كأنّه حمامتي الزاجلة بيني وبين حبيبي... فأحببت الحضور الدّائم مع وسيطنا واحترمت مقامه...

لكن الأيّام برهنت لي سوء ظنّي به... فقد كانت نيته الخبيئة قتل حبّي لإيهاب والفوز بحطام قلبي... وحتى نجوى بدأت تعلن اطمئنانها لمضي خطتها لإبعادي عن إيهاب على المسار الصحيح...

أثمر قربي من فادي غيرة إيهاب القاتلة والمنهيّة للمشروع من أساسه... لم أتفطن لغيرته من أوّل الأمر... حتى فاجئني برسالته ففهمته رغم لغته القبيحة معي... فقد أضحكني عندما ضمني لصف العواهر مباشرة بمجرّد أن رآني ماشية معه...

لا أخفيك أنني استلطفت الأمر كثيرا حينها... فقد كان انتقاما لي ولقلبي من عذاباتي السّابقة... فتصوري أنّه لم يحتمل صبرا عن رؤية أحدهم معي مرة واحدة... وأنا التي عانيت قسوة مشاهدته مع غيري لمدة سنة كاملة بأيّامها العجاف الطوال... فأردته أن يجرب عذابا كالجور العظيم الذي قاسيته...

غيّر أنّ ندمي كان قريبا فقد هاج بحر إيهاب الغاضب على أركان علاقتنا... فأصبح يقسم بأغلظ الإيمان أنّها النّهاية...

وبالفعل كانت النّهاية... فلُعبتي فاقت احتمال أعصابه... ففارقني هاربا بعيدا عن عيوني وقلبي إلى العاصمة... فانطفأت شوكتي وذبلت أيّامي وأحلامي...

ولما سُقِطَ في يديَّ ورأيت أنني قد أخسره نهائيا... رجعت لطريقه نادمة... لم تفلح كلّ طرقي للإتيان به للجامعة ولو ليوم واحد، رغم كلّ تحريضاتي لشيرين لتقنعه بالمجيئ... ورغم قضائي على علاقتي المشبوهة مع فادي إلّا أنّه لم يرضَ ويتنازل ويأتي إلينا...

انتهت علاقتي بفادي لأنّه أصبح يعلن عن نواياه بخلافة إيهاب... وهو الأمر الذي أزعجني كثيرا... فقد صرت بعد إيهاب مطعَّمة ضد الحبّ... وزاد

حقدي على فادي بصفة لا شعوريّة عندما رأيت حقده على إيهاب يتعظم يوما بعد يوم... فتخلصت من صحبته نهائيًّا... وقطعت كلّ محاولاته للرجوع التي كانت تصلني عن طريق نجوى...

استمر بعد ذلك القطع الدّائم لعلاقتي مع إيهاب عذابي المنفرد... انفطر قلبي كثيرا من الليالي كنت أدرك الفجر باكية فيها على ضياع حبّي وسنين ربيع شبابه...

وما يزيد من عذابي كلّ مرة هو عدم اكتسابي لطريقة سهلة لإيصال مشاعري إليه... غير إيماءاتي الضعيفة الحزينة لشيرين عسى أن تتوسط بها بيننا...

دامت صرخاتي بحبّه طويلا ولا أزال غير مؤمنة بفراقه معلنة الكفر بكلّ مشاعر اليأس... ولكن ماذا عساي أفعل؟

فحبّه الأقوى منّي جعلني عاجزة تماما أمامه... حتى أنني صرت أريد أن تضعف وتيرته في أرجاء قلبي كي أستطيع التجرء على مراسلته أو الذهاب إليه وترجيه للعودة لأحضاني الجامدة منذ مغادرته...

ولا زلت لحد الآن وبعد أربعة سنوات من معرفته أحارب اليأس من فقدانه... فحبّه أغلى على قلبي من نسيانه... لازلت أرجو الفرصة التي تأتي به إلى شوق عيوني... لا زلت أرجو أخباره وطلَّته الجديدة... أريد مسامحته... يجب عليّ مسامحته لكي أنسى الحقد عليه... فتركه لي وسط نيران الشّوق زرع الحقد في قلبي تجاه قسوة قلبه... لا أريد هذا الحقد... فهو مؤلم جدا... أريد الحبّ... حبّه يفرحني ويغيّر مزاجي وفيزياء جسمي لحالة عجيبة.

لم يبقى لي عزاء إلّا التلصص على صفحته الاجتماعيّة على الفايسبوك... لعلّ جديده يحلّ ضيفا على ساعات تصفحي...

بعد كلّ هذه الكلمات المكتوبة... أحسّت سلوى أنّها أطفأت غيظها وأنهت شطر قصتها الماضي... فبعثت بالكتابة في الحال لحليمة لكي تفهم حالها...

كان منتصف الليل قد تجاوزته الدّقائق حينها... وعيون سلوى قد داعبها النّعاس... فبعثت لحليمة تعتذر منها لأنّها تستيقظ باكرا للعمل...

افترقا على كلمة: ليلة سعيدة.

في الصباح:

وعند استفاقة سلوى استقبلتها عبارة حليمة في رسائل المسنجر:

ما كلّ هذا يا حبيبتي؟ .

شكرا شكرا جزيلا عن كلّ هذه الثقة... ولكن أكاد أجزم أن حبّ إيهابك أقوى وأعظم... وأن الأيّام القادمة ستكون مفرحة لكما... استعدي فقط يا عمري لفتح أحضان قلبك له... فالله سيجمع بينكما إن شاء الله.

استبشرت سلوى خيرا بالفأل الحسن وبالكلام الطيب... غيّر أنّها تفاجأت عند إرسالها لكلمة شكر لحليمة بأن الرّسالة محضورة من الإرسال... كانت حليمة قد حضرت حسابها من التعامل معها أو حتى الظهور...

احتارت سلوى كثيرا في عقليّة حليمة وسبب تصرفها... لكنّها سرعان ما تناست وموضوعها بعد وصولها للعمل...

لكن لم تكن تظنّ أنّ الأمسية ستحمل لها مالم تكن تنتظره... فآخر ما تمنته هو أن تحمل صفحة إيهاب أرقاما كأرقامها... فقد وجدت سلسلة من الشّيفرات أفرحتها جدا... كانت كما يلي:

❖ (1 50 1) (8 30 10 40 5) (1 30 40 1000 200 2 10 5) (10 1) (40 3 50 6 50 5).

❖ (1 8 2 20) (1 50 400 900 200 10 50 10).

أسرعت كالمجنونة تحل شيفرات الرّموز فصعقت من هول جمع الكلمات... لقد كانت رسالته غير متوقعة تماما... أدخلتها في هستيريا من الضحك والفرحة... كانت الكلمات كالتالي:

أنا حليمة المغربية يا مجنونه.

أحبّك انتظريني.

لم تستطع تصديق الكلمات... وبدأت تعيد حساباتها وذكرياتها وطريقة كلامها مع حليمة أو إيهاب... فاختلطت مشاعرها بين فرحة وخجل وضحك... أعادت قراءة كلماتها المكتوبة لحليمة فشعرت بأن كلّ شيء أصبح مكشوفا فيها لعدوها إيهاب... وخجلت قليلا من كلماتها... لكنّها لم تلبث أن أحسّت بالرضا وقالت في نفسها: ومن أقرب منه لقلبي لكي أصارحه بجروحاتي... هو الأحق بسماعها... بالإضافة أنّها الفرصة التي أتت أخيرا لتجعلها تبوح بكلّ مكتوم خنق نفسها لحبيبها الغالي.

صعدت بها تلك الكلمات إلى بحور النّشوة العلويّة... فَسَرَتْ في وجهها البهجة كسريان النّار في الهشيم... فعاد للدنيا جمالها... وبشقشقة الدّوري وهديل الحمام ترنمت من جديد...

تنامت حيويّة الأيّام وظلت معها سلوى تتذوق عسل الفرحة قطرة بقطرة... وتترقب بِزَهوٍ كيفية معاودة إيهاب إحياء حبّهما من جديد...

* * *

أما إيهاب فقد راعه الموضوع الذي أحيته سلوى في المحادثة الأخيرة على المسنجر... وظلّ سعيه في البحث عن مسبب كلّ تلك المشاكل بينهما...

لكنّه مذ قرأ نص سلوى ذهبت شكوكه ناحية سوزان... فهي من باتت بجنبه تلك الليلة... وهي الوحيدة التي اتخذ منها دلوه الذي ينفس فيه عن ضغط حبّه... فراحت ذاكرته تُذكّره بكلّ إيماءات سوزان المشكوك فيها حين

ذِكْرِ حبّ سلوى أمامها في فترة ما بعد الفراق... كانت كلها تصب في خانة اتهامها...

نزع من باله فكرة أن يكون السّبب هو فادي أو أيّ حاسد آخر لأنّ كلّ الشّبهات تحوم حول سوزان وغيرة سوزان المدمرة...

* * *

المثقف

الدرجة الثانية عشر

المثقف

رحلة البحث

رحلة البحث

كانت صورته عاريا بلباسه الدّاخليّ في تلك الفترة بالذات لن تستطيع الحصول عليها إلّا سوزان... لذا اشتدّ غضبه منها كما اشتدّ البحث في دماغه عن الطريقة السّوية للوصول إلى الحقيقة منها بكلّ فصولها...

لم يتعب كثيرا في البحث... فقد وقع اختياره على خطة استثمار حسد ياسمين لصديقتها سوزان استثمارا جيّدا... فكثيرا ما رمقته بعيون الإغراء حين يتقاطعان معها... حتى أنّها أرادت مشاركته الفراش عنوة في الليلة التي استضافاها في فيلتها لتسهر معهما على أنغام الرّاي وكؤوس الويسكي... لكنّ امتناع إيهاب عنها زاد هيجانها عليه... وزاد لهيبها حين فهمت أنّه يحمل لسوزان حبّا واحتراما كبيرا يخشى فيه خيانتها وخصوصا مع صديقتها... كان يخشى خسرانها وهو الذي يعلم دون قول أنّها حرّمت عليه جسد أخرى ما

داما معا... لأنّها منذ البداية عشقت فيه الوفاء وهو سبب وقوعها في عشقه.

ياسمين صاحبة السّبعة عشر سنة كانت يافعة جدًّا جذّابة الشّكل والقوام... توقظ دائما خشية سوزان منها على إيهاب... فشبابها الفتّان وأنوثتها الصارخة قد تجلب لحبّها الدّمار... لكنّ كثرة رفقتها لها واستلطافها لها جعلت منها الصديقة المقرّبة لها... لذا فإن معظم ساعات رفقتهما كانت تمضي في الحديث عن إيهاب وخصال إيهاب وقوته وفتنته وسحره وسحر كلماته... كلّ هذا ولّد في نفس ياسمين رغبة فيه... بدأت تعظم يوما بعد يوم... حتى أرادت الاستئثار به في الأخير لنفسها...

كان إيهاب يُديم اجتنابها خوفا على مشاعر سوزان... فليس هو ذلك الكلب الذي يعض اليد التي امتدت له... وخير سوزان الذي أغرقه جعل منه عبدا لها... يستحيل أن يجرح لها طرفا... وهو الذي يُحرّم جُرح من أحبّه فكيف من أغرقه في خيره... بل لا يزال يُغدقه فيه... بالرغم من أنّه شامخ الأنف... من النّوع الذي لا يرضى أن يُمسكه أحدهم بمعروفه... لكيلا يُقيّد حريته في التعامل معه... غيّر أنّ استحالة رغبة سوزان فيه إلى حبّ من الجوهر... جعلت من الماديات بينهما شيئا بسيطا... لا تعدو كونها مُيسّرة فقط للقاء المودة ومزينة له بكلّ المرغوبات... فبرغم الفارق الاجتماعيّ الكبير بينهما إلّا أنّه لم يحسّ معها بالنقص...

غيّر أنّ اشتعال فتيل غضبه منها جعل منها عدوّته اللدود... فقد سمحت لنفسها بالتدخل بين الرّوح والجسد... بالرغم من كلّ تلك المشاعر التي كان يشكوها لها باكيا... بيد أنّها لم ترحمه ومشت فوق جروحاته تزيد تقرحها يوما بعد يوم...

لذا أصبح يراها من المتوحّشين الغابيين... إرهابيّة عشقه... يتذكّر لها دموعه التي كان يذرفها على ضياع أيّامه العزيزة في عشقه الغالي على نفسه

فَيُحمِّلها إياها... ويُحمِّلُها كلّ دقيقة ألم وشهقة بكاء وكلّ جبال الفراق التي أصبحت تُعَدُّ بالسنوات...

أخذ هاتفه مباشرة واتصل بياسمين... محاولا التقرّب منها بكلماته معسولة... فإذا بها تفاجئه بقولها: قم بالاتصال بي من هاتف زميلك... أرجوك!

لعبت في باله أبغض الأفكار حينها وركِبته أشدّ الحيرات... فهذا الكلام يوحي أن هاتفه مراقب... أو أيّ شيء آخر يعجز عن تفسيره.

أسرع حينها لأقرب زميل له وأخذ هاتفه واستفرد بها يكلمها ويوقعها في شباكه بغية الوصول لأيّ معلومة... وابتدأ كلامه بسؤالها عن سبب طلبها بتغيير هاتفه... فتجنّبت الإجابة في غنج وراوغته تستفسره عن سبب مكالمته... فبدأ مشوار خيانته لسوزان حينها... لم يطفئ تيار كلماته إلّا بعد أن خطف منها موعدا للخيانة في فيلتها... غيّر أنّه عاود وألح عليها لمعرفة سبب لزوم تغيير هاتفه... خصوصا أنّها اشترطت عليه ذلك كلّما يريد أن يكلمها... لم تستطع محاولة اجتناب الإجابة هذه المرة... لأنّها على موعدٍ لإطفاء نارٍ أهلكت أمواجها أسوار حصن مفاتنها... فوعدته بذلك حين تكون بين أحضانه في ليلتهما الأولى...

لم تكن تلك الليلة بعيدة التوقيت... فقد كان مستعجلا قبل حدوث أيّ أمر طارئ في قرار ياسمين...

فاضطر للمبيت معها يومه ذاك... حقّق لها ليلتها تلك كلّ رغباتها وأرضى شوقها لقوته التي كثيرا ما فتنتها بها سوزان... بينما لا يرى فيها هو إلّا جُبا لسر دفين ينبغي عليه كشفه... فاستسلمت لإلحاحه المتواصل حين أحسّت في نهاية الليلة السّامرة بدفء أحضانه... وكشفت السّر الذي أحرجها الكشف عنه.

كانت أولى كلماتها كالصاعقة حلّت على رأس إيهاب... لأنّ ظنونه صدقت واتضح فِعْلا أن هاتفه مراقب... من طرف سوزان... لا تغفل عنه يوما... لشدّة

شغفها وحبّها.

اتضح بعد طلبه المزيد من التوضيح أن طريقة سوزان في التجسس عليه كانت عن طريق وضع تطبيق هاكر مخفي في هاتفه خاص بالتجسس العام... يسمح لها دائما هذا التطبيق بالتنصت على اتصالاته الصادرة والواردة... والاطلاع على رسائله أيضا كلها... والاطلاع على كلّ صغيرة وكبيرة في هاتفه... حتى أنّها ترى ما يحدث في شاشة هاتفه كلّما أرادت ذلك... ويكفي فقط أن يشغّل الأنترنت لكي تسمح لنفسها برؤية مكان إبحاره فيها... وتتم عمليّة الجوسسة الكاملة هذه من هاتفها الذي يحمل نفس التطبيق الخارق...

كانت تحركاته بهاتفه يستحيل أن تكون مخفية عليها... حتى أن المكالمات التي تَرِدُهُ تُوقِظُ رنينا في هاتفها لتستعد للتنصت عليها...

ولم تكتف بذلك فقد بعثت له برسالة محمَّلة بفيروسٍ لجميع مواقعه الاجتماعيّة فأصبحت أكوادها في يدها بعد أن فتح تلك الرّسائل الغامضة المصدر...

صُرِعَ إيهاب من هول ما سمع... بدأ بذاكرته يتذكر بالتفصيل ما جرى... وكيف كانت كلّ تفاصيل قصته مع سلوى لعبة في يد سوزان... لم يكن يهمه حبّ سوزان... بل ما أزعجه هو ما دمَّرته سوزان بذاك الحبّ... فَهِمَ عندها كلّ ما جرى... فهم لماذا كانت تصل لسلوى رسالة دنيئة مفسدة بعد كلّ رسالة تصالح منه... فهم لماذا كانت سوزان تزعجه باتصالها دائما كلّما كان يسترق النّظر في صفحة فايسبوك سلوى... حتى أنّه شك في أنّها كانت على علم بصفحته الوهميّة التي سماها باسم حليمة المغربيّة... فحامت شكوكه فيها أن تكون هي من حرَّضتها بحضره بإرسال رسالة بذيئة الكلمات لسلوى... بعد أن اطَّلعت على كلمات رسائله معها.

نظر لهاتفه في يده... كان هدية سوزان التي حرصت بخبث على أن يكون

هاتفه الدّائم... نظر إليه ولعنه في سره ولعن اليوم الذي أدخله في جيبه.

ازداد غضبه منها لكنّه لم يجد ما يفعله في حقيقة الأمر... فقرَّرَ أن يواجهها في سهرة ثنائيّة قد تكون الأخيرة بينهما... لذا لم يطق صبرا وبعث لها برسالةٍ قبل نومه يترجاها فيها أن يبيتا سويا ليلة الغد.

كان له ذلك فسوزان لا تعصي له أمرا... لكنّ السّهرة لم تكن بحسب هواها... فوجه إيهاب المتعكر أذهب فرحتها بانفرادهما...

لم يجد إيهاب مدخلا للحديث عن مشكلته... لكنّه استجمع أفكاره وقرّر مصارحتها بطريقته... مصارحتها بما تعلم أولا.

ابتعد عنها قليلا... وقال لها مبتعدا بنظره عن عيونها كي لا يرى ارتباكها: أتتذكرين سلوى يا سوزان؟...

ثم أردف بعد أن سكنت الغرفة تماما من فوضى ساكنيها: لقد اتضح أن أحدهم دخل بين الظفر واللحم... ونجح في إفساد العلاقة بيننا...

لم تكن تلك الكلمات تحمل جديدا لسوزان... لذا كانت خاشعة كأنّ على رأسها الطير... تنتظر جديد كلامه...

بعدها فاجأها إيهاب بقوله: أتعلمين أيضا أنني شككت بأنّ ذلك العدو كان مخترقا لهاتفي... وبعد الاطلاع اتضح فعلا أن عدوي هاكر محترف...

لقد أبكاني الدّم أيّاما بلياليها الطوال... حتى بلغت عدد الأيّام أكثر من ثلاث سنين... ذهبت بكاهلي فيها الأحزان...

حينها التفتَ لعيونها فإذا بها بحر من الدّموع... ابتلت لها الخدود... فتوجه إليها بعد أن رَقَّهُ حالها وعطف عن تلك العيون السّاحرة التي لطالما آنسته في وحدته... فطبع على جبينها قبله حارة... وأردف قائلا بعدها:

لولا وجودك في أيّام أحزاني لأصبحتُ رمادا من فرط احتراق قلبي بنيران الأشواق... وجودك كان نعمة حياتي يا سوزانتي...

لكنه أردف بعد أن ابتعد عنها وأدار لها ظهره: لكن ياسوزان كما تعلمين جيّدا... قلبي مأسور في يد سلوى... لذا فإني أودّ الرّجوع إليها لاستعادة روحي وتنفسي... أود أن أكون بجنبها... لذا أظنّ أنّني سأستقيل من العمل مع أبيك في اليومين القادمين...

انفجرت بالبكاء وهرولت لأشيائها تجمعها تريد الهروب بنفسها لمنزلها...

لم يستطع إمساكها عن الذهاب... لكنّه لم يتركها وحيدة في عزلتها... فقد أرسل لها رسالة مطولة يعبّر فيها عن حبّه الصادق لها ويشكرها على كلّ شيء... يشكرها عن أيّامها العزيزة التي وهبتها لمن يحترمها بصدق... يشكرها أنّها كانت عونه عند حاجته وعند أحزانه... ويعبّر فيها عن بقاء حبّه لها حيا رغم وجود سلوى لأنّ حبّه لها كان حقيقيا...

كانت تلك الرّسالة الطويلة الجميلة جمال قلب إيهاب مفرحة لجروحات سوزان... لكنّه آلمها بكلماته الطيبة لأنّها تعلم جيّدا أنّها سبب عذابه كلّ تلك السّنون... فهي من بعثت بالصورة لسلوى... واستمرت بعدها بمحاربة كلّ رسائله ببعث أخرى وراءها بدقائق فقط قاضية على كلّ الآمال من رقم أقنعتها بالحروف أنّه لإيهاب يوم بعث الصورة... كانت كلماتها بذيئة جدًّا مستهزئة دائما من حمق سلوى... واستمرت بتحريض أيّ فتى يكون أمامها بالكلام معها بعد أن تتصل بها من مجهول... فيسمعها أسوء الكلمات الممزوجة بالقهقهات... لكي تزرع الوسوسة في صدرها... والشكوك من استهزاء إيهاب بها مع أصحابه... وكادت أن تبعث لها بصورة لإيهاب عاريا تماما لولا خوفها عليه من غضب سلوى وما قد يحمله من تبعات.

* * *

الدرجة الثالثة عشر
لقاء سلوى

لقـاء سلـوى

المثقف

لـم تَنَـمْ سـوزان تفكّـر تلـك الليلـة... وهـي تعلـم أنّهـا تركـت وراءهـا إيهـاب وحيـدا ليبيـت فـي الفيـلا... أرادت الخـروج مـن هـذه القصـة وإنهائهـا بتـرك شـيء جميـل يعبّـر عـن حسـن نيتهـا... وتجعلـه كذكـرى حسـنة لهـا فـي قلبـه.

كانـت تعلـم جيّـدا مـا إيهـاب فـي أمـسّ الحاجـة إليـه فـي وقتـه الحالـي... لـذا أخـذت هاتفهـا وكتبـت لـه رسـالة عنـد الفجـر... قالـت لـه مختصـرة القـول: «تمنيتـك لـي بـكلّ مـا فيّ... لكنّـي أحتـرم قـرار قلبـك... فأنـا عرفتـك حاملا لهـذا الحـبّ... أحببتـك فعـلا وأحـبّ فيـك الوفـاء الدّائـم لمحبوبتـك... سـأقبل خسـارتك لكـن بشـرط أخيـر... أن تقبـل معونتـي ومعونـة أبـي فـي التوسّـط للحصـول لـك علـى عمـل دائـم مـع الدّولـة بجانـب حبّـك فـي ولايتكـم سـكيكدة...

قـد سـامحتك مـن قلبـي... أتمنّـى أن تسـامحني عـن كلّ أخطائـي... وشـكرا لـك عـن كلّ أيّامـك معـي».

استقبلها إيهاب عند الضحى لأنّ سكره وحيدا يقلّب أفكاره ليلة كاملة أذهب إبكاره وحيويته... كانت رسالتها مفاجئة له... أحسّ بفرحة مختلطة... بتفهم سوزان وبالفرج القريب لهمّه هناك ليفتح حياة جديدة بأمل جديد... يبدو في الأفق قريبا.

لم يذهب إلى عمله ذلك اليوم... نزل من تلك الفيلا في حيدرة بأعالي العاصمة وتوجّه إلى الكورنيش يجر أذياله يترقّب بأمل في مستقبله... لأنّه لا يعلم بعد الطريقة الفضلى للولوج بجانب سلوى... ركب بعدها الحافلة من باب الواد ونزل في شاطئ علي لابوانت الصخريّ... جلس على إحدى صخوره يستنشق نسيم البحر... كان بجانب تلك الصخرة يجلس صيّاد عجوز يحمل الأمل في صنارته... تأمّل قليلا في إيهاب ثمّ أقبل عليه وألقى عليه السّلام وجلس بجانبه يسأله عن الحيرة التي تبدو في وجهه... فأجابه إيهاب مختصرا: إنّني تائه مع دُنيتي يا أبي...

نظر العجوز مطوّلا في الأفق ثمّ استدار لإيهاب ناصحا: «قم بما يلزمك القيام به يا ابني... فإنّها حياتك أنت... ولن تنتظرك لكي تقف على رجليك... تزوّج... أنجب... ربِ أولادك... اعمل، كدّ وجدّ... واصبر وبلّغ رسالتك في الدّنيا... فالذين قبلك بدأوا رسالتهم أصغر منك... وظروفهم أسوأ منك... فسواء كانت الظروف مواتية أم لا... اعزم وتوكّل فالله الوكيل لن يحزنك... وإن أسأت مرات ومرات فلا تمل الرّجوع لباب الرّحمان... فالفرج قريب... المهم قرّر وفكّر ولا تطل التفكير».

نظر إليه إيهاب مطوّلا... كان يؤمن بالرسائل السّماويّة... أحسّ أنّ المولى تعالى بعثه له لإنارة طريقه... فقد وجد في كلامه ضالته... لقد وجد الحل لمعضلته مع سلوى... كان الحل لحد تلك اللحظة غائبا عن ذهنه...

شكر العجوز كثيرا ونهض بوجه تملؤه البشرى... واضعا تلك الكلمة

السّاحرة بين عينيه... يمشي ويردّد بين شفتيه «الزواج الزواج الزواج»... كيف غاب هذا الحل عن تفكيري؟... هو أحلى حل يجمعني بحبيبتي.

لم يزل يفكّر في حلاوة الفكرة راكبا للعودة... حتى رنّ هاتفه في جيبه... كان رب عمله السّيد رشيد... دخل مع إيهاب في الموضوع مباشرة... قال له إنّ ابنته أخبرته أنّه يريد أن يكون عمله قريبا من منزله... لذا فهو سيتكفّل له بالحصول على عمل في مديريّة الأشغال العموميّة في عنابة... بمنصب مهندس دولة في التسيير التقني... لذا ما عليه إلّا أن يتقدّم فقط للمدير هناك بملفه حين وصوله... وأعطاه الحريّة في اختيار يوم ذهابه.

كانت المكالمة سيدة لحظة إيهاب... حمد الله كثيرا وأراد السّجود في الحافلة من فرط الفرحة... قرّر في صميمه التوبة عندها من كلّ الانزلاقات الشّبّانيّة الموبوءة والالتفات لحياة الحلال التي سهّلها له الرّحمان...

فتح صفحته على الفايسبوك... لا يرى في أفقه غير سلوى... وكتب شيفرته المعهودة:

(60 1 400 100 4 40) (30 600 9 2 400 20) (6 1 50 5 10) (70 700 1 2 50 1) (1 10) (8 2 10).

منذ أن وقعت عيون سلوى عليها والزغاريد تُطلق في أرجائها على ضرب دف قلبها الذي لم يصدّق ما يجري... كان معنى الشّيفرة: «سأتقدم لخطبتك وأنهي عذابنا يا حبّي».

تدافعت الدّقائق والساعات تريد وصول يوم اللقاء بأسرع ما يكون... وتصاعدت وتيرة فرحة الطيور... وزرع في الأرض هدوءها وبهجتها... وتسارعت الأفكار ودقات القلوب...

تقرّب فيها إيهاب من محمد شقيق سلوى وفاتحه في موضوع سلوى بصعوبة... حدّدا بعد استشارة الأهل موعدا للشوفة أو النّظرة التي تسبق كلّ

حـالات الخطوبـة...

لـم تنقضِ 360 ساعة منـذ آخـر شـيفرة بينهمـا أو خمسـة عشـر يومـا... إلّا وحَلّ عيدهمـا وعيـد كلّ الدّنيـا قاطبـة... كان يومـا هادئـا موسـيقيا حيـن شرّفت رجـلاه بيـت سـلواه... بقلـب جبـان يريـد منـه الهـرب مـن المـكان... فلـولا البشاشـة التـي رآهـا في عيـون أسـرتها لصعـب التنفـس عليـه أكثـر...

لـم يطـل ارتباكـه كثيـرا... فقـد تقلّـب ارتباكـه ذهـولا عندمـا أشـرقت شـمس على غرفـة الجلـوس وجلسـت بجانبـه... أعمـى بصـره ذاك الشّـعر الحريـريّ الشّـديد السّـواد الـذي شـمل وغطّـى نصـف جسـمها النّاصـع بيـاض أطرافـه التـي أحرجتـه بلمعانهـا وانعـكاس الضـوء عليهـا كأنّهـا مرايـا... لـم يرهـا بمثـل ذاك الجمـال مـن قبـل... فحجابهـا كان يسـتر كلّ فتنتهـا...

اسـترق نظـرة لعيونهـا الواسـعة كالبحـر السّـوداء مياهـه... فأبهجتـه تلـك الجفـون الرّحبـة السّـعيدة التـي احتـرق قلبـه شـوقا لهـا... فانطلـق محيـاه وزادت عيونـه بريقـا واشـتعلت ثقتـه في نفسـه مـن جديـد حيـن رأى الفرحـة في عينيهـا...

كان الجـوّ مهيبـا... كأنّ قـوة عظيمـة أدخلـت الغرفـة كاملـة في عاطفـة غامـرة... كان الحـبّ شـاملا لـكلّ المـكان...

كان الرّضـا السّـائد علـى وجـوه العروسـين هـو مـا سـرّع قـراءة الفاتحـة... بعـد الاطمئنـان علـى كلّ مـا يـدور حـول شـغل إيهـاب الجديـد الـذي يماثـل منصـب سـلوى... تراضـت العائلتيـن علـى الشّـروط... وتركـت للعاشـقين فرصـة انفـراد صغيـرة في الغرفـة...

كانـت جلسـة غلـب عليهـا الخجـل والإربـاك الشّـديد... نظـر إليهـا بصعوبـة بعـد أكثـر مـن دقيقـة صمـت شـغلته فيهـا دقـات قلبـه التـي كادت أن تسـمع... رفـع فيهـا عينيـه وهـو يعلـم أنّـه يجـب أن يتحـدّث... نظـر إليهـا حاقـدا عليهـا لأنّهـا اسـتمرت في صمتهـا حتـى في هـذه اللحظـة... لـم تُعنـه في إيجـاد كلمـة مناسـبة لافتتـاح

الحديـث بهـا... مسـتمتعة بلعـب دور الأنثـى.

بعـد أن اسـتجمع كلّ شـجاعته وطاقتـه... نطـق أخيـرا بصعوبـة بالغـة وكأنـه أخـرص يحـاول الـكلام... لـم يجـد كلمـة في قاموسـه... فأطلـق كلمـة تعبّـر عـن الكثيـر جـدًّا عندمـا ينطقهـا العاشـقان اللـذان عانيـا سـنين الهجـر والبـكاء الهسـتيري... قـال لهـا متلعثمـا: كيـف حالـك؟

جـاء دورهـا في الـكلام... لـم تكـن مختلفـة عنـه... كأنّهمـا تـوأم أخـرص... أخرجـت كلمتهـا بشـهقة كادت تـودي بهـا... الحمـد للـه.

تعـب جـدًّا في التفكيـر لإيجـاد كلمـة أخـرى... ودّ كثيـرا لـو أطالـت كلمتهـا أو أعطتـه الفرصـة للـكلام بطـرح سـؤال عليـه... قـرّر أخيـرا الخـوض في الأعمـاق بعـد اطمئنانـه مـن أن الوضـع مماثـل في الضفـة الأخـرى... نظـر في مقلتهـا التـي كانـت خجولـة مـن صعوبـة المقـام متوجهـة للأرض... وقـال لهـا ينفـس اسـتحالة النّطـق الأولـى... اشـتقت لـك... كانـت كلمتـه مغلّفـة بالدمـوع لأنّهـا كلمـة تختـزل آهـات وجنـون وبحـور مـن الدّمـوع وآلاف مـن الخناجـر أيقظـت مئاتـا مـن الليالـي... كلمـة نُطقـت صعبـة لأنّهـا مـن كلام القلـب مباشـرة.

انطلقـت ابتسـامة مـن ثغرهـا بصـدى صغيـر... كانـت ابتسـامة خجولـة... كأنّهـا تفاجـأت مـن الكلمـة المختـارة... نظـرت إليـه بحـذر لكيـلا تقـع في عينيـه... غيّـر أنّـه نجـح في إسـقاطها في شـباك النّظـرة المتعـارف عليهـا في دسـتورهما... فعلّقـت في لمعـان عيونـه التـي اشـتاقت للإبحـار فيهمـا... دامـت تلـك النّظـرة الماحيـة لـكلّ العقبـات شـيئا مـن الدّقيقـة... ابتسـما فيهـا فحـلّ الـدّفء علـى الفكـر المتوتّـر... واسـتغنيا بعدهـا عـن البحـث عـن الكلمـات المعبّـرة التـي يسـتحقها المقـام وصاحبـه...

أمسـك بعدهـا يدهـا بحنـان... وأقامهـا مـن مكانهـا ودنـا منهـا واحتضنهـا بشـدّة كأنّهـا قطعـة منـه احتضـان الأمّ لوليدهـا أوّل مـرة... شـهقت فيهـا روحـه ونـام برأسـه

على كتفها... مدّت بيديها تضمه أيضا من فرط حقدها على سنين العذاب التي قهرتها ولم ترحمها رغم آلاف الصرخات والعبرات... ثمّ هطلت دمعاته شوقا من جفونه المتلهفة فأيقظت عبراتها فامتزجت العَبرات بين الوجنات الملتهبة.

* * *

تسارعت بعدها الأحداث وشهقات الفرحات... بعد أن جمع بينهما الأهل جمعا قصريا كان أروع من خيالهما... فلم تنقضِ سنتين من الفرحات إلّا وازدان فراشهما بشامل الصغير... واكتملت الفرحة حين سهل الله تعالى لسلوى انتقال عملها إلى دائرة بن عزوز كمهندسة في المصلحة التقنيّة...

وسارت الأيّام تعوّض العاشقين بؤس الماضي وأحزانه... وإيهاب لا يكف حين تقع عينيه على سلوى أن يصفها بأُمّية الشّفتين... أميّة الشّفتين تلك الخجولة التي كادت قُبلةُ عقربٍ وسريرها أن تُدمّرَ حياتها وحياةَ حبّها وتضعَ حدّا لأصدقِ المشاعر.

تلك المشاعر التي لا تقبل أن تموت إلّا بقتل كلّ شيء في دُنيا حامليها.

الملتقى

أجمل حلم

كانت السّماء ورديّة حين عاودت فارسة عقلي الظهور... عارية بجسد متلألئ يُذهب الأبصار... تجري على رمال شاطئ قلبي النّاعمة... ترجيتها حينها إلّا تطيل الجري فإن اهتزاز نهديها يُذهل وجداني ويُبطئ تفكيري ويُلعثم كلامي وإدراكي.

تنازلتْ متواضعة لرجائي... وأتت لمكاني حيث كنت متمدّدا... وناولتني جسدها المرمري وتوسدت بجانبي ذراعي...

زاد إحساسي حينها بالرضا حين رأيت ذراعها الياقوتي يلفني ويحضنني... حبيبتي يا ناس تريدني.

فتحتُ بعد انقضاء النّشوة عيني... فإذا بي انتقلت من حلم إلى حلم واقعي أجمل... تحقّق حلمي يا ناس بالأفضل... كانت سلوتي سلوى تلفّني بذراعها تريد إذابتي... طبعتُ على ثغرها العسلي حينها قبلة من الحلال... وللحلال أعزائي حرمة... نقطة يجب علينا الوقوف عندها.

إيهاب

أحقيقة أنتِ

أم على عيني تكذبين

أحقيقة أنتِ

أم أنتِ أحلامي خرجت لتزعجني

خرجت لتنسيني جمال النّساء

وإن كنتِ حقيقة

فاغربي عن وجهي عذرا

فإنّ جمالك مشكلة

ألا تعلمين أنّي

الملتقى

إن أمعنت فيك النّظر

سقطت من عيني نسائي

وصارت المقربة منهم ذَكَرَا

اذهبي وأبعدي عينيك عنّي

فلستُ أهلا لهذه الحروب

فلحظُ عينيك سم

ورموشك نبال

تُرمى من أقواس الحواجب

ووَرد خدك الفاتح

يبهجني

وأخاف بعدها زوالكِ

وغُرة وجنتك قبري

إن أنتِ أعطيتنيَ الأملَ

وشفاه مبسمكِ

تلك العسليّة

لا تريد منّي أن تخبوَ شهوتي

فكيف تريدينَ مِنك

أماميَ البقاء

وكُلّي يريد لثمك

ولثم سمك

لعلّ في رحيقك الخلود والبقاء

وخصلاتك الحريريّة

المنسدلة على رقبتكِ العاجية

المثقف

ابتدأتْ فعلا في إزهاق روحي

وجيدك المرمريّ

وتفاحُ صدرك

وخاتمُ خصرك

وقوامك الذي لا يرحم

أتموا بعد حريرك الأمر

المثقف

الفهرس

الدّرجة الأولى طيش شبـــاب 15
الدّرجة الثّانية سلــوى وشيريـن 25
الدّرجـة الثّالثـة زلـــة شيريـــن 37
الدّرجـة الرّابعـة حـبّ ملتهـــب 45
الدّرجة الخامسة لا يعرف الشّوق إلّا من يكابده ولا الصبابة إلّا من يعانيها 91
الدّرجة السّادسة سوزان 129
الدّرجة السّابعة لحظة الفراق 161
الدّرجـة الثّامنـة رجـوع الموجـوع إلـى حلبـات الدّراسـة 175
الدّرجـة التّاسـعة ابتعـاد جسـد بـلا قلـب 197
الدّرجـة العاشـرة القطـرة التـي أفاضـت كأس صبـره 209
الدّرجـة الحاديـة عشـر بعـد عـام آخـر 237
الدّرجـة الثّانيـة عشـر رحلـة البحـث 259
الدّرجـة الثالثـة عشـر لقـاء سلـوى 267

المثقف